زمن البدايات

١ ـ كفرشوبا

بين الماضي والمستقبل تقع كفرشوبا . انها مجرد قرية جنوبية عادية ، تحولت الى رمز ، لانها تحمل الواقع اليومي في اكثر لحظاته توهجا . انها الحد الفاصل بين زمنين . الزمن الاول : هو زمن السلطة ، زمن الاستسلام والاستجداء والهرب من المواجهة . والزمن الثاني : هو زمن الشعب . زمن الذين يعرفون جيدا الفرق بين الموت والحياة ، لان الحياة تعني لهم تفاصيل الفعل الانساني . وحين يختارون الحياة ، يعرفون معنى ان تتهدم البيوت حتى لا يتهدم الوطن . الزمن الاول هو زمن التجار ، الذين لا ينتجون ، ولا يفهمون ان الحياة هي انتاج نفسها ، هي العمل . لذلك يحسبون الاجساد بالارقام ويرسمون الخرائط بالمؤامرات . والزمن الثاني هو زمن المنتجين الحقيقيين ، الذين يصنعون من الزيتون زيتا ، ومن الزيت طعاما ودواء . والذين يرتجفون امام اوراق التبغ وهي تأكل ظهورهم المنحنية .

هذا الحد الفاصل ، الذي رسمته المقاومة ، يتحول في كفرشوبا الى حد لبناني . بين المقاومة والاستسلام ، لا مجال لخياراتنا . فحين كتبت دماء المقاتلين الفلسطينيين اروع ملحمة قتالية في معارك كفرشوبا ، كان الفلاحون الذين اجبروا على النزوح يرفضون الابتزاز الاسرائيلي ، ويعلنون تأييدهم للقوى التي اختارت الحياة . لذلك يجب ان تتحول كفرشوبا الى حد نهائي بين اختيارين . الاختيار الاول هو اختيار المستقبل ، لانه هنا ، يصنع التاريخ الحقيقي في اللهب الذي يوحد ويهدم ، يعلن دمار الماضي وبداية المستقبل . فالمستقبل هو الاختيار الثوري الذي تعلمه الكادحون بالممارسة . تعلموه من سياط الجلادين والمرتزقة . اما الاختيار الثاني فهو اختيار الطبقات السائدة التي لا خيار لها ، لانها لن تتخلى عن سيطرتها وامتيازاتها وجبنها الا مرغمة .

هل بدأت رحلة الخروج من اسار الماضي ؟

جواب الشعب كان واضحا . لا نخضع للابتزاز الاسرائيلي . ونرفض كذلك ابتزاز الذين يريدون تحويل حربنا الى مذبحة جديدة للفلسطينيين . هذه المرة لن تكون مذابح ، بل حروب لا تنتهي . لذلك ، حين نصل الى اعتاب البداية نكتشف صعوبة الطريق ووعورتها ، فالايدي التي امتدت الى الانقاض لترفعها ، والى القرية لتقيم فيها ، هي بشارات المستقبل .

على اعتاب البداية ، نكتشف ان الثورة هي البداية . وان الحياة

الجديدة ، تفترض البدء بتعلم دروسها الحقيقية من داخل الممارسة اليومية .

لكنها البداية آتية . فالبندقية هي الساعد الذي يحملها . والثورة هي الثائر الذي يصنعها . وفي كفرشوبا التي ستبنى من جديد ، سوف تنطلق المقاومة الجماهيرية ، التي سترفد القتال ، وتعطيه مذاق بدايات الفعل المغير وتحول البيوت الى اوطان جديدة .

تحية الى الاذرع التي تصنع البدايات ، وتحية للنازحين ، الذين في مدرسة صمودهم ، نتلقى دروس الحرب ونكتشف مجد البدايات .

٢ - الاقدام عارية

الاقدام عارية ، ورطوبة الزنازين وجوه تعانق الشمس . انه الارهاب وقد لبس المنطق ، وتحول الى الجسد الانساني ، ليسحق فيه لحظة الحياة . في خفايا السجون ، كتب جزء كبير من تاريخنا المعاصر . ورسمت حضارة الخوف قواعدها ، على الاجساد المحطمة ، وعلى الايدي التي لا تنحني .

السجن هو علامة خلفية ، او سرداب داخلي ، لا بد من معرفته حتى نعرف ما يجري على السطح . لذلك كانت الاقدام عارية ، اشارة الى عري آخر . عجز حضارة الخوف عن القدرة على الحوار . ليست الفوضى هي البديل ، ففي المعارك الفاصلة تكشف الطبقات السائدة عن مبلغ احتقارها لمبادئها ، فاذا استطاعت فصلت بلا رحمة وسحقت اولئك الذين لن يرحموا جبنها ورعبها .

كل حضارة الملكية الخاصة ، هي حضارة قمع وارهاب . وما الحريات النسبية الا نسبية ، نسبة الى قدرة الطبقات المسيطرة على ضبط الصراع في حدود معينة . لهذا حين ندرس تاريخ قمعها ، لا نمسك مسطرة الاخلاق أو القيم الانسانية . بـل نتعلم ، بتواضع كلي ، تاريخ المرارات بفشلها ونجاحاتها . هذا التاريخ ، هو ما قبل تاريخ المستقبل الذي تنتهي فيـه الملكية الخاصة ، وتتحول فيه السجون الى اشياء اكثر جمالا . ندرس تاريخ المرارات ، ونتعلم كيف نشحذ اسلحة المستقبل . اي كيف نمارس الصراع في سبيل الوصول الى بداية ممكنة .

شهادة طاهر عبد الحكيم(١)، هي شهادة التفاصيل . كيف يتحول السجن الى نمط حياة . وكيف تصبح التفاصيل هي الاعمال الكبرى التي تغير وجه التاريخ . لحظة صمود واحدة تساوي كل الكرامة الانسانية التي يحاول

---

(١) طاهر عبد الحكيم : **الاقدام العارية** . دار ابن خلدون . بيروت ١٩٧٤ .

تفتينها بالارهاب وسحق العظام ، وتحويل الحياة الى غابة مجانين .

التفاصيل هي العالم الجديد الذي تكشفه حضارة الخوف . ففي لحظات الموت ، حيث يسقط بعض القادة والمناضلين ، تصبح الحياة مجرد لحظة ، لا تستعاد ، بل تشحن بالارادة الجماعية . هنا ، نكتشف معنى الوجود الجماعي ، الذي يصبح حاجة وطريقا . وتصبح اللحظات تحت الشمس المحرقة ، او داخل الزنازين الرطبة ، استجماعا لكل تاريخ الوجود المشترك الذي يجعل من جسور التواصل الانساني ، جسرا الى صمود من نمط جديد . السجن ، هو تحويل الحياة من معقوليتها الى لامعقولية مطلقة . او هكذا تعلمنا تجربة المناضلين السياسيين الذين حاولت حضارة الخوف ان تسلب احساسهم بجدوى العالم . لامعقولية السجان ، هي انعكاس للامعقولية علاقة السيد بالعبد . لكنها هنا ، وفي حيز ضيق ، تكشف عن جميع احتمالاتها ، وتعطي للعلاقة الموضوعية في الخارج ، معناها الحقيقي . فقمع المظاهرة ، هو الوجه الآخر لسلطة الطبقات الرجعية . لكن وجهها الحقيقي لا يظهر الا في الزنازين المعتمة الرطبة . هنا نكتشف مع غازي الخليلي(٢) معنى ان تشعر بانك تطير خارج السجن وتعانق الفضاء ، فيما انت تتعرض لأبشع عملية ضرب وحشية وجماعية ، يقوم بها احقر الجلادين .

في الخارج ، حيث الشمس والهواء ، تعود لتواجه حضارة الخوف . ولأننا تعلمنا الدرس جيدا ، لا نتوقف لحظة عن رفع المطالب الجزئية . التحرر من الخوف ، والوصول الى الحد الادنى من الحرية البورجوازية . لكن حضارة الخوف لا تسمح بهذه « الرفاهية » . وتتكرر الاقدام العارية في « الجفر » او في اي مكان آخر . هذه ليست دوامة ، انها فقط علامة على انحطاط زمن الطبقات السائدة ، لذلك تسمح لنا ، بكتابة تاريخنا الآخر ، حتى في سجوننا .

الرجال الذين اكتوت اعينهم بنار الارهاب ، اقاموا حلقة سرية اخرى ، من تاريخنا الحقيقي ، الذي بقيت الكثير من حلقاته الجميلة سرية ، لاننا لم نستطع بعد ان ننتصر على الارهاب العلني .

الاقدام العارية ، شهادة على الزمن الجديد ، الذي ستبنيه الديمقراطية الحقيقية . واذا كانت تلك الاقدام لم تستطع ، لأسباب موضوعية مختلفة ان تكشف اكثر من مؤشرات للجديد ، فان « الجفر » الذي التف حول اجساد

---

(٢) غازي الخليلي : **شهادات على جدران زنزانة** . اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين . بيروت ١٩٧٥ .

المقاتلين الفلسطينيين كان تاريخا علنيا ، لصراع لن ينتهي ، الا على انقاض الموت .

التاريخ السري ، الحقيقي للثورة العربية ، لم يكتب بعد . لكن شرط كتابته ، في الشمس ، هو قدرة الحركة الجماهيرية على صياغة المستقبل كاملا . لذلك يكون حجم شهادة طاهر عبد الحكيم موت رفاقه داخل الاقبية ، وتحت سياط الجلادين ، وتكون شهادتنا ، في تحويل هذا التاريخ السري ، الى مؤشر لتاريخنا الذي لم يكتب .

الياس خوري

الكتابة والسجن

اعتقل في بغداد الكاتب العراقي عبد الستار ناصر • وترد د أن سبب اعتقاله قصةً نشرها بعنوان « سيدنا الخليفة » ، اعتبر النظام القائم أنها ترمز له .

كل نظام يقدر أن يفسّر أي نتاج أدبي أو فكري على أنه ضدّه ، اذا كان يعتبر نفسه ضد الحريات الديموقراطية الأساسية التي هي الخبز الآخر للشعب ، وفي طليعتها حرية التعبير .

وهذا ما يؤدي الى نهاية الإبداع ، وتحويل الانسان الى كائن يعامل كما تعامل الأشياء .

إننا نستنكر كلّ قمع يتعرض له الكاتب بتهمة الكتابة . فالخطر كل الخطر ليس في الكتابة ، مهما كانت ، وإنما هي في القمع — في الخرس والصّمم والعمى .

وهذا الصوت الذي نرفعه تعبيرٌ عن إصرارنا على تمتّع الكاتب والمفكر والفنان بالحرية الكاملة التي لا بديل عنها . ذلك أن هذه الحرية صدّى للحرية الاجتماعية ، وكل قمع للكتابة إنما هو امتداد لقمع اجتماعي أشمل .

وهذا الصوت الذي نرفعه يمثل أصواتاً عربية كثيرة .

الحرية لعبد الستار ناصر .

«مواقف»

عبد الكبير الخطيبي

نحو علم اجتماع للعالم العربي

١ ـ الاقتراح الاول

تتمثل المهمة الاساسية لعلم اجتماع العالم العربي في الاضطلاع بعمل نقدي مزدوج :

أ ـــ هدم المفاهيم المنحدرة من المعرفة والكتابات السوسيولوجية التي دابت على التحدث باسم العالم العربي ، وتميزت بغلبة النزعة وبايديولوجية عرقية ـــ نرجسية .

ب ـــ نقد المعرفة والكتابات التي انتجتها مختلف المجتمعات العربية لتحليل وضعيتها .

نستهدف ، اذن ، حركة مزدوجة هـــي وحدها الكفيلة ، في نظرنا ، بتجاوز التكرار والاستنساخ ، وبـــأن تفسح امام علماء الاجتماع امكانية الوصول الى معرفة تطبيقية اقل استلابا واكثر ملاءمة لخصوصية الموضوع المحلـــل .

ماذا نقصد بـ « هدم المفاهيم » ؟

ان المفاهيم وقائع تاريخية ، تتبنين تناسبا مع فكر وأحداث خاصة في الزمان والمكان ، انها تندرج في كتابات تملك منطقها المتميز ، وتتسع ليس فقط عن طريق الاستعارة التي تتم بين علم وعلم آخر ، ولكن عن طريق لعبة تحويلية تدور ما بين التاريخ والعلم والايديولوجيا . ولا شك ان الكتابات والمفاهيم تتلاحم ، الا انه في كل مرة يسيطر معلم نظري او ايقاع ايديولوجي معـــين .

ويوضح لنا علم الدلالات ان كل كتابة هي عبارة عن تداخل نصوص ، عن لعبة تحويلية تجري بين مفاتيح رموز متعددة للمفاهيم . والكتابة السوسيولوجية لا تفلت من هذا التحديد . وكما ان نمطا للانتاج لا ينجح في التفوق على انماط الانتاج الاخرى الموجودة في تشكيلة مجتمعية الا بقدر ما يستمر في التعايش معها ، كذلك كل كتابة سوسيولوجية جديدة لا تستطيع ان تمحو الكتابات السابقة بدون ادماجها في مجالها الخاص ، اي ان التجاوز يتم عن طريق الادماج .

لكن الواقع ينبئنا ان العلوم الاجتماعية نمت وتطورت في الغرب . وهو تطور عاصر بدوره اتساع الهيمنة الامبريالية .

يلزم ان نستخلص النتائج من مثل هذا النقاش ، وفي طليعة ما نستخلصه :

اعادة التفكير في التاريخ والعلم ، لا بالرجوع الى مركز او اصل (الغرب) ، ولكن بالنسبة الى ما يسميه انور عبد الملك : « عقل متعدد المحاور » ، ولا جدال ان السيطرة الاكثر عنفا (على مستوى المعرفة) هي التي تجعل المسيطر عليه يعتقد او يفكر بأن مكان ، ومركز ، واصل كلامه موجودة عند المسيطر .

ما كانت هذه النسبية التاريخية ــ الثقافية لتحظى باهتمامنا لولا انها تتيح ، بكيفية احسن ، الاحاطة بصلاحية بعض الفرضيات العلمية . لنضرب مثلا : تنحو الماركسية في نمذجتها الكلاسيكية الى ادراج المجتمعات الماقبل ــ استعمارية ، ضمن النمط الآسيوي للانتاج (تجدد الاهتمام بهذه المناقشة ذو دلالة في حد ذاته) . الا ان هذه الموضوعة (النمط الآسيوي للانتاج) عائمة لا تستطيع ان تحدد الكثرة الكاثرة من المجتمعات . ففي مجتمع ما قبل استعماري واحد ، مثل المغرب ، نميز عديدا من الانساق المتصارعة : الأبيسي ، والقبلي ، والراسمالي المعتمد على الصناعة التقليدية ، والمولوي ، واخيرا النسق المخزني المتغلب على بقية الانساق .

لذلك ندعو الى التخلي عن فكرة النمذجة في علم الاجتماع لانها تنطوي على ميتافيزيقا تخص الكلية المجتمعية . ما نريده نحن بالضبط ، هو تكسير مركزية المعرفة الغربية وفكها ، شيئا فشيئا ، عن ميتافيزيقاها الارسطية .

والاقتراح الفرعي الثاني السالف الذكر ، يمكّن من ازالة عقبة اولى من عقبات هذه السيطرة العلمية . ما دام ليس هناك علم اجتماع او كتابة سوسيولوجية في **ذاتها** ، ينبغي القيام بالنقد المزدوج الذي نتحدث عنه ، لا استجابة فقط لضرورة استراتيجية علمية وايديولوجية ، ولكن ايضا لان التاريخ نفسه اثر لحركة مزدوجة : فالكوننة والتخصيص يؤطران النمو التاريخي .

ناخذ مثالا آخر لتوضيح هذا الجزء من عملية النقد المزدوج . نعرف

ان الفكر العربي المعاصر لا يستطيع الافلات بسهولة من تأثير اسسه اللاهوتية والتيوقراطية التي تطبع ايديولوجية الاسلام . ومن السهل ملاحظة التلفيقية الغالبة على هذا الفكر : اذ يتعلق الامر احيانا بترجمة مقنعة لمفاهيم ميتافيزيقية . كثيرا ما يستعمل علماء الاجتماع العرب او المستشرقون مصطلح العصبية المستعار من ابن خلدون . غير ان هذا المفهوم يضمر رؤية دورية للتاريخ هي رؤية الرجوع الابدي .

هل يعقل ان يعمد فكر جدلي الى ادماج مصطلحات مضادة للجدلية ؟
هل سيكون من السهل تحويل موضوعة العصبية الى مفهوم الصراع الطبقي ؟

ان النقاش المترتب عن هذه التساؤلات يقودنا الى التناقض القائم بين الانطولوجيا الدينية والانطولوجيا التاريخية ، بين ايديولوجيا مرتكزة على اساس لاهوتي ، وايديولوجيا تعتبر الطبقات الاجتماعية بمثابة الذات الفاعلة في التاريخ . وواضح ان الممارسة القومية العربية تعيش بشكل مأساوي هذا التناقض سواء في مجال السياسة او في مجال المعرفة .

هناك في كل سوسيولوجيا ايديولوجيا موازية ، ترجمة مقنعة لعديد من الكتابات ، ونقل مفهومي ملتبس من علم ومعرفة لحقبة معينة الى معرفة اخرى . وقد ابرز هذه الاشكالية الباحث الفرنسي « ديريدا » عندما تحدث عن الاثنولوجيا :

« ان الاثنولوجيا — كجميع العلوم — علم يوجد في صلب الكتابة ، وهو قبل كل شيء علم اوروبي يستخدم مفاهيم التقليد مهما حاول التخلص منها . نتيجة لذلك ، فان الباحث الاثنولوجي ، سواء شاء ام ابى ، اذ لا يتعلق الامر بقرار منه ، ينطلق في كتابته من المقدمات المنطقية للعرقية الذاتية في الوقت نفسه الذي يفضحها . وهذه الضرورة لازمة لانها ليست عرضا تاريخيا ، ويتحتم ان نتأمل في جميع الاستتباعات المترتبة عن هذه الملاحظة . ولكن اذا لم يكن باستطاعة احد الافلات منها ، واذا لم يكن احد مسؤولا عن الاستسلام لهذه الضرورة فلا يعني ذلك ان جميع اشكال الاستسلام متساوية القيمة . فنوعية وخصوبة كتابة ما ، تقاسان بقوة النقد التي تتجلى عند التفكير في العلاقة الرابطة بين الاثنولوجيا وبين تاريخ الميتافيزيقا والمفاهيم الموروثة .

يتعلق الامر هنا بعلاقة نقدية مع لغة العلوم الانسانية ، وبمسؤولية نقدية للكتابة . يتعين ان نطرح بوضوح ومنهجية مشكلة الوضع القانوني « لكتابة تستعير من تراث ما ، المصادر اللازمة لهدم هذا التراث نفسه ، فالمشكل يتعلق **باقتصاد واستراتيجية** »(1) .

اقتصاد واستراتيجية : كلمتان توضحان النقد المزدوج الذي يتيح تمييز المفاهيم ذات القدرة الابستيمولوجية (المعرفية) القابلة للتحيين من جهة ، ومن جهة ثانية المفاهيم الواجب ادراجها ضمن تاريخ المعرفة ليس غير . انه يتحتم القيام بتحليل اثري تنقيبي ليتسنى التحكم في كل مجهود يستهدف

(1) — L'écriture et la différence, le seuil, 1967, p. 414.

اعادة التأويل ، وذلك في الحدود التي تكتسب فيها المفاهيم المنحدرة من معرفة المجتمعات المسيطر عليها ، ومن العلوم الاجتماعية الغربية ، دلالة تاريخية وصلاحية ابستيمولوجية .

٢ ـ الاقتراح الثاني

الكتابة السوسيولوجية ، مثل اي محاكمة استدلالية ، هي ممارسة (لها خصوصية في كل مرة) للتاريخ وللعلوم وللايديولوجيا .

في مقابل **الكتابة ـــ الانعكاس** التي تعتبر اللغة العلمية بمثابة تمثيل منقول للواقع ، يجب ان نضع فكرة معارضة هي فكرة **الكتابة ـــ المخترقة** ، وذلك على مستوى ثلاثة مراكز سلطوية :

ـــ **التاريخ :** في هذا المستوى تتبنين الكتابة تناسبا مع احداث مادية ومؤسسات مجتمعية (الجامعات ، المنشآت ، النقابات ، الاحزاب ...) .

ـــ **العلم :** كل كتابة تحاول ان تتأسس باعتبارها لغة مستقلة ، لها منطقها الخاص في السير وفي التحويل .

ـــ **الايديولوجيا :** تشكل كتابة متوازية كامنة في ثنايا كل لغة علمية . فاستعمالنا مثلا ، لمصطلحات العالم الثالث ، والتخلف او القارات الثلاث ، لا يتطابق مع اختيارات ايديولوجية متماثلة ، وبخاصة في السياسة . نجد ان التخلف يشير الى ايديولوجيا مناصرة للتقنية تقيس التقدم بواسطة مقاييس التصنيع والمردود والانتاجية والفعالية . وحـين نستعمل مصطلح العالم الثالث نبرز طابع السيطرة والهيمنة ، بينما يوحي استعمال مصطلح القارات الثلاث باختيار ثوري ، لانه يلح في الآن نفسه على السيطرة وعلى التضامن المؤمل قيامه بين بلدان هذه القارات لمقاومة الهيمنة الاجنبية .

واذن ، هناك في كل كتابة سوسيولوجية اقتصاد واستراتيجية ، وما يلزمنا هو استيعاء هذه الضرورة من نفس المنظور الذي تشير اليه المقولة الماركسية :

« يعتمد النقد على النقد بالاسلحة » .

وبالنسبة لنا ، فان كـل كتابة سوسيولوجية لا يمكن ان تكون الا **ممارسة عنيفة** تأخذ على عاتقها التاريخ والايديولوجيا والعلم . يتعلق الامر بقطيعة عنيفة مـع السيطرة الثقافية الغربية ، وبتجاوز لقوتنـا المعطلة القاصرة . ذلك ان الكلمة لا يمكن ان تكون بريئة قط ، يتحتم عليها ان تجيب بطريقتها الخاصة عن الاسئلة التي تطرحها الحياة .

سيلزمنا ، اذن ان نفكر في « الآخر » من خلال المجال المتميز لفكرنا . لكن قد يعترض علينا بأن ذلك مستحيل لاننا ما دمنا نستعمل العلوم الاجتماعية

الغربية ومرتكزاتها الفلسفية فاننا ندور في فلك نظري يندّ عن ارادتنا ، وبذلك نسهل ضياع الثقافة العربية وربما تسببنا فيما هو افظع ، في استحكام سيطرة اكثر قوة ودهاء ؟ قد يقال لنا ايضا : انكم تقاومون تسنين التقاليد والاستلاب امام الغرب عن طريق ابستيمولوجية خطيرة من شأنها ان تدحرج المعرفة العربية الى مجال ماض ايديولوجي .

لنوضح المسألة . لا جدال ان المعرفة العربية الراهنة هي نتيجة لتفاعل صراعي بين منهجين في المعرفة ، احدهما غربي يسيطر على الآخر ويعيد بناءه من الداخل ثم يصيره ، بكيفية ما ، غريبا عن نفسه ما دام يفصله عن فلسفته وميتافيزيقاه . وهذه العملية تبلغ درجة تجعل الباحث العربي المتمرس بالمعرفة الغربية ، يفقد البوصلة فلا يدري من اي مكان يتكلم ومن اين تنبع المشكلات التي تقلقه . الا ان المعرفة العربية تمتلك بعض الاستقلال الذاتي ولو بسبب اللغة على الاقل . وهذا ليس قليلا ، اعتبارا الى ان كل لفظة لسنية تصاغ حسب منطق وبنية خاضعة لدليل لسني خاص .

ان هذه الوضعية المضطربة — المحتاجة الى دراسة تفصيلية — تجر الى عاقبة اولى وهي ان رجل العلم العربي يصبح المترجم لمجموعة نظرية ومنهجية تكونت خارج محيطه ، ولا يكاد يشك في منبتها الفلسفي وخصوصيتها التاريخية . فلانه يحس بنفسه مسحوقا تحت وطأة الانتاج العلمي للآخر ولاهثا في اللحاق بصيرورة التراكم المتسارع ، فانه يكتفي بأن يشيد ، في ظل معرفة غربية ، معرفة ثانوية ، مترسبة ، مختنقة تحت ثقله وثقل الآخر ، وهي فوق كل ذلك معرفة آثمة لانها لا ترضي احدا .

بمجرد ما نكشف القناع عن مسألة هذا الصراع ، يهتز كل شيء على المستوى النظري . فعندما يوقف العالم العربي ، نظريا ، صيرورة هذا التراكم ، ويعطي لنفسه حيزا من الزمن لاعادة صياغة الاطار القانوني لنشاطه ، يتبين له ان كل شيء يحتاج ان يصنع من جديد ، بمعنى ان امتلاك المعرفة الغربية امتلاكا عميقا لا يتحقق بمجرد تكييفها او ترجمتها ، بل يستلزم في الوقت نفسه ، تحليل الاساس التكويني لهذه المعرفة ولتحويلاتها وتوقفاتها بترابط مع الحقل التاريخي . ذلك ان كل نظرية هي نسق للتفكير انتجه ودعمه التاريخ شريطة الا نعتبر التاريخ بمثابة حركة تسير في خط مستقيم (كما هو الشأن عند انصار المذهب التطوري او غيره من المذاهب المشابهة) ، بل ننظر اليه على انه نسيج من العلائق القائمة بين مجموعات من الاحداث تكتسب تلاحمها الوحيد من نسقنا التفكيري الخاص ، لا من العري المتوهم للحدث التاريخي .

كل شيء يحتاج الى ان ينجز حسب الاتجاه الثاني الذي حددناه ، اي ان العلوم الاجتماعية تحيلنا الى مصطلحات ومقولات اساسية (الحقيقة ، العقل ، الموضوعية ...) اقل ما يقال عنها ، انها تنحدر من رؤية ميتافيزيقية وفلسفية . ان نسيان هذا الترابط الموجود بين الفلسفة والعلم ، معناه التشبث بالعمل في اطار يكتنفه الغموض والعماء . غير ان هذه الملاحظات البديهية التي نشير اليها ما تزال تلاقي الرفض استنادا الى مذهب وضعي ساذج . توخيا للوضوح ، نقول ان الامر لا يتعلق بأن نضطلع نحن بنقد الغرب عوضا عنه ، بل المقصود ادماج الاطار المحدد لقوانين العلوم

الاجتماعية في صلب اشكاليتنا الخاصة . على ان المعرفة الغربية تتعرض من الداخل لهجمات قوى التجاوز وتغيير نقط الارتكاز . ومن ثم فانها تتبدى لنا من خلال نماذج متناقضة ووجوه متنوعة اكتسبت ملامحها في اتون الصراع المجتمعي . تبسيطا لهذه اللوحة العامة يمكن ان نستخرج من الحقل التاريخي للمعرفة الغربية ، ثلاثة انماط من النظريات :

نظريات مؤسِّسيّة : تضفي طابع المشروعية على الايديولوجية العرقية المركزة على الذات مع التستر وراء نزعة كونية وانسانية مجردة ، وهذا النوع من النظريات يستهدف القضاء على جدلية الخصوصية والكونية وعلى جدلية الهوية والمغايرة .

نظريات انتقادية : تمارس داخل المعرفة الغربية تحويرا مفهوميا وتزحزح الارضية الفلسفية التي ترتكز عليها . ورغم ان هذه النظريات لا تستطيع التخلص من تأثير قيم ثقافتها ، فانها تضع في الاعتبار ، التباعدات المميزة ، والتباينات القائمة بين المجالات الثقافية ... وباختصار ، فانها تتخذ موضوعة « المغايرة » كعنصر حاسم في عملية التمفصل الابستيمولوجي .

نظريات متفتحة : بمعنى انها ليست نظريات تسوّغ مباشرة الايديولوجية العرقية المتمحورة حول الذات ، مما يجعلها مرقبلة للتحول .

هذه النظرة الاجمالية ذات المستويات الثلاثة هي خطاطة تحليلية . واذا كنا امتنعنا عن ترتيب مختلف فروع المعرفة الغربية في هذه الخانات ، فلأن كل نظرية محددة يمكنها ، في الواقع ، ان تمر من مستوى الى آخر (او ان تمر بالمستويات الثلاثة جميعها) وذلك بسبب من تحولات داخلية او مقترنة بها ، وايضا بسبب التغير التاريخي .

مثلا ، الاستشراق فرع من المعرفة يولي اهتمامه للتغاير الثقافي ، وبذلك أعان الغرب على التخلي عن بعض احكامه المسبقة ، الا انه سرعان ما تحول الى مجموعة ايديولوجية تسوّغ العرقية الذاتية لان الاستشراق اراد تجميد الثقافات الاخرى في الطراز العتيق التقليدي ، مثيرا بذلك الحنين الى قيم فقدها الغرب . ولعل الاستشراق ، نظرا للأهمية الخاصة التي اولاها لدراسة اللغة والمسائل الدينية ، هو الذي مهّد السبيل امام الاشكالية السلفية ، بحيث يمكن الانتقال من مجال الاستشراق الى المجال السلفي (او العكس) بدون وجود عقبة اساسية وبدون ان نعثر على وعي واضح ، ما دام الوعيان ينعكس احدهما على الآخر فيخمدان صراعاتهما عن طريق لعبة المرايا(1) .

ليست المعرفة الغربية ، اذن ، كلاّ متجانسا ، ولاكيانا متعاليا ممركزا حول الاشكالية نفسها وموضوعات التحليل نفسها ، وانما هي منحوتة بفضل جهود متعددة ، وسط الاختلال الملازم لكل تحول تاريخي وعلمي .

كذلك الامر بالنسبة لوضعية المعرفة العربية الراهنة ، فأرضيتها المؤسسية (الكلاسيكية) عبارة عن خليط يضم اللاهوت والفلسفة العقلية او الصوفية ، الى جانب العلوم العملية ، الى جانب تلك المعرفة الخاصة بالثقافة العربية وهي **الادب** . لقد كانت ايجابية هذه المعارف المختلفة تستجيب لوعي تاريخي اصبح الآن متجاوزا بالرغم من ان الكتابات المتصلة به ما تزال رائجة . والواقع ان هذه الكتابات تخفي تصورها النظري بواسطة

---

(1) عبدالله العروي : الايديولوجية العربية المعاصرة ، ماسبيرو ، ١٩٦٧ .

انتاج تكراري . كثر هم الباحثون العرب الذين يشتغلون بدون ان يتوفر لديهم وعي واضح للتراث ، فـلا يزيدون على تحويل « الوثائق الى مآثر تاريخية » كما يقول الفيلسوف ميشيل فوكو .

كيف نعالج اشكالية هذه المعرفة ؟

قبل كل شيء يتوجب الاعراض عن الاغراء المنوم **للتراثية** كاتجاه يتخذ تعلّة لطمس الوعي الانتقادي عـن طريق الدعوة الى العودة لمجد ماض بدافع مـن نوستالجيا (حنين) متقهقرة . في هذه المسألة بالذات يصادف النقد المزدوج نقطة ارتكازه الاستراتيجية :

أولا ، اختزال المفهومية الميتافيزيقية المنحدرة من منبعين ، منبع غربي (اغريقي عند التحليل الاخير) ومنبع الثقافة العربية (الذي الححنا في تبيانه) .

ثانيا ، اعادة التفكير في اطار وايجابية العلوم الاجتماعية الراهنة ، وذلك على ضوء مفهوم تاريخي مغاير لذلك المفهوم الذي يتو"هنا في سراديب تاريخانية ماضوية او في شبكيات تقليد مفتقر للتمثل ، وكثيرا ما يؤثر هذان المفهومان في الوعي المزق . ان مفهوم التاريخ الذي نعتمده هو المنطلق من ممارسة نقدية لما يحدد مكوناتنا الآن وفي هذا المكان . والواقع ان تحرير مسألة التاريخ يعني خلخلة النظام السائد للمعرفة الراهنة ، ذلك انه لن يجدينا في شيء ان نقطع من جديد ، بكيفية او بأخرى ، جميع المراحل التي مر منها الفكر الغربي ، كما انه من العبث الظن بامكانية ربط الصلة كلية بأثرية المعرفة العربية .

ان القول بالانكباب علـى المعرفتين واعادة النظر فيهما مـن خلال صيرورتهما التاريخية والمجتمعية ، لا يعني مطلقا ان نبعث المعرفة العربية من مرقدها لنستعملها في اختزال الحيوية المتدفقة من معرفة الآخر ... وانما معناه تأسيس كتابة جديدة لا يمكن ، بداهة ، ان تتبلور دفعة واحدة ومن اول محاولة ، بل تتشكل من خلال فك السلاسل النظرية التي تحيط بنا ، وتكبل اعماقنا . وهذا عمل يتطلب أناة غير متناهية واستمرارية في البحث . نؤكد انه في مجال المعرفة ، لا توجد معجزات ، بل قطائع انتقادية .

٣ ـ الاقتراح الثالث

ان النقد المزدوج يؤدي الى اعادة تبنين العلوم الاجتماعية .

لا نقصد هنا اقتراح ترتيب جديد للعلوم الاجتماعية ، فهذا النوع من العمل يظل عادة حبرا على ورق وكثيرا مـا يكون مبتعدا عن الصيرورة التاريخية . وعلى العكس من ذلك ، يمكننا ان ندقق في تحديد اتجاه او ان نتخذ اختيارات حاسمة على ضوء هذه الاشكالية المطروحة .

غير ان المعرفة العربية الراهنة تمارس نشاطها على **هامش** المعرفة الغربية ، واذن فهي لا توجد داخل نطاقها ما دامت تابعة لها محددة من جانبها ، ولا تقع خارجها ما دامت لا تستطيع ان تتخذ موضوعا لتفكيرها ذلك **الخارج** الذي يؤسس كيانها . ان هذا الهامش الذي توجد عليه المعرفة العربية الراهنة هو بمثابة حدود عمياء تنتصب في وجهها . نتيجة لذلك فان النقد المزدوج يتوخى وضع الخارج مناقضا للمعرفة الغربية مع تنظيره ، ثـم التفكير بطريقة جذرية في الهامش وصياغة التباعد المحصل عليه في كتابة لا تتميز فقط باستخدام العربية (التي هي شرط اساسي لابراز هذا التباعد) ولكن تسعى تدريجيا الى بلورة لغة علمية نوعية هي التي ستتولى محو آلية الترجمة السائدة في هذا المضمار .

بتعبير آخر ، يتعين وضع ترتيب متدرج لمحاورنا الاستراتيجية :

أ ــ اعطاء الاسبقية للتاريخ (كما حددناه آنفا) على كل معرفة قائمة على التزامن الخالص . وهذه الاسبقية تستتبع تقويض الاثنولوجيا (نقتصر على هذا المثال) . لماذا نطالب بتقويض الاثنولوجيا ؟ ليس فقط لانها ، عند التحليل الاخير ، مرتبطة بالاستعمار والامبريالية ، ولكن ايضا لان اساسها النظري اصبح مهزوزا : هل يمكن دراسة الآخر بنظرة « طاهرة » ؟ كان شيللر يقول : « لا ارى فقط عيون الآخر وانما ارى كذلك انه يراني » . بتعبير فلسفي ، فان جدلية الذات والآخر هي التي تحدد كل تواصل ، وكل رغبة . في حين ان الاثنولوجيا تستند على موضوع وهمي في تحليلها للهوية والمغايرة . وبينما يظن ليفي شتروس انه يحول الاثنولوجيا ، فانه ، على مـا في ذلك من تناقض ، (ولحسن الحظ) لا يزيد على ان يحيل موضوع تحليلاته الى فرعي الفلسفة والسيميولوجيا .

هذا المثال الوحيد الذي ضربناه عن الاثنولوجيا ، يوضح اننا لسنا متخالصين مع اطار العلوم الاجتماعية وما تنتجه من كتابات . لا بد ، اذن ، من توسيع هذا التفكير مستحضرين دائما ان اية معرفة سوسيولوجية لا تستطيع ان تفرغ التاريخ من محتواه ، وكما حذّرنا ماركس : « لا نعرف سوى علم واحد هو علم التاريخ » .

ب ــ الاسبقية الاولى تستلزم اسبقية الكتابة السوسيو ــ تاريخية على جميع اشكال الوظائفية التي تبسط سيطرتها التامة ، كما هو معروف ، على العلوم الاجتماعية .

ج ــ يصبح من المستعجل والضروري ، تشييد اجهزة مفهومية وفقا لمفاتيح رموز اللغة العربية . ذلك ان السيطرة الثقافية مرتبطة بالسيطرة السياسية والاقتصادية بالرغم من توفر كل من هذه القطاعات على اجهزته السلطوية وعلى حركته الخاصة .

ما لم يوسع العالم العربي مجال الابحاث الاساسية باللغة العربية ، فانه سيظل دائما مشدودا الى آلية الترجمة . وهذا لا يعني الاعراض عن اللغات الاجنبية وعدم تعلمها . على العكس ، نعتقد انه لا يمكن للغة علمية عربية جديدة ان ترتقي الا اذا ادمجت في كتاباتها المغايرة الموجودة في مفاتيح رموز اللغات الاخرى .

عبد الكبير الخطيبي
(الرباط)

(هذا النص مكتوب اصلا باللغة الفرنسية وقد وضعه بالعربية محمد برادة) .

اشـــارات

العرقية المركزة على الذات Ethnocentrisme

اتجاه يقيم الثقافات الاخرى من خلال القيم السائدة في مجتمعه ، ومن ثم ينزع الى محو المغايـرة .

علـم الـدلالات Sémiologie ou Sémiotique

يتصل بعلم اللسنيات ويهتم بدراسة مختلف المنظومات الاشارية المتواجدة في الكتابات او في مجالات السلوك والعلائق المجتمعية .

المخـزن :

مصطلح معروف في تاريخ المغرب لتحديد السلطة التي ترتكز عليها الدولة . وما يزال المصطلح متداولا ، كما ان كثيرا من مظاهره ما تزال قائمة .

حركة التحرر العربية : النظرية والممارسة

عندما قررنا اصدار عدد خاص يناقش قضايا حركة التحرر العربية ، انطلاقا من اسئلة محددة حول طبيعة الحركة واوضاعها الراهنة ، اجاب عنها بعض المثقفين العرب ولم يجب عنها بعضهم الآخر ، فاننا كنا ننطلق من ضرورتين :

١ — التأكيد على اعادة طرح المسائل الاساسية التي تواجه حركة التحرر العربية . فالنقاش السياسي بدأ يخفت بعد حرب تشرين لمصلحة نقاشات يغلب عليها الطابع التكتيكي والمباشر . ان حجب نقاش المسائل الاساسية التي لا تتوقف عند وصف الظاهرات ، بل تبحث عن جذورها وتحللها ، هو في مصلحة القوى الطبقية المسيطرة ، والتي تريد ، ككل الطبقات المسيطرة ، تشديد قبضة تسلطها من خلال وسائل عديدة ، ومن ضمنها حجب النقاش ، لان النقاش هو احد وسائل كشف هيمنتها . ان الاجابات التي وردتنا والتي تمثل تيارات متعددة داخل حركة التحرر العربية ، تسهم من مواقعها في كشف طبيعة الاوضاع العربية ، وفي اضاءة جوانبها . وهي بذلك تكون اسهاما في النضال الطبقي والوطني العام .

٢ — فتح ارضية لحوار سياسي واسع ، بين اطراف سياسية تشترك في كونها اطرافا وطنية منحازة لمعسكر الحركة الشعبية . ان افق هذا الحوار لا يتعدى الحوار نفسه . اي اننا كمجلة ثقافية لا ندّعي تبنيا لمطالب من نوع المطلب الجبهوي . لكن من خلال النقاش والحوار يستطيع كل طرف او فئة او فرد بلورة وجهة نظره ، والانفتاح من موقع نقدي على وجهات نظر اخرى .

ونحن في محاولتنا هذه ، ننطلق من التزامنا بالحركة الوطنية العربية . واثارتنا لهذا النقاش هو جزء من اسهامنا في هذا الالتزام . وهذه هي الاسئلة التي طرحناها :

تهدف الاسئلة التالية الى مناقشة الوضع العربي الراهن ، بعد سلسلة الاحداث التي مرت بها المنطقة العربية منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ الى حرب تشرين ١٩٧٣ ، عبر مناقشة الاهداف التي طرحتها اطراف الحركة الوطنية العربية : الوحدة ، الاشتراكية ، تحرير فلسطين ، الجبهة الوطنية ، التطور اللارأسمالي ... الخ . وسيصدر مجموع الاجوبة في عدد خاص تهيئه هيئة تحرير مجلة « مواقف » ، آملة ان تكون هذه الاسئلة بمثابة اطار لنقاش يشارك فيه مختلف الاطراف داخل الحركة الوطنية العربية .

١ — بعد هزيمة حزيران ثم وفاة عبد الناصر وممارسة السادات السلطة الفعلية ، حدثت تحولات سياسية واقتصادية محددة ، وكثر الحديث عن نهاية الناصرية كتيار سياسي . هل هناك نهاية للناصرية ؟ وما عناصر هذه النهاية ؟ وكيف يمكننا تحليل مسارها على ضوء طبيعة السلطة في مصر ، وما آفاق هذه المرحلة الجديدة ؟

٢ ــ ظهرت المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧ كبديل ، او كعنصر استقطاب جماهيري وسياسي على المستوى القومي العام . مـا عناصر الاضافة السياسية والايديولوجية التي قدمتها تجربة المقاومة ؟ هل هناك من علاقة بين افتراض بداية نهاية الناصرية وافتراض بداية دخول المقاومة مرحلة جديدة بعد مذبحة ايلول ، وامساك الانظمة بزمام المبادرة بعد حرب تشرين ؟ هل يشير هذا التوازي بين نهاية الناصرية ومأزق المقاومة الحالي الى علاقة تتعدى التوازي الظاهري ؟

٣ ــ في ظل ازمة الانظمة بعد ١٩٦٧ ، وفي تواز مع حركة المقاومة او بتأثير مباشر أو غير مباشر فيها ، برزت ظاهرات سياسية في العالم العربي : ثورة ظفار ، الحركة الطلابية والشعبية في مصر ، الحركة الطلابية في لبنان وتونس . تطرح هذه الظاهرات المسألة الوطنية بشكل اساسي . هل شكلت هذه الظاهرات عاملا جديدا داخل الحركة الوطنية العربية ؟ وما ملامح هذه الجدة داخل الخريطة السياسية العربية في المدى القريب والبعيد ؟

٤ ــ كيف نحلل طبيعة الانظمة « التقدمية » في المشرق العربي ؟ مـا علاقـة الحزب بالجيش ؟ ومـا الملامح الاساسية لتحولاتهـا السياسية والاقتصادية ؟ وكيف نقيم دورها العربي بعد حرب تشرين ؟

برزت بعد عام ١٩٦٦ ظاهرة مهمة في سوريا ثم جرى تعميمها على اكثر من قطر عربي . وهي مشاركة الاحزاب الشيوعية في السلطة بشكل مباشر (سوريا ، العراق واليمن الجنوبية) ، او كونها علـى علاقة وثيقة بالنظام القائم (الجزائر) . على الرغم من قصر مدة هذه المشاركة هـل نستطيع اليوم ان نقيمها بشكل اولي ؟ ما حصاد هذه المشاركة ؟ وما مؤشراتها علـى مستويين : مستوى الاحزاب الشيوعية ، بوصفها طرفا جماهيريا ومستوى الانظمة ، وما نوع التحولات الداخلية التي رافقت هذه الخطوة وقيمتها ؟

٥ ــ جاءت حرب تشرين لتكذب ، كما بدا ، تصورا سياسيا عن دخول الانظمة « مرحلة النهاية » . وادت هذه الحرب الى تحويل الظاهرات خارج الانظمة الـى عامل ثانوي في اتخاذ القرار السياسي . وقدمت تفسيرات ايديولوجية للحرب ــ العبور ، تركز علـى التقنية والسيطرة على المواد الاولية وضرورة التصنيع وبروز نوع من « الاتحاد العربي » والتركيز على الدور العربي العالمي .

هل تبرر حرب تشرين تفسير الانظمة لها ؟

كيف يمكن محاكمة الحصاد الفكري النقدي الذي خرج بعد هزيمة ١٩٦٧ على اساس محاكمة الحصاد التفاؤلي الذي ظهر بعد حرب تشرين ، على ضوء تصور عام لمستقبل الصراع مع اسرائيل ، وآفاقه .

نكرر ان هدف هذه الاسئلة هو اثارة نقاش سياسي واسع ، وان كل سؤال يطمح الى ان يثير اجوبة يمكن ان تكون بدورها موضع مناقشة .
وتمكن الاجابة عن هذه الاسئلة بأكثر من طريقة : يمكن ، مثلا ، كتابة موضوع عام مستقل عنها ، لكنه يستوحي تساؤلاتها . او تمكن مثلا الاجابة عن قسم منها ، كما يمكن ، طبعا ، التقيد بها .

عبدالله العروي

اشكالية جديدة لواقع عربي جديد

ان الاسئلة المطروحة تدور في نطاق اشكالية لم تعتبر الواقع الجديد الذي نتج عن التطورات الخطيرة في الواجهة البترولية .

ومع اني اعتقد ان النظرة التكنولوجية الصرف قاصرة عن تحليل الواقع الاجتماعي والسياسي على المدى الطويل فاني ارى ان الوضع العربي وضع استثنائي ، بمعنى ان العوامل المتحكمة فيه لا تطابق تمام المطابقة القوانين المعهودة في العلوم الاجتماعية والتي استنبطت من تطور بلدان اخرى . لذلك وجب اللجوء الى اشكالية مخالفة بعض الشيء لما تعارفنا عليه مدة طويلة .

لن اجيب اذا عن الاسئلة بانتظام وانما اكتفي بابداء رأيي في بعض المشكلات التي طرحت على بساط البحث في السنوات الاخيرة .

١ — ان الناصرية غير مرتبطة بشخصية عبد الناصر ولا بوضع مصر الخاص ، وانما تدل على نظام سياسي واجتماعي له خصائص معينة تبلور اولا في مصر مع ان جذوره كانت موجودة في بلاد عربية اخرى منذ زمن طويل وكان يظهر فيها حتى لو لم يظهر في مصر .

اذا حددنا السياسة الناصرية كمحاولة تثبيت الاستقلال الداخلي بانتهاج عدم الانحياز في الميدان الخارجي والاصلاح الزراعي والتصنيع في الميدان الداخلي بفردية الحكم كضمان لاستمرارية الثورة وبالازدواجية في الميدان الثقافي عن طريق استعارة التكنولوجية الاوروبية مع المحافظة على الاصالة ، فهذه عناصر نجدها في كثير من الانظمة العربية القائمة ، اكانت تدعي الوفاء لعمل عبد الناصر ام تنكره تمام الانكار .

صحيح ان الناصرية بدأت في مصر وشجعت حركات تبنت شعاراتها في بلاد عربية اخرى ، لكن من الخطأ الفادح ان يظن ان هذه الحركات خلقت من عدم ، بل استغلت نفوذ واسم عبد الناصر لتتقوى على حساب حركات اخرى مع ان جذورها ضاربة في ماضي ونظام القطر الذي تعمل فيه . وكما

ان عبد الناصر لم يخلق هذه الحركات ، فان غيابه عن مسرح السياسة العربية لا يعني حتما اضعاف او رسوب تلك الحركات .

اما السؤال المتعلق بمصر بالذات : هل السادات وفي لمبادىء عبد الناصر ام متنكر لها ؟ فالجواب عنه يتطلب تحليل الاوضاع داخل مصر وخارجها ، بل يستلزم بحث نتائج السياسة الناصرية في مصر ذاتها .

اذا امكن لغير المصري ان يبدي رايه مع ندرة البحوث الدقيقة العلمية في هذا الموضوع ، فاني اعتقد ان نظام السادات في الجملة ، ما هو الا امتداد للنظام الناصري ، وان الظواهر التي تفرزه عن العهد السابق هي وليدة الوضع العربي الجديد الذي سنتكلم عليه فيما بعد .

معنى هذا بكل صراحة ان الوضع الحالي في مصر ، ما كان ليتغير في العمق لو بقي عبد الناصر حيا رغم ان الايديولوجيا التبريرية والتاكتيك ، بما فيها العلاقات مع الدول الكبرى كانت بالطبع تكون غير ما نلاحظه اليوم .

٢ ـــ مرت الحركة الفلسطينية عبر ثلاث مراحل : مرحلة اولى قدمت فيها نفسها كنواة ثورة عربية شاملة ، تلتها بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ ، مرحلة تردد وحيرة حيث كانت المهمة الاولى الدفاع عن النفس والاستمرار ، ثم جاءت المرحلة الحالية التي تتسم باتخاذ الحركة موقفا اكثر وضوحا وملاءمة للوضع العربي الجديد ، مما مكنها من تحقيق انتصارات سياسية مهمة .

لا شك ان الحركة الفلسطينية اساءت التقدير في المرحلة الاولى ، بل عجزت حتى عن تحليل وضعيتها الفعلية ، في الوقت الذي كانت تتجه نحو ابراز كيان فلسطيني من المحتمل ان يصطدم مع كيانات عربية اخرى كانت تدعو الى الثورة العربية الشاملة ، مخاطبة الجماهير ، ومتجاوزة القيادات ، مع انها لم تكن تعمل لا سياسيا ولا عسكريا الا بمساعدة تلك القيادات ولم تكن معارك الاردن الدامية وملازمة الانظمة العربية الحياد ازاءها الا نتيجة هذا الخطأ المبدئي .

بعد هذه التجربة المرة آلت الحركة الى ما آلت اليه الثورة الجزائرية قبلها ، واصبحت حركة وطنية تحريرية ، تتعامل مع كل الانظمة القائمة على اساس المصلحة الفلسطينية وحدها ، وحيث عادت القضية الفلسطينية قضية الجميع بدون تمييز ، لم يبق لها اي تأثير ثوري على النطاق العربي ، تستغل الحركة كـل نظام وكل نظام يستغلها بدوره ليثبت نفوذه ويركز شرعيتـــه .

٣ ـــ من الخطأ اعتبار العالم العربي نسيجا ذا لحمة واحدة تسري فيه التأثيرات المتبادلة في جميع الاتجاهات على وتيرة واحدة وبسرعة واحدة ، كما لو كانت الوحدة العربية حقيقة قائمة .

الواقع انه مكون من كيانات متميزة ، مفصولة بعضها عن بعض في كثير من المجالات الحيوية . صحيح ان هناك تأثيرا من بلد الى بلد ، لكن في اتجاهات معينة ركزها التاريخ منذ قرون .

لهذا السبب فانه من الصعب ان يؤثر مثلا المغرب في المشرق العربي ، مهما كان ميزان القوى الاقتصادي والعسكري ومن غير العادي ان تؤثر سوريا او العراق في مصر ، فمن غير المنتظر ان تؤثر حركات تقوم على هامش الوطن العربي كيف ما كانت فاعليتها الثورية .

قد تنجح بعض الحركات في اقامة انظمة ثورية حقيقية ، لكنها ستطوق من غير شك وتجبر على الحد من طموحها وعلى التعايش مع الغير بدون تدخل في شؤونه .

وما نقول على التأثير السياسي ينطبق ايضا على التأثير الايديولوجي .

٤ — ان الانظمة التقدمية العربية وهي ناصرية في كنهها كانت تتزعم حركة التحرير العربية لانها كانت تقدم برنامجا متكاملا يرمي الى اعادة الكرامة الى العرب عن طريق الاستقلال التام ويتقوى هذا الاستقلال بتشييد صناعة قومية واتباع سياسة اجتماعية تخدم مصالح الطبقات الفقيرة .

لكن الملاحظ اليوم ان الانظمة التقليدية اقدر على انجاز هذه المهام من الانظمة التقدمية بما فيها الجزائر ونظرة خاطفة للسياسة الاجتماعية في دول الخليج ولبرامج التنمية السعودي تكفي لتبرير هذا القول . اذا حكمنا على الاشياء من وجهة نظر الفرد العربي المستهلك والمتعطش الى الكرامة والنفوذ ، فلا مناص من الاستنتاج ان امتياز الانظمة التقدمية قد انتهى .

بل ان هذه الانظمة لا تستطيع اليوم انجاز وعودها الا بمساعدة الانظمة التقليدية فأصبحت تابعة لها اقتصاديا وعسكريا وبالتالي حدت من حرية اختياراتها .

وهذا اتجاه بدأ في الواقع مع مؤتمرات القمة ، اي قبل حرب يونيو ١٩٦٧ وموت عبد الناصر ، لكن تغيير ميزان القوى على الواجهة البترولية اعطاه زخما جديدا .

٥ — الوضع العربي استثنائي لان القوانين الاجتماعية المعهودة في التاريخ الحديث لا تنطبق عليه بكيفية ظاهرة ، مباشرة ومستقلة .

اي دور يلعبه قانون القيمة في الشرق العربي اليوم ؟ ما هي علاقات الثروة والعمل الاجتماعي ؟ ما هي علاقات العمل الاجتماعي والخدمات ؟ هل المال هو فعلا عمل مدّخر ؟ ما هي علاقات الاقتصاد بالتطور الثقافي ؟

ويمكننا ان نضع عشرات الاسئلة من هذا القبيل . ما زالت القوانين المعهودة تجري داخل بعض البلدان مثل مصر وسوريا وتونس والمغرب ، لكن الى حد فقط لان هذه البلدان تتلقى تأثيرات من البلاد العربية الاخرى التي لم تعد تخضع لتلك القوانين .

لم يعد مجال للتحليلات التي تنتهي بالقول : تحتم التناقضات في البلد الفلاني كذا وكذا لانه في آخر لحظة تأتي تبرعات واعانات عربية تجمد الوضع

الى امد وتخفف من وطأة التناقضات الاجتماعية . واذا كان مشروع مارشل قد جمد الثورة في اوروبا الغربية ، لماذا لا يقع نفس الشيء في الشرق العربي ؟

٦ ــ جاءت حرب اكتوبر ١٩٧٣ تجسيدا لهذه الحقائق . ان تطور ميزان القوى لصالح الانظمة التقليدية هو الذي فرض حربا تقليدية ، ذات اهداف محدودة وهو الذي حول انهزاما الى نصر نسبي ، واعاد امريكا الى المنطقة وباعد بين روسيا والعرب . او بعبارة اخرى هو الذي جعل من المستحيل حل المشكلات العربية وبما فيها المشكل الفلسطيني حلا ثوريا . من غير ان يعني هذا القول ان الحل الثوري كان ممكنا او ان الحل السياسي التدريجي ليس في صالح العرب .

كان انهزام ١٩٦٧ عنوان انحلال نظام ومجتمع وثقافة ، حتم على العرب ان ينظروا الى انفسهم على حقيقتها وهي انهم غير مهيئين ليعيشوا حياة عصرية . فكان النقد الذاتي وكانت الدعوة الى ثورة ثقافية شاملة تمهيدا لثورة تهدف الى تشييد مجتمع حديث صناعي اشتراكي متحرر . انجزت هذه التحليلات على ضوء معطيات الوضع السابق ونتائج العلوم الاجتماعية العادية ، بدون ما التفات لخاصيات الوضع العربي لانها لم تتبلور بعد ولم تصل الحد الذي ينقلب فيه الكم الى الكيف . ثم جاءت حرب اكتوبر وكانت اساسا انتصار الثروة العربية التي لم تأت عن طريق ادخار عمل اجيال واجيال ، اي لم تتوج ثورات وتطورات اجتماعية وثقافية متلاحقة . فكان من الطبيعي ان يتجاوز الواقع التحليلات السابقة .

هل يعني هذا ان المجتمع العربي اصبح عصريا بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ؟ او ان الثقافة العربية عادت مواتية للحياة العصرية ؟ او ان العرب دخلوا الى التاريخ الحديث من بابه الواسع ؟ بالطبع لا .

فالتحليلات التي اعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، مع ان الواقع تجاوزها ، ما زالت في العمق صحيحة . انها تبدو الآن ناقصة ، متسرعة ، مبسطة ومجردة ، لكنها في جوهرها لم تخطىء الصواب .

٧ ــ بيّن الوضع الجديد خطأ بعض الافكار الثورية ، القائلة مثلا :

ــ ان المشكل الفلسطيني سيحل على النمط الجزائري .

ــ ان الحركة الفلسطينية ستكون خميرة الثورة العربية الشاملة .

ــ ان النفوذ العربي في الحقل الدولي يمر حتما على طريق الثورة العربية .

ــ ان التصنيع والاصلاح الاجتماعي والتقدم الثقافي رهن بالثورة العربية .

ــ ان وحدة الجهود العربية لا تتحقق الا بعد توحيد القوى الثورية العربية .

ــ ان الثورة العربية تشكل جزءا من الثورة العالمية وستتحقق باتفاق مع القوى التحريرية في القارات المستغلة الثلاث .

ان الثورة هدف واسلوب ، مضمون وشكل ، نتيجة وطنية وصراع بين الفئات ، اذا اخذنا الثورة بمعنى الاسلوب وشكل العمل ، كل التأكيدات السابقة لا شك صحيحة . لكن اذا اخذناها بمعنى الهدف ، بمعنى مضمون ونتيجة ذلك العمل الثوري ، لا شك انها تخالف الواقع اليوم ، اذ التصنيع والاصلاح الاجتماعي والتنمية الثقافية والنفوذ الخارجي ، كل هذا يتحقق اليوم للعرب لا باتفاق مع القوى الثورية العالمية بل في نطاق السوق الراسمالية وبتركيز قوانين هذه السوق وتوسيع نتائجها السلبية على الشعوب الفقيرة .

ليس هذا بدعا في التاريخ . اذا كانت روسيا والصين قد دخلتا الى التاريخ المعاصر على طريق الثورة ، فان المانيا واليابان اصبحتا قوتين صناعيتين في ظل نظام محافظ حوى العلم الحديث واستفاد منه . الطريق الى التحديث ليست واحدة ومن المحتمل ان ينهج العرب طريقا اخرى ، غير التي كنا نتصورها اعتمادا على التجربة العامة وتجربة بعض البلاد العربية في مقدمتها مصر .

ومن منا يستطيع ان يقول : من لم تصلحه الثورة ، لا اصلحه الزمن ؟

٨ — ان واجب الثوريين العرب اليوم ان يفتحوا اعينهم على الواقع كما تطور في السنوات الاخيرة ، ويعيدوا النظر في تحليلاتهم السابقة ، بل في المسلمات التي بنيت عليها . بعبارة اخرى اصبح من الضروري ابداع علم سياسي جديد لدراسة الوضع العربي الراهن .

ان الماركسية غير الاقتصادية ، لكن كل تحليل ماركسي لا بد ان يرتكز على المعطيات الطبيعية ليتخطاها ، دون ان ينفيها نفيا مجردا . وما هي الجدلية ان لم تكن منطق الاستثناء ؟

ظلت الاممية الثانية تعتقد انها ماركسية لانها لم تستطيع ان ترى نفسها كطرف مشارك في الاستغلال الرأسمالي . علينا ان لا نقع في مثل هذا الخطأ .

وكان لينين يقبل مبدئيا امكانية نجاح سياسة استوليبين (Stolypine) الاصلاحية الرامية الى تطوير روسيا على النهج الرأسمالي والغاء تداخل الثورتين ، الديمقراطية ، والاشتراكية ، الذي تميزت به الثورة البولشفية . لم ينجح استوليبين وليس من المحتوم ان تنجح محاولة تحديث البلاد العربية في ظل انظمتها التقليدية وثقافتها الرجعية ، لكن واجب الفكر التقدمي الجدي أن يتهيأ لكل الاحتمالات ، ولا ينفي الواقع نفيا سطحيا ، لانه في هذه الحال يحكم على نفسه بالعقم .

ومسؤولية الثوريين العرب اليوم اكبر مما كانت عليه بالامس : يجب ان يتمرنوا على تحليلات اقتصادية وسياسية جديدة ، ان يعمقوا نقدهم للايديولوجيا المسيطرة التي تخفي مظاهر الاستثناء والشذوذ في التطور العربي ، وبالتالي لا تعترف بما تحمله تلك المظاهر من تبعية للسوق العالمية وما تستره من اسباب النكسة والتقهقر .

وفي كل الظروف والاحوال ، لا بد من ثورة ثقافية ، لانها وحدها تحمي في المستقبل المكتسبات الحالية وتكرس نتائج التصنيع وتحقق وتفتح آفاقا جديدة للوحدة المنشودة .

عبدالله العروي

(الرباط) ٢٨ - ١١ - ١٩٧٤

كريم مروّه

نحو ديموقراطية ثورية

١ — ان الحركة الناصرية كتيار سياسي هي وليد طبيعي للتطورات التي بدأت تتمخض بها حركة التحرر الوطني العربية منذ اكثر من ربع قرن . والمحتوى الاساسي لهذه التمخضات ان الحركة الوطنية الثورية العربية بلغت درجة من تطورها استدعت تحطيم الاطر السياسية والطبقية التي كانت معوقة لهذا التطور . فقد كانت القيادات الاقطاعية — البرجوازية اعجز من ان تحقق توجهات الجماهير السياسية تحقيقا كاملا . بل انها اسهمت ، بتخاذلها وتواطؤ اقسام منها مع الاستعمار ، في الكارثة الفلسطينية وفي سعيها لتدعيم مواقع الاستعمار والاستعمار الجديد .

في هذه الظروف حصلت مجموعة من التفجرات الجماهيرية السياسية كانت الحركة الناصرية بين اكثرها نضوجا واكثرها تعبيرا عن بروز قوى طبقية جديدة تتصدى لقيادة حركة التحرر الوطني العربية ، من مصلحتها دفع الثورة الوطنية الديمقراطية لتحقيق المهمات المطروحة امامها .

وقد استطاعت الحركة الناصرية التي كانت تضم قوى وتيارات طبقية مختلفة ، من البرجوازية الوطنية الى الطبقة العاملة ، ان تنجز ، خلال المراحل المتعددة من تطورها ، ومن مواقع السلطة ، جملة من التدابير السياسية والاقتصادية والاجتماعية ذات الطابع التقدمي ، فتحقيق الجلاء والاصلاح الزراعي وتدابير التمصير والتأميم والسير خطوات في طريق التنمية ، خلق في مصر وفي ارجاء الوطن العربي نهوضا جماهيريا هائل الاتساع ضد مواقع الامبريالية والرجعية . وكان عدوان ١٩٥٦ ، ولا سيما عدوان ١٩٦٧ قمة التعبير عن الحقد المسعور الذي جابه بـه الاستعمار والصهيونية والرجعية التطورات الجارية في حركة التحرر الوطني العربية .

وفي الواقع فان هذه هي المعالم الاساسية التي اعطت الناصرية كحركة سياسية سماتها العامة .

استطاعت الناصرية في مراحلها الاولى ، حيث كانت مختلف التدابير

التي اقدمت عليها ذات طابع وطني وديمقراطي عام ، ان تحرك قوى طبقية عديدة وتحيط بها . الا انها ، في مرحلة لاحقة ، عندما تصدت لمهمات اكثر جذرية ، في اطار الثورة الوطنية الديمقراطية ، لم تعد قادرة على تأمين الاحاطة بكل هذه القوى كما كانت في السابق ، لان المصالح الطبقية لهذه القوى بدأت تتبلور وتتعارض بحكم تطور المنجزات نفسها ، في حين كان ممثلو البورجوازية الصغيرة في رأس السلطة ، بحكم الطبيعة المزدوجة لفئتهم الاجتماعية وتذبذبها ، غيرقادرة على حسم الموقف لصالح التطور التقدمي اللاحق بصورة قاطعة .

ونريد في هذا المجال ان نؤكد على ان الناصرية قد حققت في تطورها ، عبر ما سماه عبد الناصر « تجربة الخطأ والصواب » ، تقدما ملحوظا في مواقفها وفي التدابير التي اتخذتها . الا ان هذا التقدم بذاته كان دون مستوى المتطلبات الداخلية والتحديات الخارجية من جهة ، وكان من جهة اخرى ، يتحقق عبر صراعات طبقية خفية او علنية ، بهذه الحدة او تلك ، الامر الذي كان يضفي على مسار عملية التقدم طابع « التسوية » بصورة عامة . وهنا تبرز معضلة في قلب هذه الحركة ، تعبر عن تناقض يعكس تمايزا طبقيا ، كان من الطبيعي أن يحصل في داخل الناصرية .

وعلى وجه التحديد ، فقد ظلت الممارسة السياسية من مواقع السلطة ، وفي التصدي لقيادة الجماهير التي كانت تتجاوب مع التدابير المتخذة ، اسيرة الأطر التي حددت السمات العامة للناصرية في مراحلها الاولى . ويعود هذا في الاساس الى طبيعة التركيب الطبقي للقيادة الناصرية التي هي مزيج من عناصر ذات اصول بورجوازية صغيرة ومتوسطة لم تقطع من جانبها ، سياسيا واقتصاديا وايديولوجيا ، برغم كل تطلعاتها والتدابير التي اتخذتها ، روابطها مع البورجوازية الوطنية . وفي هذا المجال نستطيع ان نفسر عدم التحديد ، من وجهة النظر الطبقية ، للمقولات الاساسية ، الاقتصادية والاجتماعية والنظرية ، مثل : العامل ، الفلاح ، الاشتراكية ، الراسمالية ، التنمية ، الحزب ، والمحتوى الاجتماعي للديمقراطية ، ومحتوى العملية الثورية ، مصريا وعربيا وعالميا .

وبالتأكيد ، فان منجزات الحركة الناصرية ، لم تعبر فقط عن الطموح في مصر والبلدان العربية للتحرر من السيطرة الاستعمارية وتحقيق مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، بل عمقت عبر المعارك الوطنية والاجتماعية الترابط على اساس قومي بين جميع الشعوب العربية تحت شعار الوحدة القومية بمضمونه الجديد الذي ميز كل حركة التحرر الوطني العربية خلال ربع القرن الذي مضى .

في هذا الضوء ينبغي النظر الى الدور الذي لعبه عبد الناصر شخصيا في تطور الحركة الناصرية وفي التأثير الذي مارسه هو ، ومارسته هذه الحركة في مسار حركة التحرر الوطني العربية . فقد كان عبد الناصر ، في قيادة هذه الحركة ، العنصر المتقدم فيها . ومن هذا الموقع بالذات كان دوره المتميز في ضبط الصراعات داخل الحركة ، وفي ضمان استمرارها بخطها العام ، في اتجاه تقدمي ، لا سيما في الفترة التي لم تكن قد تبلورت فيها بصورة واضحة التناقضات الطبقية . وحين اخذت هذه التناقضات بالتفجر ضعفت قدرته ،

برغم كل محاولاته ، على ضبطها والتحكم بها . وقد كان ذلك امرا طبيعيا . وما كشفته هزيمة حزيران من ثغرات ونقاط ضعف في الحكم الناصري ، وما برز من ظواهر سلبية في الفترة الاخيرة من حكم عبد الناصر ، وما ظهر بوضوح من اتجاهات بورجوازية يمينية ، بعد وفاته ، يشكل مؤشرات لما ولدته كل هذه التطورات داخل الحركة الناصرية .

ان هزيمة حزيران بما جسدته وما تولد عنها من نتائج سلبية على جميع الاصعدة ، ولا سيما بعد وفاة عبد الناصر ، سمحت للقوى البورجوازية اليمينية ، من داخل الحركة الناصرية ومن خارجها ، ومن المواقع الجديدة التي احتلتها في السلطة ، بأن تطرح في مصر ، بصورة علنية او بالممارسة ، قضية استمرار الناصرية .

وقد اعتبرت هذه القوى ان الناصرية ، كتيار سياسي تقدمي ، هي المسؤولة عن الهزيمة . وانطلاقا من هذا التقييم قدمت هذه القوى برنامجا بديلا ، على الصعيد الوطني والاجتماعي والاقتصادي ، وعلى صعيد التحالفات السياسية ، الداخلية والخارجية . وجوهر هذا البرنامج هو تكريس وتسريع عملية تطور مصر الرأسمالي وتوثيق ارتباط مصر بنظام العلاقات الرأسمالية العالمية ، علما بأن ذلك لا يعني ولا يمكن ان يعني ان تطور مصر الرأسمالي يخرجها من نظام قسمة العمل الرأسمالي الدولية ومن التبعية للامبريالية . والانعكاسات السياسية لمثل هذا التوجه نلمسها في الميول والممارسات التي برزت لوقف التحولات الاقتصادية والاجتماعية داخليا او التراجع عن قسم منها (رفع الحراسات ، ارجاع بعض الامتيازات للرأسماليين المحليين وللاحتكارات الاجنبية ، التراجع عن المكتسبات التي تحققت للعمال والكادحين ، بما فيها تخفيض عدد ممثلي العمال في مجالس القطاع العام ، زيادة الحد الادنى للملكية الزراعية ... الخ) . كما نلمسها في محاولات العودة الى نظرية « مصرية مصر » ، واضعاف روابط الشعب المصري بسائر الشعوب العربية ، وفي التوجه لتوطيد العلاقات مع البلدان الرأسمالية على حساب العلاقات مع الاتحاد السوفياتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية .

وقد طرحت هذه القوى برنامجها هذا في اطار ما اطلقت عليه صفة الديمقراطية والانفتاح . وكلا الديمقراطية والانفتاح ، بمفهومهما البورجوازي اليميني ، في الواقع ، شكلان لتسهيل عملية التطور الرأسمالي في مصر بأفق ارتباطه بالنظام الرأسمالي العالمي . فضلا عن ان كليهما : الديمقراطية والانفتاح ، تعبير عن التحالف الطبقي الجديد داخل المجتمع المصري وخارجه الذي تريد البورجوازية اليمينية المصرية بالاستناد اليه تحقيق برنامجها .

ان هذا البرنامج الذي تجري على اساسه هذه التحالفات الطبقية ، يستبعد بالضرورة قوى طبقية واسعة ترتبط مصالحها باستمرار عملية التحويلات الاقتصادية والاجتماعية ، وبتعميق الارتباط العضوي مع حركة التحرر الوطني العربية ومع الحركة الثورية العالمية . وقد ادى ذلك الى بروز تيار يساري داخل الحركة الناصرية ، تتعدد فيه الانتماءات الطبقية ، بدأ يدرك ضرورة تخطي واقع الناصرية بالارتباط مع الظروف الجديدة والمهام الاكثر تقدما التي تطرح في اطارها ، وهذا التيار يتبلور بشكل خاص في مصر ، في حين لا تجري عملية موازية له ، بنفس المستوى ، في الوسط الناصري ،

في بقية البلدان العربية .

ان هذا التطور الايجابي الذي نشهد مؤشراته داخل الحركة الناصرية ، في مصر خصوصا ، يترافق مع تبلور الوعي الطبقي لدى جماهير الطبقة العاملة واتساع نضالاتها وارتفاع مستوى التنظيم في تحركها السياسي المستقل . فان الطبقة العاملة ، بهذا المستوى الذي بلغته حركتها ، بدأت تطرح نفسها لا كمجرد قوة مساندة في اطار التحالف السابق ، بل كقوة اساسية في العملية الثورية في افقها الجديد التي لا يمكن ان تجري دون ان يكون لها موقع تقريري فيها . وهكذا تنشأ اسس موضوعية لتحالف طبقي وسياسي واسع ، محوره وقوته الاساسية الطبقة العاملة ، ويضم جميع الكادحين في المدينة والريف ، والفئات الصغيرة والمتوسطة من البورجوازية وقسما من البورجوازية الوطنية ، وهي قوى تلتقي مصالحها في النضال الوطني من اجل تحرير الارض ، وفي النضال من اجل التقدم الاقتصادي والاجتماعي . وبالتأكيد فان المكان الطبيعي للتيار اليساري للحركة الناصرية ، كاستمرار تقدمي وحيد لهذه الحركة ، هو في صفوف هذا التحالف .

هكذا نفهم مستقبل الناصرية في الظروف الجديدة التي نشأت بعد وفاة الرئيس الراحل عبد الناصر ، والتي اخذت تتبلور حتى في الايام الاخيرة من حياته .

٢ — من المؤكد ان بروز حركة المقاومة الفلسطينية بعد هزيمة حزيران كان حدثا بالغ الاهمية . وفي تحليلاتنا للتطورات التي جرت في حركة التحرر الوطني العربية نعتبر ان ظهور حركة المقاومة هو من اهم العناصر الايجابية في هذه التطورات . فبروز المقاومة كان يشير الى امرين هامين : الاول ، ان الحركة الوطنية الفلسطينية التي تضافرت عدة عوامل ، داخلية وخارجية ، ذاتية وموضوعية ، لخنقها وكبتها طيلة عشرين عاما ، عادت الى احتلال مكانها في حركة التحرر الوطني العربية كجزء هام منها . والامر الثاني ، هو بروز القضية الفلسطينية ، بشكل اوضح واعمق من السابق كقضية قومية للشعوب العربية يرتبط حلها بحل العديد من القضايا التي تواجه جميع الشعوب العربية ، لان اسرائيل ، بالدور الذي اوكل اليها من قبل الاستعمار ، تشكل عنصر كبح وتهديد لكل تحرك معاد للامبريالية وكل تحول اقتصادي اجتماعي في اي بلد عربي .

وبهذا المعنى فان القول بأن بروز حركة المقاومة ، بعد هزيمة حزيران ، كان بديلا للناصرية ، متقدما عليها في قيادة حركة التحرر الوطني العربية ، لا يتفق مع التحليل الموضوعي ، بل هو في تقديرنا ، تفسير للاحداث يشكل رد فعل عاطفي ازاء ما ولدته الهزيمة من يأس ومرارة لدى بعض الفصائل الوطنية وقسم عريض من الجماهير في الوطن العربي . والتقدير الصحيح لهذه الظاهرة الهامة هو ان حركة المقاومة رافد جديد في مستوى مهام حركة التحرر الوطني العربية في المرحلة الراهنة . يحمل عناصر التطور ، ليس في داخل الحركة الوطنية الفلسطينية وحسب ، بل في مجمل حركة التحرر الوطني العربية . وهي تشكل ، بالاضافة الى ذلك ، ردا ثوريا باسم حركة التحرر الوطني العربية على الهزيمة التي منيت بها .

وفي الواقع فقد حققت حركة المقاومة ، تقدما كبيرا في مواقفها وفي

مواقعها وفي البرنامج السياسي الذي تصوغه ، بعد مجازر ايلول ، وكانعكاس لعملية التمايز التي كانت ولا تزال تحصل داخل حركة التحرر الوطني العربية .

وهذا التقدم يجعلها الآن تحتل في الحركة الوطنية الثورية العربية مكانا تسهم منه ، مع قوى التحالف الاكثر جذرية في قلب الحركة ، اسهاما فعالا في دفعها الى الامام وفي منع قوى التحالف البورجوازي اليميني ، من تحقيق برنامجه الذي يستهدف عرقلة هذا التطور والتأثير السلبي فيه .

وانطلاقا من هذا التقييم لدور المقاومة ، ومن تقييمنا للتطور الذي حصل في داخل الحركة الناصرية ، ومن تحديدنا للمهام التي تواجه حركة التحرر الوطني العربية في الوقت الحاضر ، تتوضح في نظرنا قضية البديل برنامجا وقوى طبقية ونهجا سياسيا .

فمن حيث البرنامج تتحدد المهام بانجاز الثورة الديمقراطية بمحتواها الجديد انجازا كاملا . وتتحدد القوى الطبقية القادرة على تحقيق هذه المهام وذات المصلحة في تحقيقها بالطبقة العاملة وجماهير الكادحين في المدينة والريف والبورجوازية الصغيرة والمتوسطة والفئات الاجتماعية التي تبدي استعدادها للتحالف مع هذه القوى لانجاز هذه المهمات . والتعبير السياسي لهذا التحالف الطبقي يتجسد في جبهة تلتقي فيهـا احزاب الطبقة العاملـة : الاحزاب الشيوعية ، والاحزاب القومية التقدمية بما فيها التيار اليساري في الحركة الناصرية وحركة المقاومة الفلسطينية .

وهكذا تتحدد المسؤوليات بالنسبة لكل فصيل في الحركة الثورية في ممارساته العملية ، لكـي تصبح الامكانية الموضوعية جبهة فعلية وتلعب دورها السياسي المحدد لتطور مسار الحركة اللاحق .

في هذا الضوء يمكن الجزم بأن حرب تشرين في الظروف التي وقعت فيها وفي النتائج التي اسفرت عنها ، والملابسات السياسية التي رافقتها وجاءت بعدها ، لا تنفي بل تؤكد ، بأن مستقبل حركة التحرر الوطني العربية مرهون بقيام هذه الجبهة بالذات وتعمق وتطور العلاقات بين اطرافها ، على اساس من التكافؤ والديمقراطية الثورية .

ان قيام هذه الجبهة هو وحده ، كما تبين تجاربنا وتجارب الحركات الثورية الاخرى في العالم ، الكفيل بانجاز المهمات المطروحة امام حركتنا الثورية العربية انجازا كاملا .

٣ ــ خلافا لما يفهم من صيغة السؤال من علاقة سببية مباشرة بين ازمة الانظمة بعد ١٩٦٧ ونهوض حركة المقاومة وبين ثورة ظفار والحركة الطلابية والشعبية في مصر والحركة الطلابية في كل من لبنان وتونس ، فان لهذه الاحداث والظاهرات اسبابها الداخلية التي تشكل الدوافع الرئيسية لها ، وان كنا لا ننفي ، من حيث المبدأ ، التأثير الذي احدثته هزيمة حزيران ، وما نتج عنها في كل ما ظهر من تطورات في الحركة الوطنية الثورية العربية . وعلى اساس هذه المنهجية في طرح المسألة ننظر الى ثورة ظفار على انها حركة وطنية كان من الطبيعي ان تنشأ وتتطور ، ليس فقط كرد فعل لاحداث

معينة ، على الصعيد العربي العام ، بل كعملية حتمية في اطار النضال الوطني الثوري لتحطيم القيود الاستعمارية ومجابهة المؤامرات الرجعية الايرانية والسعودية وبناء دولة متحررة مستقلة . وفي هذا المجال لا بد من التأكيد على المناخ الذي خلقه انتصار الثورة في اليمن الديمقراطية والدور الذي تلعبه في دفع الحركة الثورية في المنطقة . وتكتسب ثورة ظفار اهمية خاصة في الظروف الراهنة التي يشتد فيها تآمر الامبريالية والرجعية على صعيد كل منطقة الجزيرة العربية والخليج ، من اجل السيطرة على منابع البترول واستخدام المنطقة للاغراض الاستراتيجية السياسية والعسكرية للامبريالية .

اما بالنسبة للحركة الشعبية والطلابية في مصر ، فمن الواضح ان نهوضها الحالي يرتبط بالتراجعات التي تجري على صعيد القضية الوطنية وعلى الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ، عن المنجزات التي حققتها ثورة يوليــو .

والسمة العامة لهذه الحركات هي التصدي لسياسة التراجعات هذه من جهة ، وطرح مهمات ذات افق اكثر تقدما من مهمات المرحلة السابقة من جهة ثانية . ويعطي هذه الحركات اهميتها ، الدور الذي اخذت تمارسه الطبقة العاملة فيها . فقد تميزت السنوات الاخيرة بتحركات عمالية تشير الى التطور الذي حصل في نمو الوعي الطبقي والمستوى التنظيمي الآخذ بالتبلور في صفوفها . ويتجلى ذلك في ان الطبقة العاملة لا تكتفي في تحركها بالنضال دفاعا عن مكاسبها ، وانما تعمل من اجل توحيد القوى الطبقية ذات المصلحة في التقدم ، في النضال من اجل تحرير الارض ، ومن اجل الدفاع عن منجزات ثورة يوليو وتطويرها ، ومن اجل الديمقراطية واعطائها مضمونا اجتماعيا سياسيا متقدما .

وفي هذا الضوء ايضا يمكن النظر الى التحركات التي تجري في الريف . وهي تحركات تكتسب اهميتها على وجه التحديد بالارتباط بنمو حركة الطبقة العاملة وتطور التناقضات الطبقية في الريف . ان ذلك لا يعني بالطبع التقليل من دور الحركة الطلابية ، وحركة الشباب بشكل عام ، في مصر . فمن المؤكد ان لهذه الحركة جذورا تاريخية ، وهي بالطابع الجماهيري الذي تميزت به في السنوات الاخيرة بصورة خاصة ، تشكل تعبيرات وطنية وديمقراطية تجعل منها في الواقع جزءا من الحركة الشعبية العامة .

وقد كانت على الدوام ، ذات ارتباط وثيق بالحركة العمالية .

غير ان الحركة الطلابية في لبنان ، وفي تونس ، برغم القاسم المشترك الذي يجمع بينها وبين الحركة الطلابية في مصر ، تحمل ميزاتها الخاصة . علما بأن من الصعب عدم رؤية الفوارق الاساسية بين ما تطرحه الحركة الطلابية في كل من لبنان وتونس . فالحركة الطلابية في لبنان ، تجمع فيما تطرحه من شعارات بين القضايا الطلابية الخاصة المتقدمة ، من ديمقراطية التعليم حتى الثقافة الوطنية ، وبين القضايا الاجتماعية والقضايا الوطنية على الصعيد العام . فالتحرك الطلابي ، في هذا الضوء ، ولا سيما مع تعاظم نفوذ حزب الطبقة العاملة والقوى التقدمية وتوطد مواقعها ، اصبح جزءا هاما من مجمل الحركة الشعبية والوطنية ضد نظام الطغمة المالية وسياستها

العامة على جميع الاصعدة . ولم تستطع القوى اليمينية برغم كل الوسائل التي تلجأ اليها ان تحرف هذه الحركة عن الخط العام لتطورها واتجاه سيرها .

اما الحركة الطلابية في تونس فهي على اهميتها بالنسبة للاوضاع الخاصة في تونس ، من اهم اشكال التعبير عن التفجرات التي تهز الركود السياسي الذي فرض على تونس منذ الاستقلال . وتبين هذه الحركة ان الاستقرار السياسي الذي فرضته البورجوازية التونسية في المجتمع والحياة السياسية يحمل في داخله عناصر التفجر .

وفي مطلق الاحوال ، فان الحركة الطلابية في بلداننا ، على اختلاف مستوياتها ودرجة نضوجها ، هي مظاهر رفض لها صفة عالية ، موجهة ضد النظام الرأسمالي والاستعماري ، وما يحملانه من اشكال الاضطهاد القومي والاجتماعي والعرقي والثقافي . وهي ليست حركة مستقلة وليس باستطاعتها ان تكون كذلك لان الطلاب تجمع فئوي ذو انتماءات طبقية متعددة . وانطلاقا من هذا الواقع تسهم الحركة الطلابية في تعزيز مواقع القوى الوطنية والتقدمية والثورية ، لا سيما في ظروف تفاقم الازمة العامة للنظام الرأسمالي العالمي .

٤ ــ سبقت الاشارة الى عجز البورجوازية الكبرى ، التي وصلت في بعض البلدان العربية الى السلطة في المعركة الوطنية من اجل الاستقلال السياسي ، عن القيام بالتحويلات الوطنية والديمقراطية التي تساعد في صيانة الاستقلال وتستجيب للمطامح الشعبية الديمقراطية في التحويلات الاجتماعية التي ارتبطت بشعار الاستقلال السياسي ، ولذلك عجزت البورجوازية الوطنية ، في بلدان اخرى ، بسبب مساوماتها وخيانتها ، عن المضي في المعركة من اجل الاستقلال السياسي الى الانتصار ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

ان المصالح الطبقية جعلت البورجوازية الوطنية الكبرى تتقاعس عن المضي قدما في طريق الاستقلال ، بل وتعاديه . وكان من الطبيعي ، او بالاحرى ان تعادي شعار الوحدة العربية ، وتتخلى عن مد يد العون للشعب العربي الفلسطيني ، كهدف وطني مطروح ضمن اولويات برامج القوى السياسية التقدمية التي تدافع عن مصالح الطبقات المستثمرة والفئات الشعبية المستغلة والتي تتحمل اكثر من غيرها آثار الاضطهاد القومي الذي مارسه الاستعمار ضد البلدان العربية . وقد ادى ذلك الى بروز قوى طبقية جديدة ، اكثر جذرية ، من صفوف البورجوازية الصغيرة اساسا ، تتصدى لمتابعة النضال لتحقيق المهمات القومية والوطنية الديمقراطية التي تتطلبها المرحلة الجديدة من حركة التحرر الوطني العربية .

ان التحالف الطبقي الجديد ، والقوى السياسية المعبرة عنه ، قد استطاعت ، بالاستناد الى المواقع التي تحتلها في اجهزة السلطة بالذات ، بما في ذلك الجيش ، ان تقلب الانظمة الرجعية البالية . وهكذا قامت انظمة وطنية معادية للاستعمار ، نجحت ، من خلال تجارب حركة التحرر الوطني العربية ككل ، وضغط الحركة الشعبية ، ومن خلال المواجهة المستمرة مع التحالف الاستعماري الرجعي الذي كان يشدد تآمره وهجماته مع كل خطوة وطنية وتقدمية ، نجحت في تثبيت مستوى ارقى من النضال التحرري ، ورؤية اوضح

لموقع حركة التحرر الوطني العربية في الحركة الثورية العالمية المعادية للامبريالية . وقد حصل كل ذلك في ظروف مرحلة جديدة من الازمة العامة للرأسمالية ، تتحدد اساسا بتغير ميزان القوى العالمي لصالح الاشتراكية ، وبداية انهيار الحكم الاستعماري وتعزز قدرة الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية اقتصاديا وعسكريا وازدياد نفوذها السياسي والتأثير الايديولوجي لفكر الطبقة العاملة .

وقد كان التعبير الاوضح لهذه العوامل ارتباط شعار الوحدة العربية بشعار الاشتراكية ، مما جعل الانظمة الوطنية التي قامت تلعب دورا سياسيا وايديولوجيا في دفع مجمل حركة التحرر الوطني العربية الى مواقع متقدمة ورغم كون شعار الثورة الاشتراكية قد ظل محكوما بالانتقائية على الصعيد الايديولوجي وبالتجريبية على الصعيد السياسي ، بسبب الاصول البورجوازية ، ورغم عدم حسم مسألة انفصال هذه البلدان عن النظام الرأسمالي العالمي وبقائها خاضعة من حيث الاساس ، لقوانين تطور الرأسمالية ، فقد اشتدت الهجمة الامبريالية والصهيونية والرجعية على هذه الانظمة ، الى درجة شن عدة حروب للقضاء عليها .

ان قيام الانظمة التي استحقت تسميتها بالتقدمية نتيجة هذه العوامل ، واستحقت دعم كل القوى الثورية في مواجهتها للامبريالية والصهيونية والرجعية ، يؤكد صحة التحليل اللينيني لحركة التحرر الوطني بشكل عام ، هذا التحليل الذي ينظر اليها في تحركها وفي تناقضاتها ويؤكد حتمية التقاء احزاب الطبقة العاملة فيها بالاجنحة الديمقراطية الثورية للاحزاب القومية بوصفها الاكثر استمرارية وثباتا في مواجهة الامبريالية بين كل القوى التي تعاني من نير الاضطهاد القومي والاستعمار .

في هذا الاطار من الطبيعي النظر الى الانظمة التقدمية وعناصرها القيادية ، وكذلك الاحزاب القومية المعادية للاستعمار على انها تحمل دائما طبيعة مزدوجة ترجع الى منشئها الطبقي ، البورجوازي الصغير ، بصورة عامة . وهكذا يمكن تفسير اسباب الدور الذي لعبته وتلعبه الجيوش في حركة التحرر الوطني بشكل عام ، فالجيش في الدول المستقلة حديثا ، يشكل تجمعا بشريا ، تتشكل قاعدته من ابناء الفلاحين اساسا وتنتمي كوادره المتوسطة الى ابناء البورجوازية الصغرى والمتوسطة . وقد تكون ونما مع تطور المعركة من اجل الاستقلال وتثبيته وارساء الدولة الوطنية .

واستنادا الى هذه العناصر ذات الاصول البورجوازية والصغيرة والمتوسطة في الجيش ، اصبح للحركات والاحزاب القومية التقدمية تأثير كبير فيه . لذلك نجد بصورة عامة ان الجيوش قد لعبت دورا رئيسيا وكان للانقلابات العسكرية اهمية خاصة في مرحلة معينة في كل التمخضات التي ادت الى قيام هذه الانظمة التقدمية ، وفي حسم الصراعات بين مختلف التيارات السياسية التي تنشأ وتتصارع في اطار هذه الحركات الوطنية عامة التي تشكل الجيوش جزءا هاما منها .

وفي الواقع فان الصراع الاجتماعي السياسي لا بد ان ينعكس على الجيوش . ومن هنا فقد واجهت الانظمة التقدمية مصاعب تتعلق باخضاع

الجيوش للقيادة السياسية سواء كانت هذه القيادة منبثقة من العناصر العسكرية او من المدنيين في الاحزاب السياسية وخاصة المثقفين منهم . ومن الطبيعي ، في غياب الحياة الديمقراطية التي تعتمد اساسا على التنظيم الجماهيري والمنظمات الديمقراطية ، وفي غياب الحياة الحزبية الصحيحة ، ان تحسم الصراعات الداخلية الحتمية بالاستناد الى النفوذ داخل الجيش . ومما يزيد من خطر ذلك ان القوى الرجعية واليمينية ما زالت في الكثير من الاماكن قادرة على تحريك عناصر من الكادرات العليا الموالية لها ، اما ايديولوجيا لانها تربت في مراحل الحكم الرجعي ، واما طبقيا لانها تنتمي الى البورجوازية الكبرى والعائلات الاقطاعية ، او الى اقسام من البورجوازية المتوسطة التي توصلت الى الثراء نتيجة استغلالها مواقع نفوذها في السلطة .

ان خضوع الجيش للسلطة السياسية وللحزب وقيامه بالمهمة التي يفترض ان يقوم بها كجيش وطني توكل اليه مهمة الدفاع عن المنجزات التي حققتها الانظمة الوطنية هو القاعدة العامة التي لا بد ان تسلكها القوى الوطنية والتقدمية الموجودة في السلطة ، والا عرضت وجودها وسلطتها لخطر التآمر الامبريالي الرجعي وصرف جهود القوى المسلحة عن مهمة مواجهة العدوان الخارجي . وكل ذلك يتطلب استناد الانظمة التقدمية في ترسيخ نفوذها على اطلاق اوسع الحريات الديمقراطية للجماهير ، لتكون هي القلعة الصامدة امام قوى الثورة المضادة في الداخل .

ان حسم هذه التناقضات لصالح القوى التقدمية يتطلب توطيد الجبهة الوطنية التقدمية والتحالف بين حزب الطبقة العاملة ، اي الحزب الشيوعي ، وبين الاحزاب القومية التقدمية وكافة القوى الديمقراطية الثورية . فالمنجزات التي حققتها الانظمة التقدمية تتعرض للهجوم وللخطر ليس من الاعداء التقليديين ، بل من فئات جديدة من البورجوازية الوسطى التي تنتقل الى مواقع اليمين عندما تدافع عن امتيازاتها وثرواتها التي حصلت عليها بوسائل غير مشروعة في اغلب الاحيان ، بحكم وجودها في مواقع السلطة .

لذلك ، يمكن اعتبار مشاركة الاحزاب الشيوعية في السلطة بشكل مباشر بداية مرحلة جديدة من توطد التحالف الثوري افقيا وعموديا وتعبيرا ضروريا عن المضمون الطبقي لحركة التحرر الوطني .

غير ان هذه المشاركة لم تغير من طبيعة الانظمة التقدمية . فحتى قبل هذه المشاركة على مستوى السلطة كان صمود هذه الانظمة ضد الانقلابات والمؤامرات المضادة ، يتوافق ، كقاعدة عامة ، مع وجود قدر من الديمقراطية يسمح للاحزاب الشيوعية بالعمل الجماهيري . وبالعكس كانت سياسة العداء للشيوعية لا تلبث ان تعزل كل انظمة الحكم لتسقط بعد حين .

ان قيادات الانظمة التقدمية قد توصلت الى ضرورة تمثيل الشيوعيين في الحكومات عن طريق تجربة الصواب والخطأ ، مثلما حصل في كافة مجالات الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . كما انه ينبغي القول ان الاحزاب الشيوعية نفسها تتحمل قسطا من المسؤولية نتيجة اخطاء في النظرية والتطبيق سمحت للاجنحة اليمينية في الاحزاب القومية وللقوى الرجعية بالعمل على تأخير قيام الجبهة الوطنية التقدمية بشكل عام ومشاركة

الشيوعيين في السلطة بشكل خاص .

غير ان المشاركة الرمزية في السلطة اذا صح التعبير لا تغير من حقيقة المخاطر التي تتعرض لها الانظمة التقدمية . ويعود ذلك في الاساس الى توجه الفئات المنحدرة من اصول بورجوازية صغيرة ، التي تظل تنهج سياسة تقنين الديمقراطية وتميل الى الانفراد بالسلطة وتخاف من اطلاق المبادرات الجماهيرية . وتطال هذه التضييقات بصورة رئيسية الطبقة العاملة وحزبها السياسي .

ان الديمقراطية الثورية تتطلب ، اكثر من مشاركة شكلية في الحكومات ، تتطلب اطلاق الممارسة الديمقراطية للجماهير وعدم عرقلة نشاط الاحزاب المعبرة عن مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية التي تعبر الجبهة الوطنية الديمقراطية عن مصالحها ، والسماح خاصة بالتنظيم المستقل للطبقة العاملة ، سواء على الصعيد النقابي ، ام الحزبي ، والسماح لها بحرية التعبير عن برنامجها المستقل ونشر ايديولوجيتها بين كافة الفئات . فليس تعدد الاحزاب هو الذي يقف حجر عثرة في تطور الانظمة التقدمية كما تدعي الايديولوجية البورجوازية الصغيرة وتحظى بهذا بتأييد الرجعية ، عندما يكون موجها ضد الطبقة العاملة وحزبها السياسي . كما ان الاحزاب التقدمية الثورية القائمة وخاصة حزب الطبقة العاملة ، اصبحت احزابا ذات جذور تاريخية عميقة عجزت حتى الآن كافة اساليب القمع الرجعي عن اقتلاعها .

وقد حصلت بذلك على حقها بالوجود وبالاسهام في تقدم مجتمعاتها على قدم المساواة مع كافة الاحزاب التقدمية . كما ان المرحلة الحالية بشكل خاص تؤكد ان الصراع الوطني والاجتماعي يتطلب ان تحتل الطبقة العاملة مكانتها التي تعود لها في قيادة حركة التحرر الوطني بشكل عام ضمن الجبهة الوطنية والتقدمية ، وما مشاركة الاحزاب الشيوعية في بعض الحكومات ودعمها لغيرها سوى وجه من وجوه هذه الضرورة .

وهذه الضرورة بالذات هي التي تفرض نهجا من الممارسات والعلاقات الجبهوية بين كافة اطراف التحالف الثوري ، لا يؤدي الى فرض برنامج طرف من الاطراف على بقية الاطراف في الجبهة ، وضياع الثقة بين هذه الاطراف .

٥ — نحدد في بادىء الامر نظرتنا الى واقع ما بعد ١٩٦٧ والى ما قدمته حرب تشرين من معطيات جديدة . ونبادر الى القول بأن هزيمة حزيران قد احدثت خللا في الاوضاع العامة في البلدان العربية انعكس على الصعيد النفسي والفكري والسياسي ، وبرزت في اطار التحليلات والتفسيرات لما حدث ، نظريات تتعارض مع التحليل العلمي تعيد اسباب الهزيمة الى النقص في جوهر الانسان العربي وتخلفه الحضاري .

ورغم ان الضربة التي وجهت لحركة التحرر الوطني العربية في عدوان ١٩٦٧ كانت قاسية جدا ، عسكريا وسياسيا ، فانها لم تستطع وقف قوة الاندفاع الجماهيري ومنع التطور في العمق الذي حصل في هذه الحركة . ولهذا كان موقفنا ازاء تلك التفسيرات موقف الرفض لها ليس فقط لانها متعارضة مع التحليل العلمي ، ولانها لا تعطي تفسيرا سياسيا للاحداث ، بل لانها كذلك تخلق نوعا من اليأس وتؤدي الى تفكك الحركة وتضعف زخم التحرك الجماهيري .

وفي الواقع فاذا كانت الانظمة الوطنية المعادية للاستعمار قد اصيبت بالضعف ، واذا كان قد حصل فيها عدد من التراجعات في مجال التدابير الاقتصادية الاجتماعية ، وما تركه ذلك من تأثيرات سلبية على مجمل حركة التحرر الوطني العربية ، فان هذه الحركة بالمقابل ، قد عززت مواقعها في اتساع قاعدتها الجماهيرية وفي تعمق التوجه الفكري والسياسي والاجتماعي .

اما بالنسبة لحرب تشرين وما نشأ عنها وبتأثير منها من تفسيرات ومن مواقف فكرية وسياسية ، فان التحليل السياسي الذي يقدمه الشيوعيون ينطلق من ان الازمة الوطنية واستمرار الاحتلال اكثر من سبع سنوات ، ولد وضعا ، اصبحت الجماهير فيه تضغط بالحاح للخلاص من الاحتلال الاسرائيلي وايجاد حل يحقق الاماني القومية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، في ظروف تزايد الادراك لديها بأن الانظمة تصبح عاجزة عن التصدي لايجاد هذه الحلول ، وفي ظروف شعور القيمين على هذه الانظمة بأنهم في مواجهة معضلة وطنية واجتماعية متفاقمة تتطلب الحل وتهدد مواقعهم .

وقد كان ضغط الجماهير يستند في الحقيقة الى عاملين ماديين اساسيين :

العامل الاول : عامل داخلي ذاتي ، هو الاستعداد الذي برز لديها لتحمل المسؤوليات في النضال وتقديم التضحيات اللازمة ، والتي تجلت بشكل خاص بالبطولات خلال الحرب .

العامل الثاني : هو الدعم الكبير والمتعدد الوجوه الذي قدمه الاتحاد السوفياتي طيلة السنوات التي سبقت الحرب لرفع القدرة العسكرية والاقتصادية ، والدعم العسكري والسياسي الذي قدمه خلال الحرب نفسها ، مما لم تستطع كل وسائل التضليل اليميني والرجعي من اخفائه عن الجماهير والتقليل من اهميته .

لهذه الاسباب الرئيسية ، اعتبرنا حرب تشرين حربا وطنية عادلة ولم

نتوقف في تقييمنا لها عند المآخذ التي تتعلق بعدم الجدية في الاعداد السياسي والعسكري والجماهيري لها . فقد اسفرت هذه الحرب عن نتائج عسكرية ايجابية وامكانات سياسية يمكن الافادة منها لصالح مجموع حركة التحرر الوطني العربية ، غير ان النهج السياسي الذي سلكته الاجنحة اليمينية يهدد هذه الامكانات بالضياع . لذلك فاننا نرى بأن المبادرة لم تنتقل من يد الجماهير ، بل هي ما زالت بيدها ، وهو ما نؤكد عليه في كل توجهنا السياسي وفي نضالنا العملي .

وفي اعتقادنا فان مظاهر التضامن العربي التي برزت خلال الحرب ، جاءت نتيجة لمجموعة العوامل التي اشرنا اليها ، ولكنها كانت اقل من الضرورة وادنى من الامكانات الفعلية المتوفرة .

وحتى سلاح البترول الذي استخدم في المعركة ، والذي لا يمكن التقليل من اهمية الدور الذي لعبه ، قد اجهض تحت تأثير القوى الرجعية واليمينية والضغوط الامبريالية ، بدلا من الاستمرار في استخدامه كعامل ضغط سياسي في المعركة لتحقيق الاهداف الوطنية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ولذلك فان اي حديث عن التصنيع وتطوير التقنية والسيطرة على المواد الاولية لا يرتكز على اي اسس جدية في ضوء مثل هذه السياسة .

ويمكن القول كذلك بأن هذه السياسة لا تسمح بأن يتطور دور وموقع البلدان العربية في الوضع الدولي بما يتفق مع امكاناتها البشرية والاقتصادية والسياسية ، ومع ما تطمح اليه حركة التحرر الوطني العربية للاسهام بقوة اكبر في مجمل العملية الثورية العالمية .

كريم مروة

مهدي عامل

التمرحل في حركة التحرر الوطني ، وكيف نفهمه ؟

I

لا يتمرحل التاريخ بأحداثه ، وان عظمت ، بل بحركة عميقة فيه تحددها بنية علاقات الانتاج القائمة في بنية اجتماعية معينة . والحركة هذه هي حركة الصراعات الطبقية التي تتمحور ، في شتى حقولها وتناقضاتها ، حول تناقض رئيسي فيها ، هو القائم بين الطبقتين الرئيسيتين ، في اطار علاقة التحالفات الطبقية بين كل من الاثنتين والطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى ، اي الثانوية . لئن كان هذا التناقض دائما بين هاتين الطبقتين لا يتغير ، ما دام نمط الانتاج القائم دائما لم يتغير (اي لم تتحول قاعدته المادية بتحويل بنية علاقات الانتاج فيه) ، فهو بالعكس متغير بتغير عناصر التحالف الطبقي التي يضمها كل من طرفيه حول كل من الطبقتين الرئيسيتين . بتغير هذه العناصر يتغير طرفا التناقض الرئيسي فينتقل ، بهذا التغير منه ، في صيرورته داخل زمان نمط الانتاج القائم ، من مرحلة الى مرحلة ، بمعنى ان البنية الاجتماعية التي تجد مبدأ تماسكها في الحركة المحورية لهذا التناقض نفسه ، تنتقل من مرحلة الى اخرى في ديمومة انتمائها الى نمط الانتاج الذي ما زالت تنتمي اليه ، اي الذي ما زال فيها نمط الانتاج المسيطر . ولئن كانت **حركة التمرحل** هذه التي هي الحركة التاريخية نفسها للبنية الاجتماعية ، تتحدد بحركة الصراعات الطبقية في هذه البنية ، فان **حركة التطور** — اي حركة الانتقال من طور الى طور — هي الحركة الخاصة بنمط الانتاج المسيطر ، في علاقة تعايشه ببقية انماط الانتاج الاخرى السابقة عليه ، داخل البنية الاجتماعية الواحدة . فهي اذن تتحدد بحركة التناقض الاقتصادي الاساسي ، اي بحركة العلاقة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الخاصة بنمط الانتاج المسيطر . وكل نمط من الانتاج يمر ، بشكل عام ، بطورين اساسيين : طور صاعد هو ما يمكن تسميته بطور التوسع في تثبت علاقات الانتاج التي هي فيه حافز لتطوير القوى المنتجة ، وطور « هابط » هو **طور الازمة** — بغض النظر عن الاشكال المختلفة التي يمكن ان تأخذها الازمة هذه — حيث تصير علاقات الانتاج عائقا بنيويا لحركة تطور القوى المنتجة . لذا ، لا بـد ، في تمييز

حركة التمرحل ــ اي في تحديد المرحلة المعينة التي تمر بها البنية الاجتماعية ــ، من وضع هذه الحركة في اطار علاقتها **بحركة التطور** ، وبالتالي ، من تحديد **الطور** الخاص بنمط الانتاج المسيطر . والفارق ، على الصعيد النظري والسياسي ، كبير بين ان تكون المرحلة التاريخية مرحلة من الطور الاول لنمط الانتاج المسيطر ، وبين ان تكون مرحلة من طور ازمته . فالمهمات التي توجه حركة الصراعات الطبقية تختلف باختلاف المرحلة التي تمر بها البنية الاجتماعية ، ولا بد ، في تحديدها ، من تحديد التناقض الرئيسي الخاص بهذه المرحلة .

للرد ، اذن ، على الاسئلة التي تطرحها مجلة « مواقف » ، يجب البدء بتحديد نمط الانتاج المسيطر في البنيات الاجتماعية العربية ، ثم بتحديد **الطور** الذي يمر به هذا النمط من الانتاج ، للوصول الى تحديد **المرحلة** التاريخية الراهنة من هذا الطور ، وبالتالي ، معرفة العناصر (اي القوى الاجتماعية الطبقية) التي يتكون منها كل طرف من طرفي التناقض الرئيسي في هذه المرحلة . في هذا الضوء من **التحليل النظري** ، يمكن النظر في الواقع التجريبي وفي احداثه المختلفة المتباينة ، دون الوقوع في اسر ما يظهر منه من تناقضات سطحية تخفي وتعكس (اي تقلب) تناقضاته الفعلية . لن ننطلق اذن من حركة التتابع الحدثي (مثلاً ، هزيمة حزيران ← وفاة عبد الناصر ← حرب تشرين ← انتعاش البورجوازيات العربية ... او ، مثلا ، ازمة المقاومة الفلسطينية قبل ١٩٦٧ ــ هزيمة حزيران ← ظهور المقاومة « كبديل » ــ وفاة ناصر ← نهاية الناصرية ← ظهور المقاومة « كبديل » الخ ...) كي نصل الى فهم حركة التمرحل في حركة التحرر الوطني ، بل سننطلق ، بالعكس ، من التحليل المفهومي لحركة التمرحل هذه كي نصل الى فهم الحركة الحدثية . فالمنهج الاول تجريبي غير قادر على تلافي السقوط في السببية الحدثية ، اي في النظر الى علاقة التتابع الظاهري بين الاحداث على انها علاقة سببية ، فتغيب بهذا عنه العلاقة الفعلية التي تشد الاحداث الى اسبابها البنيوية ، فيتذبذب ويتبدل ويتغير بتذبذب الاحداث وتبدلها وتغيرها دون ان يقبض عليها في ممارسة سياسية تسير فيها في خط منطقها الموضوعي . اما المنهج الثاني فهو المنهج العلمي ، او قل المنهج الذي يحاول ان يكون علميا في ماديته ، لانه يبحث في بنية التناقضات ، كما تحددها حركة الصراعات الطبقية في تحددها نفسه ببنية علاقات الانتاج القائمة ، عن الاسباب المولدة للاحداث ، سواء منها التي وقعت او التي بامكانها ان تقع ، بفعل الضرورة المتميزة التي تتحكم بصيرورة البنية الاجتماعية . وما الامكان ، في تعدده ، سوى صيرورة الضرورة حدثا .

كل بنية اجتماعية تتكون من عدة انماط من الانتاج تربطها علاقة من التعايش يسيطر فيها نمط معين من الانتاج هو الذي يحدد طابعها التاريخي العام ، في القول ، مثلا ، انها بنية اجتماعية اقطاعية او راسمالية او اشتراكية . كلنا يعلم ان العالم قد صار كلاً متماسكا منذ ان تعممت ، **باشكال متفاوتة** ، علاقات الانتاج الراسمالية فيه ، لا سيما في بدايات القرن العشرين مع انتقال الراسمالية الى طور توسعها الامبريالي . فالقوة الموحدة للعالم تكمن في آلية هذا التطور الامبريالي للانتاج الراسمالي الذي ، في تحققه ، يمنعنا على الاطلاق من النظر في اي بنية اجتماعية خارج العلاقة

البنيوية التي تربطها به . معنى هذا ان التطور الامبريالي للرأسمالية وضع العالم في شبكة معقدة من العلاقات المترابطة ، صار من غير الممكن فيها القول ان نمط الانتاج المسيطر في البنيات الاجتماعية لما يسمى « بالعالم الثالث » هو نمط انتاج اقطاعي او سابق على الرأسمالية . فخضوع هذه البنيات الاجتماعية لسيطرة الامبريالية ، على اختلاف اشكال هذه السيطرة ، يجعلها مرتبطة حكما بنظام الانتاج الرأسمالي الذي هي جزء منه . لكن هذا الارتباط التبعي لا ينفي ، بل بالعكس يؤكد الطابع التاريخي الذي تتميز به من البنيات الاجتماعية الامبريالية . والتميز هذا يكمن في شكل انتمائها التاريخي الى نمط الانتاج الرأسمالي الذي بلغ الكونية في انتقاله الى طوره الامبريالي ، اي ان التميز ليس منها خروجا عن هذا النمط من الانتاج (بمعنى انها لا تنتمي اليه بل الى نمط آخر سابق عليه) ، بل هو بالضبط الشكل التاريخي المحدد لوجوده فيها من حيث هو نمط الانتاج المسيطر . حين نقول ان لنمط الانتاج الرأسمالي ، لا سيما في طوره الامبريالي الذي هو **طور ازمته** ، **طابعا كونيا** ، نؤكد حقيقة تاريخية هي انـــه النمط المسيطر في جميع البنيات الاجتماعية (باستثناء الدول الشتراكية ، بالطبع) ؛ لكن الشكل الذي يسيطر فيـه في علاقة تعايشه مع انماط الانتاج السابقة عليه يختلف من بنية اجتماعية الى اخرى ، باختلاف الشكل الذي يتفاوت فيه تطوره فيها ، وباختلاف وجوده في بنية اجتماعية **امبريالية** او في بنية اجتماعية **كولونيالية** . وبتعبير آخر ، أن تطور الانتاج الرأسمالي الذي يتحكم به ، كونيا ، قانون تفاوت التطور ، هو في شكله الامبريالي غيره في شكله الكولونيالي ، وان كان هذان الشكلان شكلين تاريخيين متميزين من **نمط انتاج واحد** . فالعلاقة بين الاثنين ، في اطار وحدة النمط الواحد وفي اطار كونيته ، هي علاقة **تفاوت بنيوي** يتحدد فيها الاول ــ اي الانتاج الامبريالي ــ كطرف **مسيطر** ، والثاني ــ اي الانتاج الكولونيالي ــ كطرف تبعي خاضع لسيطرة الاول . لذا وجب تحديد الامبريالية في تطور الانتاج الرأسمالي **كعلاقة بنيوية** (اي كعلاقة بين بنيتين متخالفتين من الانتاج تنتميان الى نمط واحد من الانتاج هو الرأسمالية) هي **علاقة سيطرة** ، من زاوية نظر الانتاج الامبريالي ، وهي **علاقة تبعية** ، من زاوية نظر الانتاج الكولونيالي .

ليس الهدف مما سبق الدخول في تحليل نظري لا مجال للقيام به في هذا الاطار ، بل الهدف منه توضيح بعض المفاهيم الاساسية للوصول الى تحديد نمط الانتاج المسيطر في البنيات الاجتماعية العربية بشكل عام . والتحديد هذا ، على بداهته المفهومية ، قد ساده الغموض والالتباس في حقل « الادبيات » السياسية في عالمنا العربي . فمن قائل ان الانتاج في بنياتنا الاجتماعية هو انتاج « متخلف » او زراعي او تقليدي (وفي هذا القول غياب تام لمفهوم **نمط الانتاج** بعامة ، ولمفهوم نمط الانتاج **المسيطر** بخاصة) ، الى قائل انه الانتاج الاقطاعي ، الى قائل انه الانتاج الرأسمالي المشوه ، الى قائل انه انتاج اشتراكي ، او اشتراكي عربي او اشتراكي اسلامي ، الى قائل انه انتاج رأسمالي الخ ... ومنهم من ينزلق بالتحديد من صعيده النظري كتحديد لنمط الانتاج الى صعيده السياسي العام كتحديد لطابـــع السياسة التي تنتهجها الطبقة او الطبقات المسيطرة في العالم العربي ، فيميز بين « انظمة تقدمية » او غير تقدمية او رجعية . والخطأ ليس في هذا التمييز السياسي الذي هو ضروري لتحديد الموقف الصحيح من هذه « الانظمة » في ممارسات الصراع الطبقي ؛ بل الخطأ هو في ان يؤخذ التمييز هذا بـــين

الممارسات السياسية الطبقية على انه تحديد نظري لطبيعة نمط الانتاج المسيطر في هذه البنية الاجتماعية او تلك . فلدرء الالتباس ولتبديد الغموض ، لا بد من التمييز بين ما هو تحديد لنمط الانتاج وما هو تحديد لطابع الممارسة السياسية لطبقة او لطبقات مسيطرة معينة . فكلمة « الانظمة التقدمية » مثلا ، بغض النظر عن صحتها او عدم صحتها السياسية بالنسبة لمرحلة تاريخية معينة ، ليست تحديدا معرفيا لنمط الانتاج المسيطر في هذه « الانظمة » ، اذ لا وجود لنمط من الانتاج هو نمط الانتاج « التقدمي » او « الرجعي » او غير ذلك ، بل ان نمطا معينا من الانتاج ، كنمط الانتاج الاقطاعي او الرأسمالي مثلا ، قد يكون ثوريا او تقدميا في طور ثم يصير في طور آخر محافظا او رجعيا . وهذا يصح على اي نمط من الانتاج بشكل عام . لذا ، يجب في البدء تحديد نمط الانتاج المسيطر في البنية الاجتماعية وتحديد الطور الذي يمر فيه والمرحلة المعينة التي يجتازها هذا الطور حتى نتمكن من اطلاق صفة التقدم او غير التقدم على هذا النمط من الانتاج وعلى الممارسة السياسية للطبقة المسيطرة فيه .

من السهل القيام بتحديد نفييّ اولي لنمط الانتاج المسيطر في مجتمعاتنا العربية ، فهو ليس بنمط انتاج اشتراكي (وهنا ، لن ندخل في جدالات ايديولوجية عقيمة مع من يقول بوجود اشتراكية عربية او اسلامية في بعض البلدان العربية ، برغم وعينا السياسي لضرورة دحض هذه المقولات الايديولوجية ، اذ ليس اطار هذه الكلمة المجال الملائم لذلك) . هذا النفي راجع ، ببساطة ، الى ان عملية التحويل الثوري لبنية علاقات الانتاج القائمة (والتي لم نحددها بعد) لم تتحقق ، ولم تتحقق في اي من البلدان العربية الثورة البروليتارية التي هي ضرورية للانتقال بالبنية الاجتماعية الى نمط الانتاج الاشتراكي . ثم ان ذلك النمط المسيطر من الانتاج ليس نمط الانتاج الرأسمالي في شكله الامبريالي الذي تطور فيه في البنيات الاجتماعية الغربية . فمجرد وجود بنياتنا الاجتماعية العربية في علاقة من التبعية البنيوية التي تخضع فيها لسيطرة الامبريالية يمنعنا من اقامة علاقة من التماثل البنيوي بين بنية الانتاج فيها وبنية الانتاج الامبريالي . لكن هذا التحديد النفييّ ليس كافيا ، بل يجب الانتقال منه الى تحديد آخر يساعدنا على تلمس الآلية الخاصة ببنية الانتاج المسيطر في مجتمعاتنا العربية . والصعوبة في هذا التحديد ليست في القول ، في ضوء ما سبق من تحليل ، ان نمط الانتاج المسيطر هذا هو ، بحكم تكوّنه وتطوره في اطار العلاقة الامبريالية ، **نمط الانتاج الرأسمالي** ، بل الصعوبة هي في تحديد الشكل التاريخي الذي يتميز فيه هذا النمط من الانتاج ، من شكله التاريخي الآخر النقيض الذي هو شكله الامبريالي . لقد حاولنا ، في كتابات سابقة ، وما زلنا نحاول ان نفكر التميز هذا بمفهوم نظري هو مفهوم « نمط الانتاج الكولونيالي » . والعبارة هذه ليست ، بالطبع ، حلاّ سحريا للمشكلة او تخطيا للصعوبة ، فتسمية الواقع ليست معرفته ، وان كان في التسمية نفسها اشارة الى منهج الوصول الى هذه المعرفة . فلا بد اذن من **انتاج** هذا المفهوم النظري في عملية هي نفسها عملية انتاج معرفة « الانتاج الكولونيالي » التي هي معرفة **علاقة الاختلاف او التخالف** التي تربط هذا الانتاج ، من حيث هو شكل تاريخي متميز من نمط الانتاج الرأسمالي ، بالانتاج الامبريالي الذي هو شكله التاريخي الآخر . والكلمة هذه ليست مجالا لانتاج هذه المعرفة العلمية . لئن نحن اتينا

الى ذكر هذه القضية ، فليس لمعالجتها ، بل لتحديد نمط الانتاج المسيطر في البنيات الاجتماعية العربية بالقول انه نمط الانتاج الكولونيالي ، أي للتبسيط ، هذا الشكل التاريخي الذي تكوّن فيه نمط الانتاج الرأسمالي في هذه البنيات الاجتماعية ، والذي ما يزال يتطور فيه في اطار علاقة التبعية البنيوية التي تربطه بالامبريالية . ان طابع التبعية هذا الذي تتميز به الرأسمالية في بلداننا هو الذي يدفعنا الى التكلم على نمط كولونيالي من الانتاج الرأسمالي ، أي على **رأسمالية تبعية** . فانتاج مفهوم « نمط الانتاج الكولونيالي » يتم اذن بتحليل نظري لهذه **التبعية** بالذات وبمعرفة آليتها . والتبعية هذه التي نقصد هي ، كما سبق القول ، **بنيوية** ، أي انها في اساسها **تبعية بنية علاقات الانتاج** أكثر منها تبعية الطبقة المسيطرة في هذه العلاقات ؛ بل ان تبعية هذه الطبقة ليست سوى وليدة تبعية البنية تلك . هنا يكمن الاساس في فهم عملية التحرر الوطني ، أي في فهم **عملية القطع** مع الامبريالية . فالقطع هذا ليس ، في نهاية التحليل ، سوى عملية التحويل الثوري لتلك البنية القائمة من علاقات الانتاج التي في تجددها المستمر تولّد بالضرورة تجدد التبعية للامبريالية .

هل ابتعدنا عن الموضوع الذي هو الرد على اسئلة « مواقف » ؟ كلا . بل نحن في صلبه . وما سبق من تحليل هو الرد ، بطريقتنا الخاصة ، على السؤال الرابع الخاص « بتحليل طبيعة الانظمة « التقدمية » في المشرق العربي » . فالتحليل هذا هو بالضرورة تحليل بنية علاقات الانتاج القائمة في هذه « الانظمة » . البنية هذه تتحدد بنمط الانتاج المسيطر فيها والذي هو نمط الانتاج الكولونيالي . والقول هذا لا ينفي ، بالطبع ، بل يؤكد **ويفسر** ما تقوم به « الانظمة » الوطنية هذه من **محاولات** التحرر من السيطرة الامبريالية ، دون ان تؤدي المحاولات هذه ، على اهميتها ، (كتأميم البترول مثلا ، او انشاء **قطاع الدولة** ـــ ولا نقول القطاع العام ـــ او اصلاحات زراعية محدودة ومحددة الخ ...) الى تحقيق عملية التحرر الوطني التي هي ، في مفهومها النظري العلمي ، عملية تحويل بنية علاقات الانتاج الكولونيالية . فما دامت بنية العلاقات هذه قائمة في صيرورة اعادة انتاجها وتجددها (ومفهوم التجدد هذا يؤكد حدوث تغيرات في اطار البنية ، وينفي حدوث **تغيير للبنية** اي تحويل لها) فان عملية التحرر الوطني تصطدم في تحققها ، أو في محاولات تحقيقها ، بعائقها البنيوي ذاك الذي يمنع تحققها ، اي بتأبد تلك البنية من علاقات الانتاج التي بتحويلها تتحقق عملية التحرر الوطني . **فالتناقض المأزقي** الذي تقع فيه الطبقات المسيطرة « الوطنية » ـــ سواء البورجوازية منها أم البورجوازية الصغيرة ، برغم الاختلاف بينهما ـــ هو انها ، في تناقض مصالحها الطبقية مع مصالح الامبريالية ، مدفوعة **موضوعيا** الى مجابهة الامبريالية والتحرر منها (وهنا يكمن وجهها الوطني) ؛ لكنها ، في تناقضها الطبقي مع الطبقات الكادحة ، ولا سيما مع الطبقة العاملة ، مدفوعة الى الابقاء على تلك البنية من علاقات الانتاج الكولونيالية التي تحتل فيها موقع الطبقة ، او الطبقات ، المسيطرة ، وبالتالي ، الى الابقاء على علاقة التبعية البنيوية للامبريالية التي لها مصلحة طبقية في التحرر منها . ولا يمكن لهذه الطبقة المسيطرة ـــ سواء أكانت البورجوازية الكولونيالية التقليدية ام البورجوازية الكولونيالية المتجددة ـــ الخروج من **تناقضها المأزقي** ، فهي فيه تتجدد بتجدده . ان « مأزق » حركة التحرر الوطني هو بالذات المأزق الطبقي لهذه البورجوازية المسيطرة التي لا يمكنها ، بقيادتها حركة

التحرر هذه ، الا ان تقودها الى مأزق هو مأزقها الطبقي ، بسبب من وجودها في ذلك التناقض المأزقي .

II

حددنا نمط الانتاج المسيطر في بنياتنا الاجتماعية العربية ، وعلينا الآن ان نحدد طوره الراهن والمرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الطور .

يمكن القول بشكل عام ان نمط الانتاج الكولونيالي ، من حيث هو شكل تاريخي متميز من نمط الانتاج الرأسمالي ، يمر بالطور نفسه الذي يمر به هذا النمط الاخير من الانتاج على الصعيد العالمي ، اي **بطور ازمته** . ولهذا التحديد اهمية بالغة في نقض المقولة الايديولوجية البورجوازية التي تؤكد ان طريق التطور الرأسمالي هو الطريق **الضروري** للتطور الاقتصادي لبنياتنا الاجتماعية ، اذ لو صح القول « ان الرأسمالية في طور ازمتها » ، فهو يصح على الرأسمالية في الغرب ولا يصح عليها في العالم العربي ، بمعنى ان الرأسمالية في عالمنا العربي هي الآن ، لحداثتها ، في طور توسعها الصاعد . والاساس النظري لنقض هذه المقولة البورجوازية هـــو ان الرأسمالية ، بانتقالها الى تطورها الامبريالي الذي اكسبها طابعها الكوني ، قد دخلت في طور ازمتها . في هـــذا الطور بالذات ، وفي ظـــل علاقة التبعية البنيوية للامبريالية ، تكونت علاقات الانتاج الرأسمالية في بنياتنا الاجتماعية ، وما زال التطور الاقتصادي فيها قائما في ظل تلك العلاقة التي تتحكم به . وبتعبير آخر ، ان طور صعود الانتاج الرأسمالي في بنياتنا الاجتماعية هو هو طور ازمته ، بسبب من كونه ، في بنيته بالذات ، تبعيا ، اي كولونياليا . لقد انسدّ على مجتمعاتنا الكولونيالية طريق التطور الرأسمالي منذ ان بدأت فيها تتكون علاقات الانتاج الرأسمالية في شكل علاقات كولونيالية ، اي في ظل علاقة التبعية البنيوية للامبريالية ، ودخل فيها نمط الانتاج الرأسمالي ، في شكله الكولونيالي ، في طور ازمته ، بدخوله في طوره الصاعد نفسه ، اي في طور توسعه ، فكان في توسعه بالذات عاجزا عـــن تحقيق توسعه ، وبالتالي ، عن القضاء على علاقات الانتاج السابقة عليه . وبتفجر ازمة نمط الانتاج الرأسمالي في اول ثورة اشتراكية (ثورة اكتوبر) ، دخل التاريخ البشري في مرحلة جديدة هي مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، بمعنى ان الاشتراكية قد تحددت ، بالواقع التاريخي نفسه ، كحل ضروري لتناقضات الانتاج الرأسمالي ، وان حل الازمة التي يعاني منها تطور الانتاج الكولونيالي ليس ، بالتالي ، في انتقاله الى تطور رأسمالي (طالما ان ازمته هي ، بالضبط ، ازمة التطور الرأسمالي التبعي) بل في ضرورة الانتقال الى الاشتراكية . لكن تحقق ضرورة هذا الانتقال مرتبط بتطور حركة الصراعات الطبقية وبطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها ، اي ان دخول نمط الانتاج الكولونيالي في طور ازمته لا يعني بالضرورة ، وبشكل مباشر ، ان البنية الاجتماعية التي تنتمي اليه قد دخلت في مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ، فدخولها في هذه المرحلة التي هي مرحلة من مراحل طور الازمة يتحدد بحركة الصراع الطبقي بشكل لا بد من ان تعود فيه الهيمنة الطبقية ، في اطار التحالف الطبقي الثوري ، الى الطبقة المهيمنة للنقيض ، اي الى **الطبقة العاملة** ، وليس الى طبقة او فئة اخرى من هذا التحالف ، كالبورجوازية الصغيرة مثلا . فمن الضروري اذن ، في فهم الحركة التاريخية ، وفي تحديد مهمات الحركة الثورية ، ان نميز بين الطور والمرحلة ، وبين المراحل المختلفة داخل

الطور الواحد ، اي باختصار ، بين حركة التطور وحركة التمرحل في الحركة التاريخية للبنية الاجتماعية . من الممكن ان تتجدد الازمة او ان تأخذ اشكالا مختلفة او ان تمر بمراحل متعددة (وهذا ما يسمح بالتكلم على ازمة **مزمنة**) دون ان تقدر على ايجاد حلها الجذري ، لان **العامل الحاسم** في حل الازمة هو ، في نهاية التحليل ، حركة الصراع الطبقي ، وبشكل ادق ، وجود الطبقة العاملة في موقع **القيادة** ، وبالتالي في موقع الهيمنة الطبقية ، داخل التحالف الطبقي الثوري .

فما هي المرحلة التاريخية التي يمر بها نمط الانتاج الكولونيالي في طور ازمته هذه داخل بنياتنا الاجتماعية العربية ؟

.

للرد على هذا السؤال (ونحن هنا بصدد معالجة السؤال الرابع من اسئلة « مواقف ») ، لا بد من تحديد طرفي التناقض الرئيسي داخل ما يسمى بالانظمة « التقدمية » . اذا صح ما قلناه في تحديدنا السابق من ان بنية علاقات الانتاج القائمة في هذه الانظمة — وفي غيرها ايضا من البلدان العربية — هي بنية كولونيالية ، فان التناقض ذاك يتمحور في هذه البنية حول الطبقتين الرئيسيتين ، وهما : البورجوازية الكولونيالية ، من حيث هي الطبقة المسيطرة ، والطبقة العاملة ، من حيث هي الطبقة المهيمنة النقيض ، اي التي عليها **بالضرورة** ان تقود عملية تحويل علاقات الانتاج القائمة ، بحكم موقعها الطبقي في هذه العلاقات . والضرورة هذه شرط لتحقق عملية التحويل . لكن تحديد **محور** ذلك التناقض ليس كافيا لتحديد المرحلة التي تمر بها ، وان كان ضروريا له . اذ ما الذي يميز الانظمة « التقدمية » من الانظمة غير التقدمية او الرجعية في العالم العربي ، طالما ان نمط الانتاج الكولونيالي المسيطر فيها واحد ، وان البورجوازية المسيطرة فيها بالتالي ، واحدة في طابعها الطبقي الكولونيالي ؟ هذا الهمّ النظري والسياسي في تحديد الطابع العام لبنياتنا الاجتماعية العربية وفي تحديد الاختلاف بينها ، همّ حاضر في الاسئلة الخمسة كلها . وللدقة يجب القول ان الانظمة « التقدمية » دون غيرها هي التي تطرح على الفكر النظري والسياسي تلك الاسئلة او غيرها ، فالطابع الطبقي « للنظام » في لبنان او الاردن او السعودية او امارات الخليج الخ ... **يبدو** واضحا في علاقة تبعيته بالامبريالية او في عدائه لحركة التحرر الوطني او في رفضه ، بالطبع ، لضرورة الانتقال الى الاشتراكية . اما في مصر او سوريا او العراق الخ ... — على اختلاف الوضع من بلد الى آخر — ، فهو مصدر همّ وتساؤل ، لان الغموض يسوده ، او قل لان الغموض يسود الفكر الذي يقاربه بأدوات نظرية لا تصلح لمقاربته .

لقد ظهر هذا الغموض في ممارسات الفكر مع بدء تلك التجربة التاريخية التي ربما كانت ، في وقتها ، فريدة من نوعها (وهي بالتأكيد فريدة في العالم العربي) ، والتي هي وصول البورجوازية الصغيرة الى السلطة السياسية واحتلالها موقع الطبقة المسيطرة . ولمعالجة هذه القضية ، سنأخذ مصر مثالا ، لان في مصر ابتدات تلك التجربة واكتملت بشكل صار بالامكان فيه تحليل منطقها الداخلي في ضوء بعض المفاهيم النظرية .

كلنا يعرف الشروط التاريخية التي تم فيها الانقلاب الناصري ، او يعرف الاحداث التي رافقته . ليس لنا أن نقوم هنا بدراسة **تاريخية** للتجربة « الناصرية » . هدفنا ان نطرح بعض الاسئلة التي تساعدنا على تحديد المعالم الرئيسية للبحث في هذه التجربة وعلى الوصول الى تفسير علمي لها في اطار النظرية الماركسية اللينينية . والسؤال الاول الذي نطرح هو التالي :

كيف يمكن لطبقة غير مهيمنة – اي غير رئيسية – كالبورجوازية الصغيرة ان تصل الى موقع الطبقة المسيطرة ، او ان تنتزع من الطبقة المسيطرة – وهي البورجوازية الكولونيالية – السلطة السياسية لتدخل في صيرورتها الطبقية كطبقة مسيطرة ؟ ربما كانت صياغة السؤال بهذا الشكل غير دقيقة ، لان البورجوازية الصغيرة ليست بالضبط **طبقة** ، بل هي مجموع الفئات الاجتماعية **الوسطية** الواقعة بين الطبقتين الرئيسيتين : البورجوازية والبروليتاريا . ثم ان هذه الفئات الوسطية ليست متجانسة ، فمنها ما ينتمي الى انماط من الانتاج سابقة على الرأسمالية (كالحرفيين مثلا ، او صغار الفلاحين من مالكي الارض ووسائل انتاجهم) ، ومنها ما ينتمي الى نمط الانتاج الرأسمالي نفسه ، في شكله الكولونيالي ، ومنها ما ينتمي ، داخل هذا النمط المسيطر من الانتاج ، الى قطاعات متطورة منه ، ومنها ما ينتمي الى قطاعات متخلفة عن المرحلة الاعلى التي وصل اليها الانتاج هذا في تطوره . وما هذا التفاوت بين هذه الفئات الاجتماعية سوى اثر من قانون تفاوت التطور الذي يتحكم بالرأسمالية . وبرغم هذا التباين والاختلاف بين هذه الفئات ، فان قاسما مشتركا واحدا يجمعها ، هو بالضبط كونها فئات وسطية تتحدد نفيًا ، في علاقتها بالطبقتين الرئيسيتين ، كفئات **غير مهيمنة** ، اي كفئات لا تحمل في **صيرورتها الطبقية** نمطا من الانتاج يدفعها الى القضاء على نمط الانتاج المسيطر ، بل بالعكس ، ان وضعها الطبقي يدفعها الى التكيف مع هذا النمط الاخير بشكل تحاول فيه الحفاظ على ديمومة بقائها الطبقي . فالسؤال الذي طرحنا يظل اذن قائما على هذا الشكل : كيف يمكن لطبقة او لفئة من طبقة غير مهيمنة ان تصير طبقة مسيطرة ؟ لا شك في ان هذا السؤال يستند الى اساس نظري هو **ضرورة كون الطبقة المسيطرة طبقة مهيمنة** . هذه الضرورة **النظرية والتاريخية** وجدت ، **في الظاهر** ، في التجربة « الناصرية » وغيرها ما ينقضها ، بمعنى ان التجربة هذه قد خرجت ، في الظاهر ، عن منطق تلك الضرورة ، فوصلت البورجوازية الصغيرة الى السلطة السياسية فكانت الطبقة المسيطرة من غير ان تكون طبقة مهيمنة . هذا السؤال – المشكلة يحدد لنا طريق البحث في واقعنا الاجتماعي التاريخي : فما هو ، في منطق التطور الامبريالي للانتاج الرأسمالي ، استحالة تاريخية ونظرية (وصول البورجوازية الصغيرة الى السلطة السياسية وتحولها الى طبقة مسيطرة) ، هو امكان تاريخي في منطق التطور الكولونيالي للانتاج الرأسمالي . فما هو التفسير النظري لهذا الامكان التاريخي الذي تحقق بالفعل ؟ لهذا السؤال اهمية بالغة جدا هي انه يقود الى ضرورة البحث في **علاقة الاختلاف** بين هذين الشكلين التاريخيين من تطور نمط الانتاج الرأسمالي الواحد ، واهميته المنهجية هذه هي ايضا في انه يقود الى ضرورة البحث في آلية الانتاج الكولونيالي لان التفسير النظري يكمن في استكشاف منطق هذه الآلية بالذات ، بمعنى ان ما هو في الظاهر خروج عن منطق الضرورة هو في الحقيقة شكل متميز – اي **مختلف** – من تحقق هذا المنطق نفسه .

ليس بامكاننا الآن الدخول في تفاصيل هذا التفسير النظري ، بل نكتفي

بالقول ان آلية الانتاج الكولونيالي بسبب تحركها في اطار علاقة التبعية البنيوية للامبريالية ، هي التي تضفي على تلك الفئات الوسطية طابعا من **الثبات الطبقي** النسبي ، لانها تميل ، بشكل عام ، الى الابقاء عليها في ابقائها على انماط الانتاج السابقة على الرأسمالية ، بدلا من ان تميل ، بشكل عام ايضا ، الى القضاء عليها . فامكان صيرورة البورجوازية الصغيرة طبقة مسيطرة يجد اذن اساسه الموضوعي في بنية علاقات الانتاج الكولونيالية التي تحدد وضع هذه الفئات الوسطية ، في ثباته الطبقي النسبي ، على عكس ما هو عليه ، في اطار التطور الامبريالي للرأسمالية ، من عدم الثبات ، بسبب ميل هذا التطور الى القضاء على تلك الفئات ، من حيث هي فئات وسطية او بورجوازية صغيرة ، بتحويلها الى اجراء . هذا الثبات الطبقي للبورجوازية الصغيرة الكولونيالية يدفعها ، في صيرورتها الطبقية ، الى التوهم بامكان صيرورتها طبقة مسيطرة ، برغم كونها غير مهيمنة ، او قل انه يدفع الفئة المتطورة منها (والتي تنتمي الى نمط الانتاج الكولونيالي ، وليس الى انماط الانتاج السابقة على الرأسمالية ، اي الفئة التي ولّدها تطور هذا النمط الكولونيالي من الانتاج ، كالمثقفين والضباط وكادرات الدولة والصناعة الخ ...) الى التوهم بامكان فك علاقة الارتباط التبعي بالامبريالية في هدف تحرير التطور الاقتصادي اي في هدف تطوير **القوى المنتجة** وتحريرها ، **دون القيام بعملية التحويل الضروري لبنية علاقات الانتاج القائمة** . (اليس هذا هو « الحل التكنوقراطي » للمشكلة الاقتصادية ؟ أوليس المستوى الاقتصادي من البنية الاجتماعية هو الذي يتحدد ، بالنسبة لهذا « الفكر التكنوقراطي » ، **بالقوى المنتجة** ، بدلا من ان يكون ، كما هو في مفهومه العلمي ، **بنية علاقات الانتاج** في علاقتها بالقوى المنتجة ؟) . وهذا ما حدث بالفعل في مصر ، وفي غيرها من الانظمة « التقدمية » ، مع بدء الانقلابات العسكرية التي فتحت للبورجوازية الصغيرة طريق الوصول الى السلطة السياسية والى موقع الطبقة المسيطرة . كان لفشل البورجوازية الكولونيالية في تحقيق مهمات التحرر الوطني ، او لعجزها عن تحقيق هذه المهمات ، دور رئيسي في دفع البورجوازية الصغيرة الى موقع القيادة من حركة التحرر الوطني ، لا سيما ان الطبقة العاملة لم تكن بعد — لاسباب تاريخية متعددة — في وضع طبقي ، تنظيمي وسياسي وايديولوجي ، يمكنها من ان تكون — كما عليها بالضرورة ان تكون — ، في قيادة هذه الحركة . لقد اتت البورجوازية الصغيرة اذن الى السلطة للقيام بما عجزت البورجوازية الكولونيالية عن القيام به ، فهل نجحت ؟ والى اين وصلت في ممارسة سيطرتها الطبقية ، او قل الى اين اوصلتها الممارسة هذه ، وما هو واقع حركة التحرر الوطني في علاقتها بهذه الممارسة الطبقية ؟

III

لم يكن للبورجوازية الصغيرة ، في بدء الانقلاب العسكري الناصري ، استراتيجية سياسية واقتصادية واضحة تتحقق على مراحل مدروسة بشكل مسبق ، **فالطابع التجريبي** هو الغالب على ممارساتها في شتى حقول الصراع الطبقي . كان لها اهداف عامة يمكن ايجازها في شعار واحد هو « **التحرر من الاستعمار** » ؛ وهذا ما لم تحققه البورجوازية الكولونيالية . ولم يكن واضحا ما هو التحرر ، ولم يكن واضحا ما هو الاستعمار : فلو قلنا ان الاستعمار هو في وجود القوات الاجنبية في قواعد عسكرية في جزء من ارض الوطن ، لانحصر التحرر ذاك في الجلاء ؛ ولو قلنا انه في وجود البنوك والشركات الاجنبية ، لكان التحرر يعني « التمصير » ؛ ولو قلنا انه في وجود

الملكية الزراعية الكبرى ، لكان الاصلاح الزراعي وتفتيت الملكية طريقا للوصول الى التحرر ؛ ولو قلنا انه في ارتباط الرساميل المحلية الكبرى بالرأسمال الامبريالي ، لكان التأميم هو الحل ، الخ ... . معنى هذا ان تحديد مفهوم التحرر الوطني يستلزم بالضرورة تحديد مفهوم الاستعمار ، اي في نهاية التحليل ، تحديد مفهوم علاقة التبعية للامبريالية . وعملية التحديد المفهومي هذه ليست مجرد عملية ذهنية ، بل هي ممارسة ايديولوجية طبقية لها علاقة وثيقة بالممارسة السياسية للصراع الطبقي . فالشكل الايديولوجي الذي تتحدد به علاقة التبعية للامبريالية يحدد شكلا معينا من ممارسة الصراع ضد الامبريالية ، وبالتالي ، من ممارسة التحرر الوطني ، كما ان العلاقة الضرورية قائمة بين ذاك الشكل الايديولوجي وبين الوضع الطبقي الخاص بالطبقة التي تمارس هذا الصراع التحرري ، بمعنى ان مفهوم البورجوازية الصغيرة للتحرر الوطني يتحدد ، في نهاية التحليل ، بوضعها الطبقي في بنية علاقات الانتاج الكولونيالية القائمة . ولقد سبق القول انها ، بحكم وضعها الطبقي هذا ، ليست طبقة مهيمنة ؛ ولا يقوم بعملية التحويل الثوري لبنية العلاقات هذه سوى الطبقة المهيمنة النقيض . لذا ، كان على البورجوازية الصغيرة المسيطرة ان تصل في ممارسة الصراع التحرري ضد الامبريالية الى المأزق الطبقي نفسه الذي وصلت اليه سابقا البورجوازية الكولونيالية التقليدية ، فهي تنطلق ، في ممارسة هذا الصراع ، من موقع **تجديد** علاقات الانتاج القائمة دون **تحويلها** . وعملية التجديد هذه تقضي بضرورة اجراء تغييرات هامة في البناء الاقتصادي ، في هدف تحرير تطور القوى المنتجة ، دون تغيير البنية الاساسية التي تقوم عليها علاقات الانتاج . ما هي هذه التغييرات ، اي ما هي انجازات البورجوازية الصغيرة المسيطرة في الحقل الاقتصادي ؟ اهمها اثنان : الاصلاح الزراعي وانشاء **قطاع الدولة** — ولا نقول « القطاع العام » . الاصلاح الزراعي كان الهدف الاساسي منه **تعميم** الملكية الزراعية الصغرى عن طريق **تحديد** الملكية الزراعية الكبرى ، وبالتالي ، تفتيت الملكية بشكل يتفق مع الوضع الطبقي للبورجوازية الصغيرة ويتلاءم مع ايديولوجيتها . فالبورجوازية الصغيرة ، في عجزها عن ان تصير بورجوازية كبرى ، تطمح الى ان تصير جميع الفئات الاجتماعية مثلها بورجوازية صغيرة ، مع ضرورة الحفاظ على الفارق الطبقي الذي يميزها عن الطبقة العاملة . وكان للاصلاح الزراعي ايضا هدف آخر هو تحرير الرأسمال من الارض ودفعه الى الصناعة . وهذه هي المرحلة الاولى من سيطرة البورجوازية الصغيرة ، والتي تمتد من سنة ١٩٥٢ الى ١٩٥٧ — ١٩٥٨ . في هذه المرحلة ، يصعب القول ان السلطة السياسية والاقتصادية كانت بالفعل في يد البورجوازية الصغيرة ، او ان هذه صارت الطبقة المسيطرة بدلا من البورجوازية الكولونيالية التقليدية . فبرغم تحديد الملكية الزراعية ، ظلت السلطة الاقتصادية في يد البورجوازية الكولونيالية هذه . كانت الفئة الوطنية التي من البورجوازية الصغيرة في يدها السلطة السياسية (عبد الناصر ورفاقه من الضباط) تميل الى دفع الطبقة المسيطرة (البورجوازية الكبرى) الى استثمار رساميلها في حقل التصنيع ، وبشكل عام الى عدم تجميدها في الملكيات العقارية او استثمارها في القطاعات غير المنتجة كالبناء وغير ذلك . وبتعبير آخر ، ان تلك الفئة الوطنية من البورجوازية الصغيرة والتي جمعت في يدها السلطة السياسية كانت تطلب من الرأسمال المحلي ان يقوم بدوره الاقتصادي الفعلي كرأسمال منتج تحت رعايتها ، وان يتحرر من خضوعه للرأسمال الأجنبي ، فكأنها ، بهذا ، كانت

تتجه الى نوع من تقسيم العمل بين فئات البورجوازية على الوجه التالي : السلطة السياسية للفئة الوطنية من البورجوازية الصغيرة (الضباط) ، والسيطرة الاقتصادية للبورجوازية الكبرى (البورجوازية الكولونيالية التقليدية) في ظل هذه السلطة السياسية ، بشرط ان تقوم بدورها في تطوير الاقتصاد الوطني . لهذا ، اقتصرت الدولة ، بانشائها « المؤسسة الاقتصادية » سنة ١٩٥٧ بعد الاعتداء الثلاثي ، على وضع اليد على الرأسمال الاجنبي ، وتركت الرأسمال المحلي حرا من اي قيد . يمكن القول اذن ان التحالف كان قائما طوال هذه المرحلة الاولى بين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الكولونيالية ، على اساس هذا التقسيم للعمل — ان امكن القول — بينهما ، وكانت سلطة الدولة ، بشكل عام ، في خدمة المصالح الاساسية للرأسمال المحلي . لكن تخاذل البورجوازية الكولونيالية وحذرها من سياسة العداء للامبريالية التي انتهجتها البورجوازية الصغيرة ، لا سيما بعد صفقة الاسلحة التشيكية وتأميم قناة السويس وضرب المصالح الاقتصادية للشركات الاجنبية عن طريق تأميمها وانشاء « المؤسسة الاقتصادية » ، واحجامها ، بالتالي ، عن التوجه في توظيف رساميلها الى القطاعات الصناعية المنتجة ، اي عن القيام بالدور الاقتصادي نفسه الذي كانت تقوم به البورجوازية الاوروبية في طورها الصاعد ، كل هذا دفع السلطة السياسية الى توجيه ضربة قاسية — ولا نقول قاضية — الى البورجوازية الكولونيالية ، فكانت التأميمات الكبرى لسنتي ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، التي بها صار قطاع الدولة مسيطرا على حركة الاقتصاد الوطني . وهذه هي المرحلة الثانية من سيطرة البورجوازية الصغيرة . لهذه التأميمات دلالة سياسية واقتصادية حددها عبد الناصر في خطابه الشهير بعد فشل الوحدة مع سوريا ، والذي قام فيه بما سماه نقدا ذاتيا . الدلالة السياسية هي في ان البورجوازية الكولونيالية ليست مستعدة على الاطلاق لقبول السلطة السياسية لهذه الفئة الوطنية من البورجوازية الصغيرة ، بل هي مستعدة للتعاون مع الامبريالية من اجل القضاء عليها ، فكل عداء للامبريالية ترى فيه عداء لها . لقد وضح للبورجوازية الصغيرة — او قل للفئة الوطنية منها ، وبشكل خاص لعبد الناصر نفسه — ان عليها ان تمارس صراعا طبقيا عنيفا ضد البورجوازية الكولونيالية ، ليس من اجل اضعافها وحسب ، او من اجل الحد من سيطرتها السياسية والاقتصادية ، وفي هدف التحالف معها من موقع الهيمنة عليها ؛ بل من اجل القضاء عليها كطبقة مسيطرة ، اي من اجل القضاء على القاعدة المادية لوجودها كطبقة مسيطرة . لكن العملية هذه تستلزم بالضرورة تحويلا ثوريا لبنية علاقات الانتاج الكولونيالية القائمة ، وبالتالي تغييرا جذريا في علاقة التحالف الطبقي ، من تحالف مع البورجوازية الكولونيالية تخضع فيه البورجوازية هذه لهيمنة الفئة الوطنية المهيمنة من البورجوازية الصغيرة ، الى تحالف مع الطبقة العاملة تعود فيه الهيمنة الطبقية بالضرورة لهذه الطبقة المهيمنة النقيض ، بسبب من طبيعة العملية التاريخية نفسها من حيث هي عملية تحويل لبنية علاقات الانتاج القائمة ، اي عملية انتقال الى نمط آخر من الانتاج هو نمط الانتاج الاشتراكي . وهذا ما لا تقبل به ، طوعا وتلقائيا ، البورجوازية الصغيرة التي هي في السلطة . وهذا وجه من مأزقها ، اكثر الظن ان عبد الناصر كان واعيا له ، انما كان عاجزا عن الخروج منه ، لان الخروج منه يستلزم بالضرورة الانتقال ، في ممارسات الصراع الطبقي ، من الموقع الطبقي للبورجوازية الصغيرة ، الى الموقع الطبقي للبروليتاريا .

اما الدلالة الاقتصادية لتلك التأميمات فهي في ان البورجوازية الكولونيالية عاجزة عن السير في طريق توهمت « الناصرية » في البدء — اي في المرحلة الاولى — انه ممكن ، وهو طريق التطور الرأسمالي الوطني ، اي طريق يتحرر فيه الانتاج الرأسمالي من تبعيته للامبريالية فيتطور كانتاج رأسمالي وطني مستقلا عن الرأسمال الاجنبي . كان مطلوبا من البورجوازية الكولونيالية ان تسير في هذه الطريق فعجزت عن ذلك . والعجز هذا ليس فيها عرضا او طابعا ذاتيا ، بل هو من طبيعة علاقات الانتاج الكولونيالية نفسها التي تحدد بالضرورة كل انتاج رأسمالي كانتاج كولونيالي اي رأسمالي تبعي ، بمعنى ان التطور الاقتصادي في اطار هذه البنية من علاقات الانتاج لا يمكن ان يكون الا تبعيا . فهل يشذ قطاع الدولة التي انشأته تلك التأميمات عن هذه القاعدة ؟

IV

لا بد ، في البدء ، من القول ان قطاع الدولة ليس قطاعا اشتراكيا ، فملكية الدولة لبعض وسائل الانتاج هي شكل معين من **الملكية الخاصة** ، كما ان **الملكية الفردية** شكل آخر منها . والبورجوازية الصغيرة هي التي تلجأ ، في ممارستها الايديولوجية ، الى اقامة التماثل بين قطاع الدولة والقطاع الاشتراكي لتطمس الطابع البورجوازي ، وبالتالي الكولونيالي ، لسلطتها الطبقية ولتوهم الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات الكادحة بأن الانتقال الى الاشتراكية **قد** تحقق ، او **هو في** طور التحقق ، في ظل سلطتها الطبقية بالذات ؛ فلا وجوب اذن لرفع شعار تغيير السلطة هذه من اجل تحقيق الانتقال الى الاشتراكية ، بمعنى ان الانتقال هذا ممكن بقيادة البورجوازية الصغيرة نفسها ، ومن غير ان تكون الطبقة العاملة بالضرورة في السلطة ، بل من غير تحويل ثوري لبنية علاقات الانتاج الكولونيالية القائمة ، ومن غير القضاء على جهاز الدولة البورجوازي . هذا الوهم الطبقي الذي تولده الممارسة الايديولوجية للبورجوازية الصغيرة في وعيها ، وفي وعي الطبقات الكادحة ايضا ، يخدم ، في نهاية التحليل ، مصالح البورجوازية الكولونيالية نفسها ، لانه ، بالذات ، وهم **الاصلاحية** التي تقول بامكان الوصول الى الاشتراكية عن طريق **تراكم** فيها التغييرات الجزئية **الاقتصادية** في اطار علاقات الانتاج القائمة وعلى اساس الحفاظ على بنيتها ، دون تغيير لها او تحويل لا يتم الا بتغيير السلطة **السياسية** الطبقية . فالوهم الاصلاحي موجه في الحقيقة ضد الطبقة العاملة التي عليها يقع عبء انتزاع السلطة السياسية هذه ؛ وليس عند الطبقة المسيطرة مثل هذا الوهم . معنى هذا ان الاصلاحية سلاح ايديولوجي تستخدمه الطبقة المسيطرة لاظهار التغير الاقتصادي بمظهر التغيير السياسي (او لاظهار التغير الكمي بمظهر التغيير النوعي) ولتحييد الطبقة العاملة بشكل يدفعها الى التخلي عن دورها القيادي في عملية التحويل الثوري . من هنا اتت الضرورة النظرية والسياسية في تأكيد هذا الدور كشرط اساسي لتحقيق العملية هذه ، فوجود الطبقة العاملة في السلطة السياسية وفي موقع القيادة من حركة التحرر الوطني هو الذي يؤمن لهذه الحركة ان تكون في واقعها التاريخي الفعلي كما هي في حقيقة واقعها المفهومي ، حركة انتقال الى الاشتراكية ، فيكتسب حينئذ قطاع الدولة دلالة ليست له في ظل السلطة السياسية للبورجوازية . في ظل السلطة السياسية للبروليتاريا وحدها يتحدد قطاع الدولة كقطاع اشتراكي هو في صيرورة من الانتقال الى نمط الانتاج الشيوعي . فوضع القطاع ذاك في سيرورته هذه

اذن مهم لتحديد العلاقة التي تربطه بالقطاع الخاص (لا ننس ان الاشتراكية هي **انتقال** من الرأسمالية الى الشيوعية ، فالتعايش في هذا الانتقال قائم اذن بين الملكية الخاصة والملكية الاشتراكية في اطار علاقة السيطرة التي تخضع فيها الاولى للثانية) . في البنية الاجتماعية الاشتراكية ، حيث السلطة السياسية تعود بالضرورة للبروليتاريا ، لا يخضع القطاع الخاص لسيطرة القطاع الاشتراكي وحسب ، بل هو يسير في افق **انقراضه** ، بمعنى ان تطوره في اطار علاقة السيطرة هذه هو بالضرورة تطور انقراضي ؛ فما دامت السلطة السياسية سلطة بروليتارية ، فمن المحال ان ينتعش القطاع الخاص بشكل تنقلب فيه علاقة السيطرة التي يخضع فيها لقطاع الدولة ، فيصير هو المسيطر وقطاع الدولة خاضعا له ، لأن المهمة التاريخية للسلطة البروليتارية هي ، بدقة ، تعميم الانتاج الاشتراكي والانتقال به الى الانتاج الشيوعي ، وبالتالي ، القضاء على البنية الطبقية نفسها للمجتمع .

اما في البنية الاجتماعية الرأسمالية ، فقطاع الدولة (رأسمالية الدولة) هو الشكل الارقى الذي وصل اليه تطور الملكية الخاصة الرأسمالية ، وليس الشكل النقيض لهذه الملكية ، برغم وجود التناقض ، في اطار علاقات الانتاج الرأسمالية ، بين هذا القطاع من الدولة والاشكال **السابقة** عليه من القطاعات **الرأسمالية** بالذات . وخير مثال على ما نقول هو رأسمالية الدولة الاحتكارية .

لكن الوضع في الانتاج الكولونيالي مختلف ، وان كان الاساس النظري واحدا . فآلية هذا الانتاج ، في تبعيته البنيوية للامبريالية ، تمنعه من الوصول ، في تطوره التاريخي ، الى ما وصل اليه الانتاج الامبريالي . فهو ليس الشكل الارقى الذي وصل اليه التطور الامبريالي للرأسمالية الاحتكارية ، بل هو — ان جاز التعبير — الشكل الذي وصل اليه تطور الانتاج الكولونيالي **في عجزه** عن ان يصير رأسماليا ، وبالتالي احتكاريا امبرياليا ، لانه ، في بنيته ، تبعي . وهذا العجز نفسه هو الذي ولّد الامكان التاريخي في ان تصير البورجوازية الصغيرة طبقة مسيطرة ، أو قل في ان تحتل ، في السلطة السياسية ، موقع الطبقة المسيطرة . لئن كان قطاع الدولة في «مصر الناصرية» القطاع المسيطر في بدايات الستينات ، فان علاقة السيطرة التي كانت تربطه بقطاع غير الدولة (اي ما يسمى بالقطاع الخاص) قد بدأت تنقلب منذ سنة ١٩٦٥ ، اي قبل هزيمة حزيران (راجع ، بهذا الصدد ، دراسات طه شاكر ورفعت السعيد) . ويمكن القول ان القطاع المسيطر الآن في الانتاج الكولونيالي في مصر ليس قطاع الدولة ، بل ان السياسة الاقتصادية الحالية تتجه بوعي طبقي واضح نحو تحرير تطور « القطاع الخاص » من اي قيد اقتصادي او سياسي او ايديولوجي او تشريعي . وهذا لا يستلزم بالضرورة القضاء على قطاع الدولة ، او العودة عن التأميمات السابقة ، بل قد يكون في بقاء هذا القطاع خدمة مباشرة « للقطاع الخاص » . معنى هذا ان القضية الاساسية ليست في وجود قطاع الدولة او في عدم وجوده — برغم اهمية وجوده — ، بل هي في **شكل العلاقة** التي تربطه بالقطاع الآخر وفي صيرورة هذه العلاقة داخل الانتاج الاجتماعي . فالفارق كبير جدا بين ان يكون قطاع الدولة هو المسيطر وبين ان يكون « القطاع الخاص » هو المسيطر . انه الفارق نفسه الذي نجده بين ان تكون البورجوازية الصغيرة او ان تكون البورجوازية الكولونيالية في موقع الطبقة المسيطرة .

يتبين لنا مما سبق ان وجود قطاع الدولة — حتى وان كان مسيطرا في فترة من الفترات — لا يقود بالضرورة الى قطع علاقة التبعية بالامبريالية ، لان هذا القطع يقضي حكما بتحويل بنيـة علاقات الانتاج القائمة ، وبالتالي ، بوجود الطبقة العاملة في السلطة . وبتعبير آخر ، ان تطور قطاع الدولة لا يقود الى ذلك القطع الا في شروط **اقتصادية وسياسية** محددة هي شروط الانتقال الـى نمط الانتاج الاشتراكي . فتحول قطاع الدولة الـى قطاع اشتراكي يمر بالضرورة عبر عملية **سياسية** هي عملية ثورية من الصراع الطبقي ضد الطبقة المسيطرة ، تنتزع فيها الطبقة العاملة السلطة السياسية . بهذا ، يتأمن الشرط الاساسي لان يظل قطاع الدولة مسيطرا ، ولان يسير في افق تعميم الانتاج الاشتراكي وانقراض الانتاج السابق عليه .

والسؤال الذي يطرح هو : لماذا انقلبت في الانتاج الكولونيالي علاقة السيطرة بين قطاع الدولة وقطاع غير الدولة فصار الاول خاضعا للثاني بعد ان كان مسيطرا ، وكيف انعكس هذا الانقلاب في حقل الصراع الطبقي ؟

V

يمكن القول بشكل سريع جدا ان تأميمات سنتي ١٩٦٠ و ١٩٦١ في مصر اوجدت قاعدة اقتصادية (قطاع الدولة) لسيطرة البورجوازية الصغيرة ، او الفئة المتقدمة منها المرتبطة بأجهزة الدولة ، في اطار البنية الكولونيالية نفسها لعلاقات الانتاج القائمة ، ومن غير ان تقضي ، بالطبع ، على قطاع غير الدولة ، او ما يسمى باللغة الايديولوجية لهذه البورجوازية الصغيرة ، « الراسمالية الوطنية » ، او « الراسمالية غير المتغلة » . لئـن كان التعايش بين القطاعين قائما في المرحلة الاولى في ظل سيطرة قطاع الدولة فانه ما لبث ان انعكس تدريجيا منذ سنة ١٩٦٥ فصار قطاع غير الدولة هو المسيطر . ومنطق التطور هذا في علاقة التعايش بين القطاعين طبيعي ، لان بقاء قطاع الدولة مسيطرا يستلزم بالضرورة السير في التطور الاقتصادي في اتجاه القضاء على « القطاع الخاص » تدريجيا ، وبالتالي ، في اتجاه القضاء على البنية الكولونيالية لعلاقات الانتاج وتحويلها ، وهذا بدوره يستلزم تغييرا في علاقة السيطرة الطبقية في صالح الطبقة العاملة ، اي الطبقة التي لا تملك وسائل الانتاج . لكن الاتجاه الفعلي الذي سارت فيه السلطة السياسية هو اتجاه معاكس تماما يكمن في الدعم المتزايد لقطاع غير الدولة وفي انعاشه بشتـى الوسائل السياسية والاقتصادية (بنسبة التمثيل في المؤسسات السياسية ، مثلا ، او التحديد الغامض لمفهوم الفلاح والعامل بشكل يتمكن فيه مالك العشرين فدانا من ان ياتي الى مجلس الشعب ممثلا للفلاحين ، او مدير المصنع ممثلا للعمال ، سياسة التسليف والقروض التي يستفيد منها قطاع غير الدولة اكثر بكثير من قطاع الدولة الخ ...) والحقيقة هي ان الابقاء على قطاع غير الدولة وتوسعه على حساب قطاع الدولة ، يخدم مصالح هذه الفئة العليا بالذات من البورجوازية الصغيرة المرتبطة بأجهزة الدولة . فالفئة المحظوظة هذه لا تستطيع توظيف مـا تكسبه من قطاع الدولة ، بحكم موقعها في السلطة ، من رساميل صغيرة الا في « القطاع الخاص » . فهذا القطاع اذن هو حقل ضروري لنشاطها الاقتصادي الذي يستند اساسا الى وجود قطاع الدولة نفسه . في هذا التناقض — وبه — تطورت علاقة التعايش بين القطاعين ، فكان من منطقها ان تعود السيطرة ثانية لقطاع غير الدولة ، وكان من منطق الصيرورة الطبقية للبورجوازية

الصغيرة المسيطرة ان تدخل في عملية من التفارق الطبقي الداخلي تنفصل فيها الفئة العليا من هذه « الطبقة » عن الفئات الدنيا لتتحول الى فئة اخرى ليست من البورجوازية الصغيرة ، بل من **البورجوازية الكولونيالية المتجددة** . فبتحول تلك الفئة العليا التي هي من البورجوازية الصغيرة في السلطة ، الى **فئة مهيمنة** من البورجوازية الكولونيالية المتجددة ، لم يعد من الممكن القول ان البورجوازية الصغيرة هـذه هي الطبقة المسيطرة في مصر ، فالطبقة المسيطرة الآن هي هذه البورجوازية الكولونيالية المتجددة التي تتكون ، بشكل عام ، مـن البورجوازية الريفية ، كفئـة منها ، ومن بورجوازية « القطاع الخاص » ، كفئة اخرى ، ومن تلك الفئة التي انفصلت مـن البورجوازية الصغيرة والتي ما زالت تهيمن على قطاع الدولة وتحاول ان تظل الفئة المهيمنة من البورجوازية الكولونيالية المتجددة . والتناقض ليس مفقودا بين فئات هذه البورجوازية ، انما هو **تناقض ثانوي** من اجل الوصول الى **الهيمنة الطبقية** داخل الطبقة المسيطرة الواحدة . اما **التناقض الرئيسي** فهو ليس ، بالطبع ، بين البورجوازية الصغيرة التي لم تعد مسيطرة وبين الطبقة العاملة ، بل بين تلك البورجوازية الكولونيالية المتجددة ، على اختلاف فئاتها ، وبين الطبقة العاملة وحلفائها الطبقيين من صغار الفلاحين وفئات البورجوازية الصغيرة المسحوقة .

ان التجربة الناصرية بالذات تبـين استحالة صيرورة البورجوازية الصغيرة طبقة مسيطرة لان صيرورتها الطبقية هذه هي نفسها التي تقودها ، بتلك العملية من تفارقها الطبقي الضروري ، الى الخروج من السلطة والعودة الى موقعها الطبقي الفعلي ، الى جانب الطبقة العاملة ، في طرف واحد من التناقض الرئيسي ضد البورجوازية الكولونيالية المتجددة . فتجدد علاقات الانتاج الكولونيالية ــ بسبب من عدم تحويلها الذي لا تقدر عليه البورجوازية الصغيرة وان وصلت الى السلطة ــ هـو الذي يولّد بالضرورة تجـدد البورجوازية الكولونيالية ، برغم وصول البورجوازية الصغيرة الى السلطة ، وبرغم وجود ، او ايجاد ، قطاع الدولة . ان التجربة الناصرية اذن لا تخرج الا في الظاهر عن منطق الضرورة التاريخية في ان تكون الطبقة المسيطرة في البنية الاجتماعية طبقة مهيمنة ، اي الطبقة التي يرتبط وجودها المسيطر بسيطرة نمط الانتاج المسيطر في هذه البنية الاجتماعية . ونمط الانتاج هذا في مصر والبلدان العربية هو نمط الانتاج الكولونيالي ، فلا بد من ان تكون الطبقة المسيطرة فيه هي البورجوازية الكولونيالية . ووصول البورجوازية الصغيرة الى السلطة ــ في شروط تاريخية محددة يمكن تحليلها ــ لا ينفي الضرورة هذه ، بل يؤكدها في عملية تحول تلك الفئة التي كانت تتمثل فيها جماهير البورجوازية الصغيرة في السلطة الى فئة من البورجوازية الكولونيالية المتجددة . وعملية التحول الطبقي هذه التي هـي ضرورة في منطق تجدد علاقات الانتاج الكولونيالية ، هي التي تفسر لنا الخط السياسي الجديد الذي يسير فيه السادات (ممثل البورجوازية الكولونيالية المتجددة) ، ليس بعد حرب تشرين وحسب ، بل منذ وفاة عبد الناصر . والخط السياسي هذا واضح في انفتاحه على الغرب الامبريالي (اي في قبوله بالتبعية البنيوية للامبريالية) ، وواضح هو ايضا في المأزق الطبقي الذي هو فيه . فالتحرر مـن الامبريالية يقضي بتحويل علاقات الانتـاج الكولونيالية المتجددة ، والبورجوازية الكولونيالية المتجددة لا تقدر ، بالطبع ، على القضاء على

علاقات من الانتاج تضعها في موقع الطبقة المسيطرة ، ولا تقدر ، في الوقت نفسه ، على التخلي ، بشكل صريح ، عن مهمة التحرر الوطني . بل هي في موقع تاريخي موضوعي يضعها في تناقض مع الامبريالية لا تريده . ولا سبيل لها الى الخروج من مأزقها الطبقي هذا الا بانتهاج خط سياسي هي في عجز موضوعي عن انتهاجه لكن هذا لا يعني بالضرورة انها دخلت «مرحلة النهاية» ، او ان سقوطها الطبقي بات وشيكا . لم يعرف التاريخ ، ولن يعرف طبقة مسيطرة تسقط بذاتها ، تلقائيا ودون صراع طبقي . « فالنهاية » هذه هي في الحقيقة « انهاء » يولّده صراع طبقي عنيف يخضع لآلية معقدة هي موضوع **لعلم الثورة** ، اي **لعلم التاريخ** . ما دامت قوى التحالف الطبقي الثوري ليست في وضع يمكنها من اسقاط حكم البورجوازية الكولونيالية ، فان المأزق الطبقي لهذه الطبقة المسيطرة قادر على ان يستمر فيصير **مزمنا** ، او ان يتخذ اشكالا مختلفة قد تخفيه او تخفف من حدته . معنى هذا ان الانتقال من مرحلة الى مرحلة في تطور البنية الاجتماعية مرتبط بتطور حركة الصراعات الطبقية في هذه البنية . ويمكن القول ، بشكل ملموس ، ان البنية الاجتماعية في مصر ، مثلا ، مع تحول تلك الفئة العليا من البورجوازية الصغيرة المسيطرة الى فئة مهيمنة من البورجوازية الكولونيالية المتجددة ، قد انتقلت بالفعل من مرحلة الى اخرى : من مرحلة سيطرة البورجوازية الصغيرة الى مرحلة سيطرة البورجوازية الكولونيالية المتجددة . ومع هذا الانتقال المرحلي في تطور الانتاج الكولونيالي تتغير مهمات الحركة الثورية وتزداد وضوحا : فالعدو الطبقي هو هذه الطبقة المسيطرة بالذات ، وليس البورجوازية الصغيرة . اما التحالف الطبقي الثوري فلا بد من ان يضم ، الى جانب الطبقة العاملة ، مختلف الفئات الاجتماعية الواقعة تحت سيطرة البورجوازية الكولونيالية المتجددة ، من صغار الفلاحين وفئات البورجوازية الصغيرة والمثقفين الخ ... حين نقول ان مهمات الحركة الثورية قد ازدادت وضوحا في مرحلتها الراهنة ، نقصد بالتحديد ان الطبقة المسيطرة في مصر بشكل خاص لم تعد البورجوازية الصغيرة ، ونقصد ايضا ان التجربة التاريخية نفسها قد بينت عجز البورجوازية الصغيرة هذه عن ان تكون في قيادة حركة التحرر الوطني ، برغم وصولها الى السلطة ؛ او قل بشكل ادق ، ان التجربة التاريخية قد بينت ان تحقق الثورة التحررية الوطنية لا يتم بقيادة البورجوازية الصغيرة هذه ، بل يستلزم بالضرورة وصول الطبقة العاملة الى موقع القيادة من هذه الحركة ، اي الى موقع **الهيمنة الطبقية** داخل التحالف الثوري . ولهذه القضية اهمية بالغة بالنسبة لحركة التحرر الوطني ، فتحقق هذه الحركة ، من حيث هي عملية تحويل ثوري لبنية علاقات الانتاج الكولونيالية ، مشروط بقدرة الطبقة العاملة على وصولها الى موقع القيادة ، وبالتالي ، بقدرتها على اقامة ذلك التحالف مع الفلاحين ومع اوسع فئات البورجوازية الصغيرة . لكن من العوامل الرئيسية التي تعيق اقامة هذا التحالف هو ان فئات من هذه البورجوازية ما زالت مخدوعة بعلاقة وهمية (ايديولوجية) من التمثيل الطبقي تربطها بسلطة البورجوازية الكولونيالية المتجددة ، تتوهم فيها ان السلطة هذه ما زالت تمثل سلطتها الطبقية ، وانها بالفعل ما زالت سلطة وطنية . والطبقة المسيطرة تسعى دائما في ممارستها الايديولوجية الى اظهار نفسها بمظهر وطني ، كأنها في السلطة ما زالت تمثل مصالح البورجوازية الصغيرة ، وكأنها الامتداد الطبيعي والوريث الشرعي « للناصرية » . وهي ، في هذه الممارسة ، تسعى الى الابقاء على فئات البورجوازية الصغيرة خاضعة لسيطرتها الطبقية . وهنا يبرز دور الطبقة

العاملة وحزبها الشيوعي في مساعدة هذه الفئات الوسطية المسحوقة على التحرر من وهمها الطبقي بأن من في السلطة يمثلها ، او بأن عليها ان تخوض صراعها الطبقي بشكل مستقل عن الطبقة العاملة ، او بشكل تكون هي فيه في موقع القيادة . فالفئات هذه ليست قادرة على التحرر وحدها ، (لأنها ، بالضبط ، ليست طبقة مهيمنة) ، بل بمساعدة الطبقة العاملة ، وبقيادة هذه الطبقة . وهذا يطرح على الفكر الثوري قضية التحالفات الطبقية .

كل حركة ثورية تهدف الى تغيير علاقات الانتاج تضم طبقات وفئات اجتماعية متعددة يجمعها وجودها الموضوعي (موقعها في علاقات الانتاج) في طرف واحد من التناقض الرئيسي الذي تشكل الطبقة المسيطرة ، او التحالف الطبقي المسيطر ، الطرف الآخر منه . ولا بد من ان تعود الهيمنة الطبقية في كل من الطرفين الى الطبقة او الفئة المهيمنة فيه . ولقد بيّنت لنا الصيرورة الطبقية للبورجوازية الصغيرة المسيطرة الضرورة التاريخية والنظرية لتحقق هذا المبدأ الاساسي . وما يصح على التحالف الطبقي المسيطر يصح ايضا على التحالف الطبقي الثوري ، فالهيمنة الطبقية في الحركة الثورية في بلادنا — والتي هي حركة تحرر وطني — لا بد من ان تعود للطبقة المهيمنة النقيض ، وبالتالي للطبقة العاملة ، حتى لا تصل الحركة هذه الى المأزق الطبقي الذي اوصلتها اليه قيادتها البورجوازية او البورجوازية الصغيرة . ووصول الطبقة العاملة الى موقع القيادة من حركة التحرر لا يتم ، في ضرورته التاريخية نفسها ، الا بصراع طبقي ، ليس ضد الطبقة المسيطرة وحسب — وهو الصراع الرئيسي — ، بل داخل عناصر التحالف الطبقي الثوري ايضا — وهذا هو الصراع الثانوي . وممارسة الصراع الاول غير ممارسة الصراع الثاني ، اي ان معالجة التناقض الرئيسي تختلف ، في الممارسة الثورية ، عن معالجة التناقضات الثانوية . فالتناقض بين الطبقة العاملة والبورجوازية الكولونيالية ، التقليدية منها او المتجددة ، غير التناقض ، مثلا ، بينها وبين البورجوازية الصغيرة ، سواء اكانت في السلطة ام خارجها . لئن كان الاول عدائيا ، فالثاني ليس بعدائي ، وهو لا يصير عدائيا — اذا كانت البورجوازية الصغيرة في موقع الطبقة المسيطرة — الا مع اكتمال تكوّن البورجوازية الكولونيالية المتجددة .

VI

في هذا الضوء ، يمكن تحديد الموقف مما يسمى « بالانظمة التقدمية » ، وبشكل خاص من البورجوازية الصغيرة التي تحتل فيها موقع الطبقة المسيطرة ، او التي لم يكتمل بعد فيها تكوّن البورجوازية المتجددة ، اي التي لم تنتقل بعد الى المرحلة التي وصلت اليها مصر في تطور انتاجها الكولونيالي ، كسوريا او العراق او الجزائر . ولا يعني القول هذا منا انها ستنتقل بالضرورة الى هــذه المرحلة ، فالانتقال هذا او عدمه رهن بتطور حركة الصراعات الطبقية فيها ، وبالوضع السياسي للطبقة العاملة وحزبها الشيوعي بشكل خاص . وليس غريبا ان يختلف وضع الاحزاب الشيوعية هنا عنه في مصر مثلا ، وان تختلف علاقة السلطة بهذه الاحزاب عنها في مصر ، فأحد الاسباب الرئيسية لهذا الاختلاف هو تفاوت التطور في عملية تكوّن البورجوازية الكولونيالية المتجددة في هذه البلدان ، وبالتالي ، تفاوت التطور في الصيرورة الطبقية للبورجوازية الصغيرة المسيطرة . ومهما يكن من امر ، فان المشاركة

الوهمية الشكلية او الفعلية للاحزاب الشيوعية في السلطة في هذه البلدان تدل على ان عملية التحرر الوطني لا يمكن ان تتحقق بمعزل عن الاحزاب الشيوعية او بعداء لها ، وان الممارسات الثورية الفعلية لهذه الاحزاب هي التي فرضت مشاركتها — بأشكال مختلفة متفاوتة — في السلطة ، بل ان هذا الشكل من المشاركة هو دون الوزن السياسي الفعلي لهذه الاحزاب . والمشاركة هذه تدل ايضا على ضعف المواقع الفعلية للبورجوازية الصغيرة المسيطرة في الحركة الجماهيرية الثورية ، وعلى ان هذه الحركة ، من حيث هي حركة تحرر وطني ، باتت تستلزم ، في مرحلتها التاريخية الراهنة ، قيادة طبقية اكثر جذرية ، اي قيادة بروليتارية . فالطبقة العاملة هي وحدها البديل الثوري لقيادات طبقية اوصلت حركة التحرر الوطني الى مأزقها . والقول بضرورة القيادة البروليتارية لهذه الحركة لا ينفي ، بل بالعكس يؤكد ويستلزم اقامة تحالف ثوري مع اوسع الفئات الجماهيرية التي لها مصلحة مباشرة في تغيير علاقات الانتاج الكولونيالية القائمة . وهذا ما يعبر عنه الشيوعيون بقولهم ان التداخل قائم بشكل متزايد بين مهمات التحرر الوطني ومهمات التحويل الاجتماعي ، بمعنى ان عملية التحرر الوطني لم تعد تنفصل عن عملية التحويل الثوري الاجتماعي لعلاقات الانتاج ، فالعمليتان عملية واحدة . ولأنهما عملية واحدة ، وجب القول ان القيادة البروليتارية لهذه العملية شرط تاريخي ضروري لتحققها . والقيادة هذه لا تعني الانفراد ، بل التحالف الطبقي الواسع بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، وبشكل خاص فئات البورجوازية الصغيرة ، وهي وحدها القادرة على تأمين هذا التحالف الطبقي الواسع ، لان لها الوعي النظري — اي الاستراتيجي — الضروري لذلك . كما ان القول بضرورة القيادة البروليتارية لحركة التحرر الوطني لا يعني ان الانتقال الى الاشتراكية هو المهمة المباشرة للمرحلة الراهنة ، بل هو يعني ان وجود البروليتاريا في موقع القيادة من هذه الحركة هو شرط اساسي للتحقق الفعلي لعملية التحرر التي ، كأي عملية ثورية من التحويل الاجتماعي ، تمر بالضرورة بمراحل مختلفة ، ليست مرحلة الانتقال فيها الى الاشتراكية سوى مرحلة نهائية هي بداية من عملية ثورية اخرى . وبعبارة مقتضبة ، ان تلك القيادة البروليتارية هي الضمان الاول الذي من دونه يصعب على عملية التحرر الوطني ان تكون في تحققها الفعلي كما هي في واقعها النظري ، عملية تحويل اجتماعي لبنية علاقات الانتاج الكولونيالية . ففي افق هذه الضرورة التاريخية والنظرية من وصول الطبقة العاملة الى موقع القيادة الطبقية من هذه العملية الثورية ، يجب النظر الى تلك المشاركة للاحزاب الشيوعية في السلطة البورجوازية الصغيرة .

VII

حين يتضح لنا ان قيادة الحركة الثورية هي بالضرورة **قيادة طبقية** ، وان القيادة هذه لا بد من ان تكون للطبقة المهيمنة النقيض ، وانها تستلزم ، حكما ، اقامة تحالف طبقي واسع بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة التي لها مصلحة طبقية موضوعية في عملية التغيير الثوري ، يتضح لنا حينئذ دور البورجوازية الصغيرة في هذه العملية ، ودور الحركة الطلابية ايضا فيها . ليست القضية اذن في ضرورة اسهام الطلاب او عدم اسهامهم في العملية الثورية التحررية ، وليست القضية في ضرورة اسهام البورجوازية الصغيرة — او غيرها من الفئات الاجتماعية المسحوقة — او عدم اسهامها في العملية نفسها . القضية الاساسية هي في موقع هذه الفئة او تلك داخل

التحالف الطبقي الثوري . بل يمكن ايجازها ببساطة في القول التالي : ان موقع الهيمنة الطبقية في هـذا التحالف يجب ان يكون بالضرورة للطبقة المهيمنة النقيض ، وبالتالي للطبقة العاملة ، حتـى تسير العملية الثورية التحررية في منطق تحققها الضروري . اما المقولة الايديولوجية التي تعطي الموقع ذاك تارة للبورجوازية الصغيرة ، او للجيش ، وتارة للطلاب ، فهي مقولة بورجوازية تطمس منطق الضرورة في ان تحتل الطبقة العاملة موقعها التاريخي ، وبالتالي في ان تقوم بدورها الطبقي في قيادة عملية التحرر الوطني . لا شك في ان الطبقة العاملة لم تتمكن بعد — لاسباب تاريخية عديدة — من احتلال موقعها هذا . لكن الضرورة التاريخية ليست من الواقع التجريبي ظاهره الحدثي ، بل منطقه الداخلي الذي لا يتحقق ، في صيرورته ، الا بالممارسة الثورية للصراع الطبقي ، اي بممارسة البروليتاريا التي هـي ممارسة الحزب الشيوعي نفسه . ومن المهمات الرئيسية التي يطرحها الحزب في هدف اقامة ذلك التحالف الطبقي الثوري ، تنظيم ما يسمى بالجماهير « الناصرية » ، اي تلك الفئات الواسعة من البورجوازية الصغيرة التي هي ، بشكل عام ، معادية للامبريالية . فالموقع الطبيعي لهذه الجماهير هو ان تكون الى جانب الطبقة العاملة في طرف واحد مـن التناقض العدائي ضد البورجوازية الكولونيالية ، التقليدية او المتجددة . لقد استطاعت « الناصرية » ان تجعل من شعار العداء للامبريالية شعارا جماهيريا يعبىء الملايين من شعوبنا ؛ ولا بد الآن من تأكيد الطابع الطبقي لهذا الشعار الوطني في وعي الجماهير ، باظهار الرابط الاساسي بين العداء للامبريالية والعداء للبورجوازية الكولونيالية ، اي بين الصراع الطبقي من اجل التحويل الاجتماعي الاشتراكي والصراع الوطني من اجل التحرر ، فالصراع هذا هـو الشكل التاريخي المحدد الذي يتحرك فيه الصراع ذاك ، بمعنى ان الصراع الوطني في البنية الاجتماعية الكولونيالية له بالضرورة طابع طبقي من حيث هو صراع ضد البورجوازية الكولونيالية المسيطرة ، وأن الصراع الطبقي في هذه البنية ضد هذه الطبقة المسيطرة هو بالضرورة صراع وطني . هنا يكمن دور الحزب في اظهار علاقة التلاحم هذه بين الصراعين ، او بين هذين الشكلين من صراع واحد . فبايديولوجية البروليتاريا تتحرر البورجوازية الصغيرة من اسر ايديولوجيتها ومن وهمها الطبقي في ان تكون الطبقة المسيطرة ، اي من هذا الوهم بالذات الذي يقودها الى البقاء في خضوعها لسيطرة البورجوازية الكولونيالية المتجددة . معنى هذا ان البورجوازية الصغيرة ليست قادرة على التحرر بايديولوجيتها لانها ليست طبقة مهيمنة ، فتحررها الطبقي لا يتم الا بتحالفها مع الطبقة العاملة ، وبقيادة الطبقة العاملة . هذا هو المعنى الفعلي لضرورة وجود الطبقة هذه ، بحزبها الشيوعي ، في موقع الهيمنة الطبقية ، فوجودها في هذا الموقع هو الذي يؤمن للتحالف الثوري شرط استمراره وفاعليته الثورية ويجعل منه تحالفا استراتيجيا ، تاريخيا .

مهدي عامل

محمود امين العالم

من المحدودية الى اللامحدودية

١ ـــ اولا لا توجد ـــ في نظري ـــ ناصرية بالمعنـى الفلسفي او الاقتصادي او الاجتماعي ... وانما توجد مرحلة في تاريخ مصر والحركة العربيـــة ، كانت تسود فيهـا سياسة او اتجاهات سياسية واقتصادية واجتماعية معينة ، كان لعبد الناصر شخصيا ، ولنظامه دور القيادة والتوجيه. على ان هذه المرحلة لم تكن متجانسة تماما ؛ كانت تسودها كذلك منعطفات وتعرجات وتسطحات وتناقضات احيانا . على ان السمة العامة لهذه المرحلة هي سمة العداء للاستعمار والامبريالية والصهيونية ، والتلاقي النضالي مع القوى الوطنية والديمقراطية والاشتراكية ، والدعوة النظرية والعملية الى الوحدة القومية العربية (مهما كانت نظرية هذه الدعوة ومنهجها) ، وربط النضال الوطني ، بالتغيير الاجتماعي ، وتوجيه الاقتصاد الوطني توجيها تخطيطيا (بصورة عامة) عن طريق تأميم المرافق الاساسية للانتاج ومشاركة الجماهير مشاركة نسبية في تنفيذ هذا التوجيه او التخطيط والارتفاع بالمستوى التعليمي او الثقافي بشكل عام . لم تكن هذه السمة او السمات العامة تتمثل نظرية سياسية أو اجتماعية متجانسة باستمرار ، ولم تبدأ بها الثورة منذ قيامها عام ١٩٥٢ حتى نهاية هذه المرحلة عام ١٩٧٠ ، بـل كما ذكرت تحققت عبر سلسلة من التعرجات والتناقضات احيانا ، وعبر مراحل من التجربة والخطأ ، والتجانس احيانا بين الفكرة وتطبيقها ... على ان هذا لا يعني ان التجربة كانت ـــ كما يقال ـــ برجماتية خالصة ، لا ... بل كانت تتحرك في اطار عام لمبادىء وطنية واجتماعية .

هذه المرحلة او التجربة لا يمكن ان يقال انها قد انتهت . لعلها مستمرة بشكل او بآخر في اكثر من قطر عربي . في سوريا مثلا ، تواصل هذه التجربة طريقها مستفيدة ، او متخطية بعض نواقص واخطاء التجربة . في العراق تواصل هذه التجربة طريقها على مستوى لعله ان يكون اكثر جذرية او راديكالية . وكذلك الامر في اليمن الجنوبية ، وفي الجزائر ، وخاصة في تجربتها الاقتصادية . ان التجارب الثورية في هذه البلاد العربية متنوعة ، من ناحية ، ومختلفة من ناحية اخرى عـــن التجربة ايام عبد الناصر في بعض النقاط المنهجية ، ولكنها بشكل عام تسير على الخطوط الرئيسية لتجربة ناصر ، او

بتعبير ادق ، انها ظواهر متنوعة لثورات البلاد النامية عامة ، والبلاد النامية العربية بشكل خاص .

اما في مصر ، فأعتقد ان هناك محاولات عديدة للانتكاس بالتجربة الناصرية ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وبرغم نجاح هذه المحاولات في بعض المجالات والمواقف ، الا انها محاولات مقضي عليها بالفشل ، لأنها عاجزة بتنكبها الطريق الذي سار عليه عبد الناصر ، عن حل المشكلات الاساسية في المجتمع العربي وخاصة المشكلة الوطنية والمشكلة الاقتصادية ــ الاجتماعية . انها تواجه طريقا مسدودا .

ان محاولة الارتداد الى نظام السوق الحرة ، والانفتاح على الرأسمال الاستعماري وخاصة الامريكي ، وتنمية القطاع الخاص ، واضعاف القطاع العام من داخله ومن خارجه مع الاحتفاظ به كواجهة شكلية او كمصدر لتمويل القطاع الخاص ، لن تؤدي الا الى مزيد من التضخم ، ومزيد من العجز عن مواصلة التنمية ولن تستطيع ان تتخطى التخلف ، بل ستكرسه وتضاعفه ، بل ستعيد مصر الى مرحلة التبعية ، وفقدان الاستقلال السياسي والاقتصادي معا . انه طريق مسدود امام البلاد النامية ، وخاصة بلد مثل مصر لها تجربتها الثورية ــ برغم حدود ونواقص هذه التجربة . لن تستطيع مصر بهذه السياسة ان تحقق تنمية رأسمالية ولن تستطيع بالطبع ان تحقق تنمية اشتراكية .

انه طريق مسدود امام التنمية ، ولهذا فهو طريق التبعية للرأسمالية العالمية . ولهذا اعتقد انه لن يتحقق له النجاح ، لان هذه التبعية ، وان تكن امكانية قائمة ، الا ان الملابسات الوطنية والقومية والتاريخية للعالم العربي عامة ولمصر خاصة ، ستفشلها وتكشف اقنعتها ، ذاتيا وموضوعيا : ذاتيا بلوعي الذي توفر لدى الجماهير العربية عامة والمصرية خاصة خلال السنوات الماضية ، وموضوعيا بعجز هذه السياسة عن حل المشكلتين الرئيسيتين وهما المشكلة الوطنية والمشكلة الاقتصادية ــ الاجتماعية . على ان افشال هذه التجربة لا يتم تلقائيا وانما يتم بمزيد من الوعي الجماهيري الذاتي ، وبالنضال الجماهيري المنظم .

واذا كانت مرحلة عبد الناصر تتمثل في صورة البورجوازية الصغيرة الوطنية والثورية ، فان المرحلة الجديدة ، يغلب عليها فئات متوسطة وعليا من ملاك الاراضي الزراعيين ، فضلا عن فئات من البورجوازية الكبيرة والكومبرادور . على ان هذه الفئات وان تكن تستشري هذه الايام ، الا انها كما ذكرت لن تستطيع بكل ايديولوجيتها التضليلية ان تخدع الجماهير طويلا ، وان تقدم حلولا موضوعية لمشكلاتها الاساسية . انها فئات ركيكة سياسيا ونظريا ، سوف تتعرض مصر بسببها للعديد من الازمات والانتكاسات السياسية والاقتصادية والثقافية ، ولكنها ازمات وانتكاسات مؤقتة سرعان ما يعبرها الشعب المصري بنضاله الواعي المنظم ، ولكن الى اين ؟ الى مواصلة طريق عبد الناصر ، طريق الثورة الوطنية الديمقراطية على مستوى اكثر ديمقراطية واكثر وعيا ، واكثر حزما واكثر انفتاحا على الجماهير ، واكثر مشاركة لها في التوجيه السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

٢ ــ المقاومة الفلسطينية منذ عام ٦٦ ، ٦٧ تعتبر بحق عنصر استقطاب

لحركة النضال الوطني الديمقراطي العربي عامة . ولعل ابرز اضافتها هو النضال الجماهيري المسلح ، و ابرازها عاليا بوجه خاص ، حقيقة القضية الفلسطينية ، وفضحها للحقيقة الامبريالية الصهيونية لاسرائيل .

واعتقد ان المقاومة الفلسطينية تواجه ازمة ، بعد محاولة تصفية المرحلة الناصرية ، وبعد حرب تشرين . طبعا ، محاولة تصفية المرحلة الناصرية كانت تتضمن تصفية قضية فلسطين بل قضية النضال العربي عامة ، ضد الامبريالية والصهيونية . على اني اعتقد انها مرحلة تحتم على المقاومة الفلسطينية مواجهتها عمليا بتكتيكات مختلفة . وفي تقديري ان المقاومة — بشكل عام ، قد نجحت في هذا ، سياسيا على الاقل ، بل لعلها خرجت من مأزق التصفية والاحتواء ، الى مستوى الفاعلية والتأثير حتى في الانظمة العربية الرجعية . ان موقف المقاومة هذه الايام لا يجعلها تابعة للمحاولات الرامية الى تصفية القضية بل تجعلها في موقف القوة الضاغطة عليها . ان الدور السياسي للمقاومة هذه الايام دور بالغ الاهمية . برغم ان هذا الدور تفرضه ظروف موضوعية ، الا اننا نستطيع بفهم هذه الظروف الا نكون اسرى لها ، بل نكون قوة ضغط عليها وفيها . لقد غيرت المقاومة من موقف مصر الذي كان تراخيا في حقها في تمثيل كل الشعب الفلسطيني ، ولقد غيرت المقاومة موقف كثير من الدول العربية في مؤتمر الرباط . ولا شك ان نجاحها في هيئة الامم المتحدة ، يعطيها مزيدا من القوة والتأثير والفاعلية في الاحداث والمواقف العربية . ولا شك ان قوة المقاومة لا تنبع فحسب من مواقفها الذاتية بل من مواقف بعض الاطراف العربية المتقدمة ، فضلا عن المساندة السوفياتية والاشتراكية والافريقية . ان المقاومة اليوم من اكثر فصائل الثورة العربية تقدما في النضال ضد الامبريالية والصهيونية ، حتى وان غلب على موقفها هذه الايام طابع العمل السياسي . لكن العمل السياسي في مرحلة من المراحل قد يكون اكثر فاعلية من العمل العسكري ، وقد يكون ممهدا لعمل عسكري اعمق تأثيرا ، وخاصة لو تحقق على ارضية حركة جماهيرية واعية ، وتفهم ومساندة عالميـة . ان التحركات الجماهيرية الفلسطينية في فلسطين المحتلة هي بعض ثمرات هذه الفاعلية السياسية . وان بعض المواقف الايجابية في بعض البلاد العربية — ايا كانت طبيعتها السياسية او الاجتماعية — هي بعض ثمرات هذه الفاعلية السياسية . ولكن المقاومة ينبغي في الوقت نفسه ان تحتفظ بكـل طاقاتها النضالية العسكرية ، ويقظتها ومبادرتها السياسية . ان الايام المقبلة زاخرة بالاحداث . ولا شك ان وحدة فصائل المقاومة — في اطار برنامج للحد الادنى — سوف تضاعف من فاعليتها السياسية الحالية ، لا في اطار قضية فلسطين فحسب بل في اطار القضية العربية عامة ، ثم من فاعليتها العسكرية عامة بعد ذلك .

اعتقد ان الانظمة وان تكن قد امسكت بزمام المبادرة بعد حرب تشرين ، فانها لم تعد تملك هذا الزمام الآن . لقد انقشعت كثير من المبالغات بعـد اصطدامها بواقع الموقف الاسرائيلي والامريكي . المبادرة الآن سياسيا في يد المقاومة الفلسطينية رغم دقة موقفها العملي والموضوعي ، وهي بهذه المبادرة تستطيع ان تؤثر كما ذكرت في مختلف المواقف العربية . ان المعركة مـع الامبريالية الامريكية والصهيونية تدخل في احتدام اشد واعنف .

وعلى كل القوى الوطنية والديمقراطية والثورية ان تعي هذا بعمق ،

وان تعد عدتها لها . وليس هناك في مثل هذه المعركة — التي تدخل في احتدام اكيد — ضمان للانتصار فيها اشد من تنسيق هذه القوى لمخططاتها ، ووحدة نضالها المشترك .

٣ — هي اضافات جديدة بغير شك الى خريطة النضال العربي ، ولكنها لم تشكل للاسف في مجملها استمرارا ثوريا مترابطا مع بقية النضالات العربية . ثورة ظفار تشكل ببطولة رائعة هذا الاستمرار ، ولكن الانظمة الرجعية العربية تحاول خنقها ، متحالفة بهذا — عمليا او موضوعيا ، مع التدخل العدواني الايراني ، الذي تشترك معه او تتستر عليه . ان ثورة ظفار ، لم تصبح بعد حركة عربية شاملة تتحرك بها ولها الثورة الوطنية الديمقراطية العربية عامة كالمقاومة الفلسطينية . ومن واجب الثوار العرب ان يسعوا الى الارتفاع بهذه الثورة الظفارية الى مستوى الثورة الفلسطينية . وبهذا لا يتحقق لها الاستمرار فحسب بل الترابط الثوري مع مجمل الثورة العربية . حقا ، ان العراق واليمن الجنوبية — خاصة — تساندان بحزم هذه الثورة ، فضلا عن القوى الثورية العالمية ، بل لقد وجدت في اوروبا ، بين اليسار عامة ، وعيا بثورة ظفار ، اكثر مما اجد في معظم البلاد العربية . عندما ترتبط ، وينبغي ان ترتبط عمليا ، هذه الثورة البطولية بمجمل الحركة الوطنية الديمقراطية العربية ، عمليا وموضوعيا ودعائيا ، سوف يكون لها ما للثورة الفلسطينية من تأثير على مجمل هذه الثورة كذلك .

امـا الحركة الطلابية في مصر وتونس ولبنان ، فهي نبضات صحية مؤثرة ، ولكنها تفتقد الاستمرارية والترابط العضوي . وهي حركات لـن تتوقف ، مهما خفتت احيانا . الحركة الطلابية العربية من طلائع قوى الثورة العربية ، ومع احتدام هذه الثورة ، ستتجدد وتتعمق وتترابط هذه الحركة الطلابية مع الحركة العامة .

٤ —

ا — ليس هناك صيغة واحدة لكل الانظمة ، وانما تتنوع من حيث مستوى تقدميتها وتختلف من حيث مناهجها واسلوبها . لعل اكثرها جذرية من الناحية الفكرية والسياسية والاقتصادية هي العراق واليمن الجنوبية والجزائر ثم سوريا . وان شاب الجانب السياسي في بعضها جمود من ناحية او ميوعة من ناحية اخرى . ولعل هذا يرجع الى سيادة مفاهيم وعقلية البورجوازية الصغيرة في بعض سياسات هذه النظم ، رغم تبنيها للفكر العلمي ، على انها بغير شك نظم تقدمية معادية للامبريالية والصهيونية ، سائرة في طريق التقدم الاجتماعي والتحول الاشتراكي .

الجيش يلعب ، ولا يمكن الا ان يلعب دورا كبيرا في كل الحركات الثورية في البلاد النامية ، لاسباب عديدة لا محل لتحليلها هنا . على ان القضية الاساسية هي كيف يصبح الجيش قوة في يد الحركة الشعبية ولا تصبح الحركة الشعبية مجرد اداة في يد بعض قادة الجيوش . وهي قضية تحسمها التجارب الثورية رغم مرارتها وقسوتها .

ولقد كانت هذه الانظمة ذات مواقف ايجابية في حرب تشرين ، وان اختلفت هذه المواقف باختلاف سياساتها وتقديرها النظري والعملي لمواقف الاطراف الاخرى في الصراع المباشر . والحديث عن مواقفها سيكون مجتزأ

وناقصا بل مخطئا بالضرورة اذا لم يتم في اطار التقسيم العام لهذه الحرب ولدور الأطراف الاخرى . وهذا يحتاج الى بحث كامل . ولهذا اتمنى ان نتجنب هذا التقييم المجتزأ الذي سيكون بالضرورة ناقصا بل غير منصف بالضرورة ، ان لم يكن مخطئا ومضرا .

ب — انها بغير شك ظاهرة ديمقراطية صحية . لقد انتهت المرحلة المؤسفة التي كانت تعتبر الاحزاب الشيوعية خارج الحركة الوطنية العربية . ولا شك ان هذه المشاركة هي تعبير لا عن احتدام الصراع الوطني فحسب بل الوطني والاجتماعي كذلك . وقد يكون من الصعب تقييم هذه المشاركة تفصيليا . ذلك لانها تختلف من نظام الى نظام ، ولانها ما تزال في بدايتها . الا ان هذه المشاركة سوف تعمق الديمقراطية ، والتحول الاجتماعي ، وترسخ النضال ضد الامبريالية والصهيونية ، وتدعم الفكر العلمي نظريا وتطبيقيا . ان هذه التجربة تحتاج الى مزيد من التفاعل الخلاق ، مزيد من التخلص من مشاحنات الماضي وجراحه . ان التحالف مع هذه الاحزاب ، لا ينبغي ان يكون معنى من معاني محاولة احتوائها . ان التحالف لا يلغي الصراع ، وهو صراع ينبغي ان يجري على ارض المباراة في خدمة الجماهير ، وتحقيق اهدافها ، وتنمية المجتمع سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وتوجيه كل القوى الوطنية الديمقراطية في المعركة ضد الصهيونية والامبريالية والتخلف .

٥ —

أ — ماذا تعني هذه الكلمة المجردة « الانظمة » ؟ اذا كان المقصود بها الانظمة التي تقوم على الحكم الفردي الاستبدادي ذي المضمون الاجتماعي الكومبرادوري او البورجوازي المتخلف ، او العشائري ، فلا شك ان هذه الحرب تعني ان هذه الانظمة دخلت مرحلة النهاية . لقد اثبتت عجزها عن المواصلة الحاسمة ، وربط هذه الحرب بحركة جماهير ديمقراطية منظمة ، بل لقد اثبتت انها تحاول ان تتخذ من هذه الحرب وسيلة ديماغوجية للانتكاس بالحركة الوطنية الديمقراطية العربية . لقد كانت الحرب في ذاتها ملحمة بطولية رائعة ، اثبتت قدرة الجندي العربي على استيعاب الاسلحة الحديثة ، وعلى التخطيط العلمي ، وعلى القتال الجسور .

ولقد افضت الحرب — رغم محدوديتها — الى نتائج ايجابية سواء داخل اسرائيل او في العالم ، والمؤسف هو هذه المحدودية التي ارادتها بعض الانظمة ، ارادتها لا محدودية زمنية او قتالية فحسب ، ولكن محدودية نتائج كذلك . اذ ان المحدودية الزمنية والقتالية كان من الممكن ان نحصل منها على نتائج افضل . ان نتائج هذه الحرب المحدودة ، نتائج غير محدودة في الحقيقة . ولكن بعض هذه النظم اراد ان يحيل لا محدودية هذه النتائج ، الى محدودية ، بل الى انتكاس يائس ، وردة خائبة . ان هذه الحرب المحدودة ، كان من الممكن ان تصبح قوة ضغط اكبر ضد اسرائيل وامريكا ، نقطة انطلاق حقيقية لتأثيرات اقتصادية واجتماعية تقدمية . ولكن ... ما الذي حدث ... محاولة ان يصبح الانتصار السياسي المحدود هزيمة سياسية واقتصادية واجتماعية للثورة العربية ! لقد اثبتت هذه الحرب المنتصرة ، هزيمة هذه الانظمة وركاكتها وعجزها العملي والموضوعي عن التصدي بحسم للحركة الوطنية ، او للتقدم الاجتماعي . هزيمة ٦٧ فجرت مزيدا من العداء ضد الصهيونية والامبريالية ، على حين ان انتصار تشرين ٧٣ كان محاولة حاولها البعض ليجعل منها مظلة لعبور النفوذ والسيطرة الامريكية ، وتصفية

الثورة العربية . ليس هناك من دليل اكبر على ان مثل هذه الانظمة غير مؤهلة لقيادة الثورة العربية ، رغم ما اكتسبته وما تزال من مكانة وشعبية . على انه سرعان ما تنكشف الحقائق — كما ذكرت — على ارض القضية الوطنية التي لم تحل المشكلة الاقتصادية والاجتماعية التي تزداد تفاقما . وهنا اهمية التوعية الثورية والنضال الموضوعي ذي النفس الطويل .

ب — لا اعرف ان هذه هي التفسيرات التي قدمت للحرب ، على انها في الحق تفسيرات صحيحة ولكنها ناقصة . لقد كشفت المعركة اهمية التقنية ، اهمية السيطرة على المواد الاولية ، ضرورة التصنيع ، اهمية الاتحاد العربي ، اهمية الدور العربي العالمي . هذه معطيات صحيحة ، ولكنها كما ذكرت ناقصة . هناك معطيات اخرى ، مثل دور الجندي العربي ، حصيلة السنوات الست السابقة ، دور القطاع العام المصري ، دور التسليح السوفياتي والمساندة السياسية السوفياتية ، دور حرب الاستنزاف ايام ناصر ، دور شبكة الصواريخ على ضفة القتال ، دور التخطيط العلمي . هذه معطيات اخرى بالغة الاهمية . وهناك معطيات اخرى كانت من نواقص الحرب ، لا اثناء قيامها فحسب ، ولكن بعد توقفها كذلك . وهي المشاركة الديمقراطية ، فلو كانت الجماهير الشعبية مسلحة في الضفة الغربية للقنال على الاقل لما نجح التسلل الاسرائيلي ، ولو كان هناك تشدد اكثر عقب الحرب لحصلنا من اسرائيل وامريكا على نتائج افضل ، ولو استمرت حرب الاستنزاف ضد الجيب الاسرائيلي في الضفة الغربية ، لكانت نتيجة الحرب العسكرية والسياسية افضل ، ولو ان الحرب رافقتها تغييرات اقتصادية واجتماعية وديمقراطية في بنية المجتمع المصري — مثلا — لكانت هذه التغييرات دعما للنضال العسكري ، وسندا لاستمراره بشكل ايجابي خلاق . ولكن الذي حدث هو عكس هذا تماما . انتهت الحرب فكادت تنتهي كذلك معركة التنمية الاقتصادية المخططة والتطوير الاشتراكي ، فضلا عن المعركة العسكرية . لا ... المعركة ينبغي ان تستمر على مختلف الجبهات وان تنوعت تكتيكاتها .

ان تفسير الانظمة لهذه الحرب هو بغير شك محاولة لتغطية محدودية نتائجها ، بتضخيم هذه المحدودية تضخيما عاطفيا . لتتم تحت مظلته الانتكاسة او الردة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولعل ابراز العوامل اللاعقلية وسيادة التفكير الغيبي بعد المعركة واثناءها كان من بعض هذه الاساليب .

ج — من رأيي ان الحصاد الفكري والادبي كذلك الذي خرج بعد هزيمة ٦٧ كان حصادا ايجابيا برغم سيادة بعض التيارات العاطفية التشنجية ، او النشيجية . كان حصادا نقديا بالغ الجدية . وكان من بعض قوى الضغط والحشد والتعبئة لحرب تشرين . ولا اعتقد ان كل الحصاد الذي ظهر بعد حرب تشرين حصاد تفاؤلي . وان كنت لست ضد الحصاد التفاؤلي ان كان التفاؤل مبنيا على نظرة موضوعية نقدية صحيحة . ان حرب تشرين بكل ما فيها من سلبيات تفجر التفاؤل الموضوعي في الانسان العربي . انها تعيد اليه ثقته ، وتضع يده على مواقع القوة في نفسه وفي حياته ، وتحدد له طريق النضال بشكل عملي وموضوعي . لقد كشفت الحرب عن امكانيات وقدرات وكفاءات عربية هائلة . فلنواصل اذن نضالنا مسلحين بها جميعا ، لنحول

محدودية هذه الحرب الى لا محدودية نضالية حتى يتحقق التحرير العربي الكامل الشامل السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي . ان هذه الحرب يمكن اذن ان تفضي الى تفاؤل موضوعي حول مستقبل الصراع العربي ضد اسرائيل والامبريالية . ولكن هناك بغير شك محاولات لتسطيح هذا التفاؤل ، لتضخيمه تضخيما عاطفيا ، يفرغ وعينا من المعطيات الموضوعية لهذه الحرب ، وبالتالي ، يملؤنا بوعي زائف بالحقيقة . وهنـاك بعض الكتابات التي تتسم بهذا التفاؤل العاطفي والوعي الزائف . ولكن هناك كتابات اخرى تتسم بالتفاؤل الموضوعي والوعي الصحيح .

كانت معركة اختبرت فيها الطاقة العربية اختبارا ناجحا . ولكن المعركة لم تكتمل بعد . ولقد كشفت المعركة عن القدرة على التصدي لاسرائيل ، والقدرة على هز كيانها هزا . وسنواصل طريقنا اذن مسلحين بكل الخبرات الموضوعية لهذه المعركة التي لم تستكمل بعد .

ولكني اذا كنت اتهم التفاؤل المسطح العاطفي بالوعي الزائف ، فانني اتهم كذلك الموقف المتشائم تشاؤما عاطفيا ، بالوعي الزائف ايضا . هناك من لا يرى في هذه الحرب وفي نتائجها الا مجرد اجهاض للقضية الوطنية العربية ، مجرد انتكاس وخديعة ، من حقنا ومن واجبنا طبعا ان نحلل كل عناصر هذه التجربة وان ننتقدها ، ولكن على اساس رؤية كل جوانبها وكل الامكانيات التي برزت والتي ينبغي ان نواصل النضال لتحققها الكامل فالتشاؤم العاطفي المرور او الرفض المطلق المجرد سواء بسواء ، كالتفاؤل العاطفي الغافل ، نوع واحد من الوعي الزائف بحقائق الواقع وحقائق النضال ، وكلاهما غذاء للسلبية والتضليل والغفلة ، والاغتراب والضياع .

ان معركتنا مع اسرائيل ومع الامبريالية العالمية ، مستمرة ومحتدمة ، ما بقيت ارض عربية محتلة ، وما بقيت عائلة فلسطينية بعيدة عن حقها المشروع في ارضها فلسطين ، وقد كشفت حرب تشرين بشكل مباشر وبشكل غير مباشر ، عن طاقات وامكانيات ومعطيات تتيح لنا مواصلة هذه المعركة في مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحلية والعالمية . أن وعينا بهذا ونضالنا مـن اجل تحقيقه هو التفاؤل الموضوعي الصحي الواجب .

محمود امين العالم

عباس بزي

من وماذا في التسوية

« ... لكن وجه البيروقراطية الناصرية الحقيقي سيظهر حالما يهدأ الصراع الدولي ، وجه الزائدة الملحقة ببورجوازية الغرب الامبريالية ووجه الطبقة الاجتماعية الجديدة التي ورثت طبقة الارستقراطيين البورجوازية القديمة ... »

حسين رياض — « مصر الناصرية » — ١٩٦٤

يعيش الوطن العربي* ، منذ حرب تشرين ، في عهد بورجوازياته المنتصرة . لم تحقق هذه البورجوازيات نصرا عسكريا ، في الحرب ، يملك بعض القدرة على الاستمرار . جرى اختراق ضخم انطوى على بطولات لا حد لها في صفوف المقاتلين العرب ، لحصون العدو في الاراضي المحتلة . لكن الاختراق لم يصمد ، في العديد من مواقعه ، حين عادت الحرب الى طبيعتها الغالبة — طبيعة المواجهة على صعيد السلاح ومدى استيعابه في كل جانب — اي حين تمّ للعدو تعبئة سلاحه كاملا في وجه السلاح العربي . وحين شارفت الحرب على نهايتها بعد سبعة عشر يوما كان السوريون قد خسروا مواقع على طريق دمشق اضيفت الى ما خسروه عام ١٩٦٧ . وكانت الرقعة المحتلة على ضفة السويس الغربية مساوية تقريبا لما تمّ تحريره من ارض سيناء . لم يكن الداخل الاسرائيلي قد مسه ضرر ، بينما دمر جزء كبير من الطاقة الانتاجية السورية . كانت امارات ضعف واضحة تبدو على الجيوش العربية ، في المواقع التي ارتدت اليها ، وكانت الخسائر في البشر والعتاد اضعاف خسائر العدو . هذا كله بعد سبعة عشر يوما على بدء الحرب كان للجانب العربي مبادرة كاملة في مباشرتها . ثم اوقفت الحرب ، بفعل

---

* هذا المقال هو القسم الثاني من بحث طويل يعالج قضايا الوضع العربي الراهن . يعالج القسم الاول منه مسائل بورجوازيات الدولة ، تباشير حركة وطنية جديدة ، الوطنية والحركة الديمقراطية في لبنان ، وهو يحمل طابعا نظريا .

تصعيد سوفياتي ــ امريكي محسوب ، والمواجهة في حالة لم يمت معها الذئب ولا فني الغنم .

رغم هذا كله تواتر الحديث ، من كل جانب ، عن النصر العربي ولم يكن خاليا من الصحة . فنتيجة الحرب لا تقاس ، خارج اي اطار سياسي ، بحجم الخسائر او بالتغيير في المواقع على الارض . انها تقاس اولا بقدرتها على تغليب الاهداف السياسية لأحد الطرفين على اهداف الآخر . وحين لا تؤدي الحرب الى ركوع من احد الطرفين لا نهوض بعده (وهي نادرا ما تؤدي الى ذلك) يدخل في الصورة حساب المستقبل : من يكسب الجولة المقبلة ؟ ما تكون النتائج المحلية وغير المحلية للجولة المقبلة ؟ من يربح من توفير جولة مقبلة ؟

والحال ان هذه العناصر هي عناصر ما يجري الحديث عنه من نصر عربي . ولم يقم الصمود العسكري الا بابرازها ، ولم تبطلها علامات الوهن العسكري في نهاية الحرب .

أ ــ كان الهدف العربي الصريح للحرب هو اطلاق مسيرة التسوية السياسية من جديد . وكان الأساس في تحديد هذا الهدف هو نظرة النظامين العربيين المحاربين الى طاقتهما العسكرية وما يليها من ادوات سياسية . ودليل ذلك ــ باستثناء الكلام الصريح ــ تحديد تقدم القوات المصرية في سيناء تحديدا مقصودا وتحاشي التعرض للداخل الاسرائيلي رغم امكانه اذا تم التسليم بالخسائر المقدرة من جرائه ، الخ . . . وقد تم تحقيق هذا الهدف . فقد كانت نتائج حرب ١٩٦٧ لا تسمح لأي من الطرفين بالدخول في تفاوض منتج لا تؤدي نتائجه الى اختلال غير قابل للاصلاح في توازنه الداخلي . فاسرائيل بعد نصرها لا تستطيع التخلي عن معظم ما احتلته من اراض جديدة . والعرب بعد هزيمتهم لا يستطيعون التنازل عن جانب من هذه الاراضي ولا فرض اعادتها كلها ولا الزام العدو بحل يبطل ــ في الظاهر على الاقل ــ اصل النزاع ، اي المشكلة الفلسطينية . ولم يكن لأي تدخل سوفياتي ــ امريكي ان يحل هذا الاشكال . فلا يسع ايا من الدولتين ان تصل بالضغط الى حد يفقدها مواقعها في المنطقة او يعرّض هذه المواقع لتداع داخلي . لذلك بدت تسوية النزاع عرضة لتأجيل مستمر وبدا ان العلاقة بين الدولتين الكبيرتين تتقدم ، شيئا فشيئا ، بتصديها لمشكلات اخرى (فيتنام ، الحد من السلاح النووي ، المشكلة الالمانية والامن الاوروبي ، الصلات الاقتصادية) . . . هذا بينما يقتصر الجهد في شأن النزاع العربي الصهيوني على تقوية كل من الطرفين لحليفه في حدود محسوبة وعلى العمل لمنع انفجار جديد والتلويح الدائم ، في سبيل ذلك ، بسراب التسوية . وكانت الامبريالية الامريكية هي الرابحة في هذه اللعبة . لكن الاتحاد السوفياتي كان يوطد مراكزه في حقول اخرى ، خاصة بعد انتصار الفيتناميين . وكان يدرك ان خسائره العربية ليست الا نسبية . فالتناقضات المتشعبة بين الانظمة العربية لا تزال تتيح له التقدم على سبل جديدة . فاذا خسر في مصر والسودان ، يربح في العراق وسوريا وجنوب الجزيرة وصفوف الفلسطينيين ، واستطاع الحفاظ على علاقة مقبولة مع الجزائر . هذا بينما تتجه القيادة الليبية نحو اوروبا خاصة ، وتبتعد نسبيا عن الامريكيين ، وتقيم ، رغم كل شيء ، صلات لم تكن قائمة في السابق ، مع الكتلة السوفياتية . . . ثم ان

الخسارة في مصر ، رغم اهميتها القصوى ، لا تطال معظم الركائز الرئيسية في العلاقة (السلاح ، تجهيز الصناعة المصرية الثقيلة ، الدين المصري ...) .

نتيجة للحرب لم يعد التجميد قابلا للاستمرار وبات طرفا النزاع في وضع اكثر ملاءمة للتفاوض ودخل النزاع العربي ـــ الصهيوني عنصرا راهنا في المسيرة نحو الانفراج العالمي . ذلك ان الصمود العربي النسبي في الميدان بعث احتمال هزيمة صهيونية ، في جولة مقبلة ، قد لا يستطيع الحؤول دونها سوى تدخل عسكري امريكي تكون نتائجه كارثة على سياسة الوفاق كلها وعلى السلام ، ليس لان التدخل الامريكي في اي مكان والتصدي له يؤديان حتما الى نتائج من هذا القبيل ، بل لان الانظمة العربية القائمة لا تستطيع مقارعة هذا التدخل دون دخول الاتحاد السوفياتي مباشرة في المواجهة . لكن الهزيمة الصهيونية احتمال ... اما الامر الراهن فهو ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي استطاعا وقف القتال عند نقطة تستبقي للدولة الصهيونية تفوقا عسكريا نسبيا ، لكنها تنقل الجانب العربي من الوضع الناجم عـــن هزيمته السابقة الى وضع قوة نامية تستطيع ، خلال المفاوضة ، ان تضمن مصالح العدو الرئيسية ومصالح حماته دون ان تكون الهزيمة هي التي فرضت عليها التنازل . اما العدو نفسه فيتصلب املا في مكاسب اخرى على الارض وفي شروط سياسية للتسوية تضمن لدولته ، في المنطقة ، استمرار قوتها المتفوقة وعلاقة سيطرة على جوارها ، من طراز جديد ، متناسبة مع هذه القوة .

ولا ترجى فائدة كبيرة من تعداد العناصر التي ما زالت تدعم خط التسوية منذ حرب تشرين . فمن الصحيح القول ان الحرب وما مهد لها انشأت وضعا من التضامن السياسي الجديد بين سائر الانظمة العربية . ولا ريب ايضا في ان الولايات المتحدة قد وجدت ، بفعل هذا التضامن والاجراءات التي قدمت له بعد ١٩٦٧ وبفعل علاقتها الخاصة بالدولة الصهيونية ، سبلا ممهدة لتوسيع دائرة نفوذها في المنطقة ، بصفتها الوسيط الوحيد المقبول من العدو والمقبول من المعسكر العربي الجديد الذي كبت تناقضاته ـــ قبل كل شيء ـــ تحول بورجوازيات الدولة المستمر تحت وطأة عجزها عن حل كل المشكلات الكبرى التي عرضت لها عند قيامها : مشكلة النمو ومشكلة التحرير القومي ومشكلة قيادتها لمسيرة الوحدة القومية . ولا ريب ايضا ان حصار النفط ورفع اسعاره وما نتج عنه من فائض مالي ضخم بين ايدي الدول النفطية قـــد جاءت ـــ في غضون ازمة عالمية مثلثة بدأت قبل تشرين واشتملت على التضخم النقدي وتراجع الاستثمار والنقص في الطاقة ـــ فاستحدثت للجبهة العربية وزنا سياسيا جديدا في العالم ، بحيث باتت المجابهة التي تتسم بها ازمة الرأسمالية العالمية الراهنة بين اوروبا الغربية واليابان من جهة والولايات المتحدة الامريكية من جهة اخرى تدفع كلاً من الفريقين المذكورين الى اعتماد صبغة جديدة لعلاقته بدول النفط العربية . فلم يعد يسع الولايات المتحدة ان تواصل ـــ خاصة بعد الحرب ـــ اهمالها لموقع اصحاب النفط العرب من الصراع العربي الصهيوني ولا ان تعتبر حمايتها كافيـــة لضمان مستقبلهم السياسي . ولم يعد يسع اليابان واوروبا الغربية الا ان تصلا الى اقرب مسافة يتيحها الصراع الدائم بين القوى السياسية في كليهما ، من الموقف العربي . ثم ان دول العالم الثالث التي تلقت ضربة قوية من جراء ارتفاع كلفة الطاقة ـــ رغم لحاق بعض المواد الاولية التي تصدّرها بالنفط ـــ باتت

تتطلع الى تعاون عربي نفطي معها في تلافي آثار الضربة ... اما دول الكتلة السوفياتية فان تبنيها لموقف الانظمة العربية الناجم عن هزيمة حزيران سابق على الحرب الاخيرة . ولا يختلف عن ذلك موقف الصين الا بابرازه الدائم لمكانة الكفاح الفلسطيني من الصراع وبتضامنه مع اهداف هذا الكفاح .

صحيح اخيرا ان الوجه العربي الابرز لهذا التغيير الذي تبع الحرب هو استعادة البورجوازيتين المصرية والسورية — والاولى منهما خاصة — لزمام القيادة المبادرة في حركة التحرر العربي المشرقية وتقليصهما اهداف هذه الحركة الى حدود افقهما السياسي الذي رسمته هزيمة حزيران والى ما يتوافق مع صلتهما بالفريق العربي النفطي ومع ضرورة اشراف امريكي يملك مقومات فعالية خاصة على سياق التسوية . هذه القيادة لم تكن قد افلتت فعلا في اي وقت من يد نظامي المواجهة الرئيسيين . لكنها تشققت نسبيا وبدت على مبادرتها امارات عطل خطير بعد حزيران . فسمح ذلك لحركة فلسطينية ذات افق سياسي خاص واسلوب متميز في الكفاح باكتساب مدى واسع في الساحة العربية . لكن الوقع السياسي لحرب تشرين وضعف المشاركة الفلسطينية فيها ، عادا فرأبا الصدع في بنيان القيادة السابقة — الراهنة لحركة التحرر وأديا الى كبت تميز فلسطيني كانت معاناته لحصار الانظمة العربية وضرباتها اصلا لأزمته السابقة على حرب تشرين . ان قمع الظاهرة الفلسطينية — بسماتها المميزة — هو واحد رئيسي من عناصر الامكان القريب للتسوية وأثر بارز من آثار حرب تشرين . ولا يبطل هذا القمع ما يلقاه الفلسطينيون من احتضان سياسي وصل الى ذروته عند ظهورهم في الامم المتحدة . فهذا الاحتضان هو جزء لا يتجزأ من القمع وثمن للتسليم بغايته .

هل تنصاع الدولة الصهيونية لهذه الدواعي التي تدفع بقوة في وجهة التسوية ؟ رغم حدة الازمة الداخلية الناجمة ، خاصة ، عن آثار الحرب وعن وصول موجة التضخم ورغم قوة الضغط العالمي ورغم الاستجابة الفعلية لرغبة الامريكيين في تحقيق خطوة اولى (فصل القوات) يظل الجواب بالايجاب على هذا السؤال مغامرة ... فقد بدا ان حركة الاحتجاج العارمة على ما سمي بالاهمال ، في تشرين ، لم تسفر عن اتجاه قوي نحو القبول بالتسوية بل عن العكس . ورغم استبعاد صقور معروفين من اعضاء حكومة الحرب (مائير ... دايان) واستبدالهم بطاقم اوثق صلة بالولايات المتحدة ، بدت الحكومة الجديدة مغلولة اليد ، مهددة في الشارع والبرلمان ، مدفوعة الى مزيد من التصلب . وما لبث الحزب الديني ان وقف من جديد على عتبة التحالف الحاكم . وظل الحلم بجولة جديدة تعيد الى اسرائيل مكانتها السابقة على الحرب هو الاستنتاج السائد من حديث « الاهمال » وهو الصوت الارفع بين الاصوات المسموعة على الاقل . ولم تفلح ازمة التضخم والبطالة في وضع الامور على مسرى آخر بل وطدت ، حسب العادة ، مسرى التصلب . وظهر انه اذا كانت النزعة الى ضم مجمل الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ قد ضعفت كثيرا نتيجة للحرب ولما تلاها من ضغط دولي ، فان الوصول الى بداية موقف مقبول من الجانب العربي قد تباعد هو الآخر . والامر لا يعدو ان يكون جوابا طبيعيا على كبت الانتصار الذي كان الاسرائيليون ينتظرونه حين تم وقف النار في تشرين وعلى التقدم العربي المتسارع ، في الميدان الدولي ، بعد الحرب . ثم انه جواب تقليدي على الأزمة الاقتصادية

يلجأ اليه رأس المال الاسرائيلي لطمس معالم الصراع الطبقي خلالها ، خاصة وان الحصار الدولي لم ينل الا نيلا طفيفا من المتنفسات الرئيسية للاقتصاد الصهيوني في الخارج . فلماذا يفترض ان الصهاينة سوف يسلمون بشروط التسوية العربية او بشروط قريبة منها بعد التراجع الذي طرأ على دولتهم ، بنتيجة الحرب ، فيما نعلم ان هزيمة حزيران لم تدفع الانظمة العربية الى التسليم بشروط التسوية الصهيونية — الامريكية آنذاك (اي بالتفاوض دون انسحاب اسرائيلي مسبق وبقبول تنازلات جوهرية عن اراض محتلة في الحرب وبترتيب وضع الفلسطينيين في اطار الاردن ودول اخرى وبالعودة الى دائرة النفوذ الامريكي المباشر ، الخ ...) ؟ هذا بينما كانت مصر مثلا تشهد بعد الهزيمة ضائقة ادت الى انهيار خط التنمية برمته والى توتر طبقي كبير . ان غلبة التصلب السياسي ، في ظروف من هذا القبيل ، امر طبيعي . ولا تقدم او تؤخر كثيرا شرعية المطالب التي يبرزها التصلب اولا شرعيتها .

هل ترفض اسرائيل التسوية اذن ؟ رغم كل ما ابرزناه من ظواهر تنبىء بهذا الرفض ، يبقى الاتجاه الاستراتيجي للطبقة القائدة الصهيونية هو اتجاه القبول . فان التصلب الناتج عن الازمة السياسية — الاقتصادية بعد الحرب لا يبطل — خاصة في ظروف القـوة العربية الجديدة — مصلحة العـدو الاستراتيجية في تكريس وجوده والعمل على فتح المنطقة — ولو بعد حين — في وجهه واقتناص المكاسب التي ما زالت تتيحها له نسبة القوى العامة بينه وبين الجانب العربي . وتنتظر القيادة الصهيونية الآن عبور الموجة التي اكتسحت بعض مواقعها في حرب تشرين . وقد بدأ هذا الانتظار المتوتر يؤتي ثماره في اضعف حلقات التغيير الذي طرأ على المواقف الدولية من الصراع . فبات على القيادة الامريكية — اثر تنحية نكسون والانتخابات العامة والافول النسبي لكيسنجر — ان تكـون اشد وضوحا ومبادرة في دعمها الدائـم لاسرائيل . وما زال لاسرائيل امل ، بعد استقرار الهجوم العربي ، في معالجة حلقات اخرى من طوق الحصار المفروض عليها الآن . يسعفها في ذلك تراخي الوحدة الاوروبية وقصور المعونة العربية عـن معالجة مجمل الآثار التي خلفتها ازمة الطاقة في العالم الثالث ، الخ ... لكن عبور الموجة المذكورة اعلاه قد يحتاج — في نظر الدولة الصهيونية — الى حرب خامسة تسبق حلول اوان التسوية . واذا كانت صعوبة المباغتة وطبيعة المصالح الامريكية الجديدة في المنطقـة وشحنات السلاح السوفياتي الكثيفة الـى سوريـا (وقريبا الى مصر) ومرابطة القوات الدولية في المناطق العازلة واحتمال تعرّض الداخل الاسرائيلي لدمار كبير (حين تكون اسرائيل هي البادئة بالحرب) تستبعد كلها نشوب الحرب في اوان قريب ؛ فان هذه الحرب ، على اي حال ، (بعـد تجربة التدخل الامريكي — السوفياتي المتقابل في تشرين) لن تحقق انتصارا حاسما لأي من الفريقين ولن تغير شيئا — اذا وقعت — من جوهر المواجهة السياسية الراهن وستكون مدخل اسرائيل الصعب الى افق تنفيذ جاد لتسوية باتت حلولها — ولو تأجلت — افقا وحيدا لفريقي الصراع في صورتهما الراهنة .

مـــاذا في التسوية ؟

لا بد لأي موقف من التسوية ان يبنى على اثرها في العلاقات ــ علاقات الوحدة وعلاقات التناقض ــ التي تسود رقعة القوى الداخلة او المتدخلة في هذه التسوية نفسها . وقد حاولنا ان نبين ان مواقع القوى الرئيسية المتجهة الى التسوية ــ باستثناء الطرف الفلسطيني استثناء نسبيا ــ لا تتغير، في جوهرها ، نتيجة لاحتمال التسوية ، وان هذا الاحتمال يعكس ــ في ما يخص انظمة المشرق العربي على الاقل ــ وجهة سياسية ــ طبقية كانت قائمة قبل حرب تشرين ، فجاءت الحرب لتمنحها حظا في الافضاء الى نهاية طبيعية . لكن التسوية تغير حركة العلاقات وان لم تغير جوهرها . سوف يظل صحيحا القول ان التناقض الرئيسي في المشرق هو ذاك الذي يتشكل احد طرفيه من الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ويتشكل الطرف الثاني من حركة التحرر الوطني العربية . وسوف يظل صحيحا ان بورجوازيات الدولة تسعى الى حل سلمي لهذا التناقض وتنتقل شيئا فشيئا من طرف الى آخر ، الخ ، الخ ... لكن التسوية تشكل علامة وقف في هــذه اللعبة الكبرى ، يعدل فيها كل طرف اسلوب لعبه وينتقل الى طور آخر من سعيه الى الاهداف الناجمة عن تاريخ موقعه وعلاقاته وعن التحولات التي شهدها هذا التاريخ . اي ان التسوية لا تنشىء تناقضات لم تكن بذورها قائمة في الواقع السابق عليها ، ولا تحل تناقضات لم تكن متجهة في السابق نحو الحل ولا تغير في الصيغة المجردة للتناقض الرئيسي ، لكنها نقطة استشراف ممتازة لحركة هذه التناقضات . وهي شأنها في ذلك شأن قمة البرج المشرفة على المدينة ــ لا تتيح الا نظرة يتناقص وضوحها كلما ابتعد الافق الذي تتجه اليه ولا تسمح برؤية التفاصيل ولو اتجهت مباشرة نحو قاعدة البرج . لكن البرج لم يكتمل بناؤه بعد ... وليس لأي شخص ــ او جماعة ــ ان يحتل الا زاوية صغيرة او كبيرة بين زواياه الكثيرة . لذا يبدو استشراف آثار التسوية على حركة الوحدة والتناقضات مهمة لا بد ان يتدرج تحقيقها في الزمن وان تتعدد زواياه . ولا نسجل هنا الا بضع افكار عامة نسوقها على ثلاثة مستويات :

أ ــ مستوى العلاقات الامبريالية في المشرق العربي : ينضوي التحول الطارىء على هذه العلاقات ضمن الصراع الحاد بين الامبرياليات الذي تتسم به ازمة الامبريالية الراهنة وينضوي في آن معا ضمن جهود الامبرياليات لتجاوز هذه الازمة . وليس هنا مكان العودة الى اسباب الازمة المذكورة . لكـن الراهن ان الولايات المتحدة تعمل في سياق معالجتها لمشكلة الانتاج الفائض وما تبعها (من تراجع الانتاج مجدداً ومن بطالة وتضخم) على توسيع اسواقها الخارجية ودحر منافسيها في السوق العالمية . وقد اعانتها علاقاتها الجديدة بالاتحاد السوفياتي (وسوق واحدة من الاسواق المتنافس عليها) في شن حرب اقتصادية حامية على اوروبا الغربية واليابان . وتهدف هذه الحرب الى حماية السوق الامريكية الداخلية مـــن غزو السلع الاوروبية الغربية واليابانية والى السيطرة على اكثر القطاعات تقدما وتحكما في سائر القطاعات مـــن اقتصاد هذه البلدان والى توفير الرساميل لتوطيد السبق التكنولوجي الامريكي في القطاعات المتقدمة نفسها والى تأمين شروط للمنافسة على اسواق الاستهلاك في العالم الثالث وعلى اسواق التجهيز المستحدثة

في بعض اقطاره تكون في صالح رأس المال الامريكي . وتقتضي هذه الحرب تحويلا لأولويات التوظيف في الصناعة الامريكية نفسها . فتتحول رساميل متعاظمة عن انتاج سلع الاستهلاك المعمرة (وهو انتاج بلغ حد التخمة) الى ميادين جديدة نسبيا يطمع رأس المال الامريكي في الوصول الى شبه احتكار لانتاجها وتوزيعها على قطاعات السوق العالمية المختلفة (العقول الالكترونية ، المفاعلات الذرية ، صناعة الفضاء ، احدث وسائط النقل الكبيرة في الجو والبحر والبر ، الخ ...) . ويؤول النجاح في هذا التحول الى سيطرة جديدة ، متفاوتة بالطبع ، على معظم اقطار العالم الثالث وعلى اوروبا الغربية واليابان والى تبلور علاقات عضوية (« لا رجعة عنها » حسب التعبير الشائع بين الطرفين) مع الكتلة السوفياتية تمنع هذه الاخيرة من ممارسة تصدّ عام للامبريالية الامريكية في طورها الجديد وان لم تمنع الاحتكاك بين الطرفين هنا وهناك .

ولا يتناقض هذا الجهد الامريكي مع ارتفاع كلفة الطاقة وكلفة المواد الاولية (التي يصدّرها العالم الثالث) الا تناقضا جزئيا قصير المدى . فلا شك ان حاجة الولايات المتحدة الى استيراد هذا كله آخذة في التعاظم . لكن الامر يبقى اقل خطورة على الاقتصاد الامريكي منه على اقتصاد اوروبا الغربية واليابان (وعدد من اقطار العالم الثالث) . ولا يصعب على راس المال الامريكي ان يدرك ان ما يتركه عليه هذا الارتفاع من آثار سيئة هو جزية لا بد منها يتم تعويضها من جراء تعديل شروط المنافسة في السوق العالمية ومن جراء تضييق الهوة بين الكلفة العالمية للطاقة والمواد الاولية والكلفة الامريكية المرتفعة اصلا لهـذه العناصر نفسها (وهي غزيرة المصادر في الولايات المتحدة عكس حالها في اوروبا واليابان) ومن جراء التحكم الامريكي المتزايد في قطاعات اخذت تحتل مكانة الجهاز العصبي من الصناعة العالمية .

ولا يتناقض الجهد نفسه مع السماح لعدد من اقطار العالم الثالث تضاعفت مواردها بفعل الارتفاع الآنف الذكر ، بأن تدخل حلبة تصنيع من طراز معين . فان هذا التصنيع يعزز صادرات الصناعة الامريكية في قطاعاتها النامية التي اشرنا اليها . وهو لا يضر فعلا بالصادرات الامريكية الاخرى الى هذه الاقطار . فالصناعات المحلية تجد سوقها ، على وجه التعميم ، في اوساط البورجوازية الصغيرة المحلية الآخذة في الاتساع . وهي بذلـك تنافس الصادرات اليابانية والاوروبية قبل الامريكية . هـذا بينما تتحفظ الولايات المتحدة حتى الآن حيال امتلاك اصحاب الرساميل النفطية لأسهم شركات ذات مواقع حساسة في الصناعة الامريكية . فتتجه هذه الرساميل نحو مرافق مالية او عقارية او ريعية ، محررة بذلك رساميل امريكية تصب في قطاعات الصناعة الجديدة المتعطشة الى رأس المال .

في هذا الاطار نفهم رفع اسعار النفط ونفهم خطوة التأميم السعودي (بعد التأميم الايراني المتدرج) وما قد يتبعها . فمآل ذلك كله ــ رغم الفارق الكبير بين الوضعين السعودي والجزائري مثلا ــ لن يكون الا تبعية متجددة تستتر بالنمو والتصنيع ومعونة جديدة للامبريالية على الخروج من ازمتها ودخول طورها الجديد . هذا اذا واجهنا الامر في نطاق المشرق او نطاق الوطن العربي كلـه . امـا الجماهير العربية فينالها فتات زيادة الاجور

والخدمات الاجتماعية لتوسيع نطاق الاستهلاك . وتبقى بعيدة عن اية سيطرة فعلية على ثروة ارضها ومصيرها ويبقى الوطن العربي بعيدا عن نمو متسق مستقل ... ولا بد للبعض ان يتبينوا في هذا الكلام موقفا معاديا لرفع سعر النفط ومؤيدا لبقاء شركات امريكية رضيت بالخروج ، في هدوء عجيب ، بعد ان بدأت منذ زمن طويل تحوّل رساميلها (في الولايات المتحدة) نحو ما تعتبره صناعة العصر الجديد ... شكرا ... لكننا ما نزال نصر على ان السؤال هو : من يؤمم ؟ ومن يرفع الاسعار ؟ ولمصلحة من ؟ اي ان السؤال يتناول موقع انظمة النفط من الجماهير العربية وموقعها من شبكة العلاقات الامبريالية الجديدة . والذين ما زالوا يعتقدون ان التأميم ، بحد ذاته ، اجراء ثوري وان مضمونه لم يتغير منذ معركة السويس ، يخطئون اختيار العصر الذي عليهم ان يعيشوا فيه . فهم يصرون — بعد ان بدأت الحرب العالمية الثالثة — على خوض الحرب الثانية بحماسة منقطعة النظير !.

اذا كانت الثروة النفطية العربية معرّضة في جانبها الاضخم للهدر على ايدي المشايخ والامراء ، فان الآمال التي يعلقها النظامان المصري والسوري على هجوم الرساميل الاجنبية ، بعد التسوية ، لا تتجاوز كثيرا امل ابليس في الجنة . فستظل الصناعة هنا وهناك جزرا مفككة ما دام محور نموها حاجات البورجوازية والبورجوازية الصغيرة . وسيظل الفائض الزراعي موظفا في تغطية الدين الاجنبي وتخفيف آثار التضخم العالمي على معيشة البورجوازية الصغيرة والجماهير المتضررة . ولا يتحقق هذا التخفيف دائما . فبينما تستورد مصر القمح لتلبية الحاجة المحلية ، يفقد السكر من السوق بسبب تصديره طلبا للنقد الصعب . هذا بينما يغادر فلاحو سوريا اريافهم ويتحول القطر السوري من بلد مصدر للحوم والقمح الى بلد مستورد . ثم ان التلامذة والمرضى يزدحمون في مدن القطرين على ابواب مدارس ومستشفيات ملأى فيما يعشش المرض والامية في الريف . وتعجز الدولة عن حل مشكلتي السكن والمواصلات ، بينما تتكاثر المباني الفخمة والسيارات الخاصة ... هذه المشكلات كلها لا يحلها راس مال اجنبي تبنى له المطارات والمرافىء وتشرع في وجهه المناطق الحرة ويحمل في ركابه الفنادق الكبرى والشقق المفروشة . ان ما يبنيه هذا كلـه لا يعدو ان يكون قشرة من البورجوازية الصغيرة ذات الامتيازات تتوسع بها قاعدة النظام وتصلح قناعا للاستغلال الاجنبي وطلاء لوجه النظام ولبؤس الجماهير ... اما العراق فيواصل التخبط في حربه الاهلية والعمل على ضمان امتيازات البورجوازية الصغيرة في المدن وبناء واجهة صناعية للزوار يمنعها الحكم الفئوي من التحول الى حلقة في سياق نمو متكامل . واما الاردن فيضمن اسكات ما يقرب من مليون من الفلسطينيين لقاء الصدقة الامبريالية — الرجعية التي يعيش عليها . واما لبنان فيواجه احد احتمالين ما زال من الصعب ترجيح احدهما : اما ان تواصل الدول النفطية اعتمادها على بناه المالية — التجارية القائمة فيتكرس الى امد آخر دور الوساطة الذي يتولاه (رغم المنافسة السورية المستحدثة) واما ان يؤدي توطيد الانظمة في هذه الدول ، نتيجة لتوسع قاعدتها الطبقية ، الى بناء مرافق فيها بديلة لبعض المرافق اللبنانية الرئيسية ، فيقف لبنان على اعتاب ازمة ليس لها مخرج في اطار الكيان ويواجه خطر الانتهاء الى نظام شبه فاشي مشابه للنظام الاردني .

كلمة اخرى : ليس في هذا التشخيص (الذي نسوقه مع التحفظ اللازم) ما يقدّم التسوية وسائر التحولات المتعلقة بها على انها مؤامرة جهنمية رسمت الامبريالية ادق تفاصيلها . فالسياسة الامريكية الجديدة ، على النطاق العالمي ، هي نفسها نتيجة لتحولات موضوعية لم تكن الامبريالية الامريكية دائما صاحبة المبادرة في صنعها ، فهي ، في كثير من وجوهها ، نتيجة لأزمات الامبريالية وهزائمها . والسياسة اياها ليست خالية من التناقضات ولا قادرة على التحكم التام في نتائج تطبيقها . فحين تشن الولايات المتحدة حربا على اوروبا الغربية تخشى ، في الوقت نفسه ، ان تؤدي الحرب المذكورة الى كسر بعض الحلقات الضعيفة في بنيان الرأسمالية الاوروبية (ايطاليا مثلا) ... وحين يتيح الاطار الجديد للعلاقات الامبريالية رفع سعر النفط ، تستفيد الدول المصدرة من الظرف الحاد الذي اتخذ فيه القرار ، فيتجاوز السعر الجديد ما يناسب رأس المال الامريكي(١) . لذا يتحول الضغط الامريكي نحو هدف التخفيض يؤازره في ذلك حرص وزير النفط السعودي على « مستقبل الحضارة » . وليس لهذا التحول اي طابع مسرحي . انه يشير ، وحسب ، الى ان اقوى المضاربين لا يملك في يده ، رغم قوته ، كل مقاليد الحظ ... ثم ان جزءا من الفائض البترولي الجديد يتحول نحو اوروبا الغربية واليابان ، الخ ... رغم هذا لا بد من سؤال : اين هو المضمون الوطني للتسوية المنبثقة عن حرب تشرين « الوطنية » ؟

ب ــ **مستوى العلاقات الطبقية** : تتحكم النقطة السابقة نسبيا في النقطتين اللاحقتين ، فلا يبقى ما يضاف سوى ملاحظات يفرضها المنطق الخاص بالبنى العربية الداخلية في علاقتها بالسيطرة الامبريالية .

ما هو الاثر الطبقي المنتظر لتسارع حركة التصنيع في البلدان المصدرة للنفط ؟ ان الاتجاه المحتمل لهذا التصنيع ــ الذي بدأ على أي حال قبل حرب تشرين بسنوات عديدة ــ هو اتجاه التركيز على صناعات تكرير النفط وتسويقه (المصافي والناقلات) وعلى صناعات المواد المشتقة من النفط ثم على صناعات تجميع السلع الاستهلاكية المعمرة وعلى بعض الصناعات الخفيفة ... ويأمل البعض في ان يؤدي ذلك الى بروز بروليتاريا ضخمة في الجزيرة العربية خاصة ويربطون هذا البروز باحتمالات ثورية . والحال ان السعودية وامارات الخليج تجد حولها معينا لا ينضب من اليد العاملة العربية

---

(١) ــ الذين يقوم منطقهم كله على وضع « العملاء » في مواجهة « الوطنيين » لا يستطيعون فهم هذا النوع من الخلاف . فهم ينسون غالبا ان الوطنية ليست موقفا شخصيا (حب الوطن من الايمان ...) وان التبعية ليست عمالة شخصية ، هي الاخرى ، بل هي عجز طبقي عن تغليب المصالح الدائمة للشعب على مصالح اعدائه . ولا يستبعد هذا العجز نشوب خلافات بين الامبريالية وممثلي الفئات الطبقية التابعة لها . فكثيرا ما تعمد الامبريالية الى استبدال هؤلاء بسواهم وكثيرا ما يستفيدون من فرصة ما لتوطيد مواقعهم في التعاطي معها . وقد ورث اصحاب منطق « العملاء ضد الوطنيين » مانويتهم هذه من غياهب الفكر القومي البورجوازي واعتمدتها ماركسية العالم الثالث في صيغها الخطابية . حتى اذا برز خلاف ما بين الامبريالية و « عملائها » ، رأيت اخف المانويين كرعوبا يميل بعطفيه شطر « الملك الوطني » او « الامراء الوطنيين » مرندحا : « عمي يا بياع النفط » ...

والايرانية والباكستانية ، الخ ... وهي يد عاملة مدرّبة في جانب منها تدريبا مسبقا . ويستطيع سيل الوافدين المحتملين ان يشكل جيش بطالة يضغط على اية حركة عمالية ويحول دون تماسكها . ويؤول توسع التجارة الداخلية وتوسع الخدمة الاجتماعية ونمـو جهاز الدولة والاجهزة البيروقراطية او التكنوقراطية في الصناعة الى تكوين بورجوازية صغيرة ميسورة ، متعددة الجنسيات مع غلبة متدرجة للعنصر المحلي ، يتضافر ضغطها مع ضغط جيش البطالة والارستقراطية العمالية على توفير استقرار طبقي لا تعوزه المتانة . في هذه الحالة يمسي ممكنا ان تتجه الاسر الحاكمة في الجزيرة نحو تزيين وجوهها بمساحيق ديمقراطية من الطراز الكويتي تفسح في المجال امام قوى البورجوازية الصغيرة للتعبير عن مطالبها المحدودة . وينحصر الصراع على السلطة السياسية بين صفوف هذه الاسر . هذا بينما يسعف تعدد الجنسيات وضخامة الاسرة المالكـة في السعودية وضآلة سكان الامارات وتبعيـة البورجوازية الصغيرة للسلطة واستبقاء قطاع موال من القبائل على ضبط حركة البورجوازية الصغيرة هذه وان كانت عسكرية . ولا يستبعد ذلك ان ترتكز اجنحة الاسر الحاكمة ، في صراعها ، على هذا الفصيل او ذاك من فصائل البورجوازية الصغيرة . ولا يستبعد ايضا ان تتعرض امارات الخليج لمنازعات مختلفة نتيجة للصراع عليها او على الاستئثار بالنفوذ فيها بين السعودية وايران والعراق . لكن هذا كله بعيد عن احتمال نهوض جماهيري حقيقي في السعودية والخليج ، خاصة بعد التأميم السعودي وما سيتبعه .

ويختلف الحال كثيرا في مصر . فان « الانفتاح » وما يريد استدراجه من رساميل نفطية وامبريالية ، ليس سوى استعادة لحل قصير النفس ، ضعيف الامكانات . واذا كان ما يلوّح به النظام المصري هو خاصة توافر سواعد كثيرة العدد ، ضئيلة الكلفة بين ظهرانيه (وتوافر طاقة نفطية كافية تقريبا للحاجة المحلية ، خاصة بعد الجلاء عن سيناء) ، فان في « الانفتاح » شراكا كثيرة منصوبة . من ذلك ان عودة « الباشوات » الجدد — من عرب واجانب — وفي ركبهم حواشي الطفيليين ، الى فرش ابهتهم الفارغة في رحاب المدن المصرية يثير لدى جماهير المصريين شعورا بالقهر لم يتباعد عهدهم به كثيرا ، ويضرب ركيزة من ركائز الناصرية ما زالت السلطة القائمة تتكىء عليها هي مصرية الاقتصاد والسياسية المصريين . من ذلك ايضا ان السلطة تواجه طبقة عاملة مركزة في عدد ضئيل من المواقع ، تملك مـن التقاليد النضالية ما يحول دون ضرب مكاسبها ، بحيث لا تعود هذه المكاسب ماثلة امام العاملين الجدد . من ذلك ، قبل كل شيء ان النمو الطفيلي الجديد وتوثيق علاقات تجارية — ظلت قائمة دائما — مع السوق الامبريالية يحملان الى الجماهير المصرية مزيدا من التضخم ويزيدان من بروز التناقضات الطبقية ويعجزان تماما عن استيعاب البطالة وعـن منع الحالة المعيشية لسواد الشعب المصري من الاستمرار في التدهور وعن حل الازمات المتغلغلة في صلب الحياة اليومية لأبناء الشعب المصري ، بل انهما يزيدان هذا كله تفاقما . ولا يحل هذا الاشكال ان تقوم السلطة بخفض النفقات العسكرية . فـان الطبيعة الرجراجة للتسوية مع العدو واستمرار تسلحه المنتظر وتسلح دول اخرى في المنطقة هي الاقطاب النامية في التوازن المقبل ومكانة الجيش في النظام المصري تمنع جميعا هذا الخفض ان يكون ذا بال فعلا . لكن تراخي المواجهة مع العدو قد يؤدي الى نشوء نزاعات جديدة في الجيش وتحويل

نظره مرة اخرى نحو مشاكل الداخل . ثم ان سياسة « الانفتاح » هذه هي ، في الاصل ، وجهة الجناح اليميني في الحركة الشعبية المصرية ، وهي اذ تستنفد اغراضها لا تطال بآثارها مواقع النظام وحده بل تطال ايضا نزعات يمينيـة متغلغلة في صفوف الجماهير وتنتهي الـى تجذير جديد للحركـة الجماهيرية .

وما يصح على مصر يصح على سوريا بدرجة اقل . معنى هذا ان فئوية النظام السوري قد تسفر ، في مرحلة اولى ، عن اضفاء اشكال مموهة على التوتر الطبقي ، يسعفها صراع خارجي جديد على القطر السوري ، بعد التسوية . فتعود من جديد سبحة الانقسامات في الجيش وتتأجج النزاعات الطائفية . اما في العراق فان الفائض البترولي الجديد يكفل استقرارا ونموا نسبيين لبورجوازية المدن الصغيرة وللطبقة العاملة في القطاع العام . لكن فئوية السلطة ، هنا ايضا ، والاستنزاف الذي تتسبب فيه حرب الشمال ينذران بمشكلات اخرى ، ناجمة عن التفاوت الحاد في النمو ، قـد يكون مهدها ريف الجنوب هذه المرة ... في لبنان وفي الاردن يظل استشراء القمع جوابا محتملا على الاستقطاب الطبقي الناجم عن التضخم اي على الخفض المستمر لمستوى الطبقة العاملة المعيشي ولمستوى الفلاحين واقسام مـن البورجوازية الصغيرة . لكن حدة هذا الخفض تتوقف ، في لبنان ، على الدور المعطى لبورجوازيته بعد التسوية ويتوقف مصير الاردن على موقف الامبريالية ودول النفط من وجوده وعلى نتائج صراع النظام الاردني مع الفلسطينيين داخـل شرق الاردن وخارجه . تتفاوت اذن حالات الصراع الطبقي ، في المشرق ، تبعا للاقطار ، بين خروج فئات طبقية جديدة على دورة النمو التابع واندماج فئات طبقية اخرى في هذه الدورة . لكن نضوج الوضع المصري الذي يستمر بطيئا منـذ سنوات سيكون له وقع حاسم على سائر اقطار المشرق ... من جهة اخرى يبرز واضحا ، في هذا النمو المتفاوت للصراع الطبقي ، اثـر التجزئة الاستعمارية للمشرق الى اقطار متفاوتة الثروة ، متفاوتة الحجم ، مستقلة نسبيا ، بعضها عن بعض ، في نموها ... وهو ما يقودنا الى تفحص مستوى العلاقات القومية ...

ج ــ مستوى العلاقات القومية : برزت في اعقاب الحرب الاخيـرة « جبهة » عريضة ، بلا ميثاق معلن ، تترامى اطرافها بين المحيط والخليج ممتدة من نظام السعودية الى بورجوازيات الدولة الى بعض اليسار العربي ، مسالما كان ام مسلحا . ولا يصمد الشذوذ العراقي امام هذا الاجماع في ساعات الحسم الكبرى ، ويبقى النظام الليبي « معتكفا » في الهامش وتلزم اليمن الجنوبية جانب الحيطة ... وشعار « الجبهة » معروف : استعادة الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وضمان حقوق الشعب الفلسطيني . وقد اضيف بعض التحديد الى هذا الشعار حين تبنت المقاومة الفلسطينية انشاء دولة في الاراضي الفلسطينية التي يخليها العدو نتيجة للتسوية وحين طرحت مشكلة البترول على انه سلاح قوي متعدد الفعاليات ... هل تقدّم هذه « الجبهة » صورة امينة ، على نحو مـا ، للعلاقات بـين الانظمة العربية في اعقاب التسوية ؟ بعبارة اخرى : هـل تنشأ الآن بورجوازية قومية تتجه نحـو الوحدة ، وتحت جناحها قوى اجتماعية اخرى ، بحيث تشق الجبهة ، شيئا فشيئا ، طريق تحولها الى دولة قومية في المدى الطويل ؟ لا نرى ابدا ان لهذا

الفرض ــ وقد بـدأ يدخل في التقديرات ، المضمرة على الاقـل ، لبعض اليساريين العرب ــ حظا ما في التحول الى حقيقة . بل ان تحليلنا السابق يقودنا الى الفرض المعاكس . فالتسوية توحد ما دامت لم تتحقق بعد ، لانها تخفف عن الانظمة العربية ، على اختلافها ، عبء احراج قومي ، ظل رازحا عليها طوال نيف وربع قرن . وهـي وان كانت لا تزيـل مصدر العبء (الصهيونية والسيطرة الامبريالية) من زاوية الجماهير ، ترمي الى طمسه ، على الاقل ، والى ضمان هذا الطمس بأمور واقعة جديدة . ثـم ان بعض الانظمة يجني ــ عدا رفع الاحراج القومي واستعادة الارض ــ فوائد اخرى ليست اقل أهمية من ذلك ويجني بعضها الآخر ما يخال انه بداية لحل ازماته وما هو ، في الواقع ، فرصته ــ الوهمية ــ الوحيدة لحل هذه الازمات . ذلك كله يستحق الوحدة الراهنة . التسوية ، في نظر اطرافها العربية ، تستحق « الجبهة » العريضة الراهنة . ولكن ماذا يبقى بعدها ؟ قد يرى البعض ان ما يبقى هو دروس « القوة » الناجمة عن الوحدة . لكن هذه سذاجة ما بعدها سذاجة . ان مـا يبقى في الواقع هو عوامل صراع لا تكاد تحصى .

يبقى الصراع السعودي ــ العراقي ــ الايراني على الخليج ، وهو متصل بصراع المعسكرات الدولية على المنطقة نفسها . ويبقى الصراع بين اطراف عربية عدة ابرزها السعودية وسوريا على الدولة الفلسطينية والاردن (والصراع بين هذين الاخيرين) وهو صراع ذو مدى دولي ايضا تتدخل فيه الدولة الصهيونية ويملك مرتكزات في بنية القيادة الفلسطينية نفسها . ويبقى الصراع علـى جنوب الجزيرة كلـه بـين الحركة الثورية المحلية وايران والسعودية . ويبقى ان تدخل دول النفط ــ من خلال انظمتها الراهنة ، وهي انظمة مرشحة لمرحلة من الاستقرار ــ في الاقتصادين السوري والمصري لا يتيح ، بسبب طبيعته وحدوده ، تحقيق خطى جادة ، على طريق التوحيد السياسي ، بين هذين القطرين ودول النفط .

اما السؤال الذي تثيره الدولة الفلسطينية الجديدة فهو التالي : هل تستطيع هذه الدولة ان تكون حلا او بداية حل لمشكلة الفلسطينيين الوطنية ؟ هل تستقطب اليها الشتات الفلسطيني ؟ هـل تكون خطوة نحـو الدولة الديمقراطية في فلسطين ؟ اي هل تلتقي هي واسرائيل في نهاية تطور سلمي على انشاء هذه الدولة ؟ ام تستطيع ان تكون منطلقا لاستئناف نضال مسلح يفرض على اسرائيل هذا الحل في نهاية الامر ؟

الذين يجيبون بالايجاب على اي من هذه الاسئلة لا بد لهم ان يقدموا بعض ما يستند اليه تقديرهم . وهم حتى الآن لا يفعلون . من جهة ثانية يتم اغفال الثمن الذي يدفع لقاء هذه الدولة . وليس الثمن المعني مفاوضات ومعاهدات ومواثيق . فهذه هينة نسبيا ، رغم خطرها ، اذا نظرنا اليها في حد ذاتها . بل الثمن الفعلي هو ان تقوم القيادة الفلسطينية ، **ضمنا او جهرا** ، بتقديم القضية الفلسطينية الى الجماهير العربية على انها قضية تمّ حلها ولم يتبق منها غير الذيول . ولا يتطلب ذلك بيانا رسميا . فهو ينجم ، وسط اجماع اطراف التسوية ، عن طبيعة المشكلات التي تجد القيادة الفلسطينية نفسها في مواجهتها متى تحولت الى دولة ، في الظروف الفعلية لهذا التحول .

تقوم هذه الدولة في وسط فلسطيني لا يمكن — الا مكابرة — انكار اختلافه — في اغلبيته الساحقة — عن وسط المخيمات الذي شكل مادة القضية الفلسطينية الدائمة ومنح الثورة دمها وشعارها : العودة . هذا الوسط مستعد متى ازيح عنه عبء الاحتلال واتيح لـه الحكم الذاتي ان ينصرف الى مواجهة مشكلات ضخمة لا تحتل المجابهة الطويلة النفس مع اسرائيل مكان الصدارة بينها . وليس في الامر اختيار او ضعف في الوطنية . بل هو قبل كل شيء نتيجة انصراف الانظمة العربية انصرافا ممهورا ببركة القيادة الفلسطينية عن هذه المجابهة . وذلك على نحو يجعل البنى القائمة في الضفة والقطاع عاجزة وحدها عن حمل قضية تختلف صلتها بها عن صلة جماهير المخيمات . هل يعني هذا ان جماهير المخيمات لن تعود قادرة على ايصال صوتها الى سائر الفلسطينيين ؟ وهل يعني ان القهر الناتج عن الوجود الصهيوني المجاور سوف يرتفع عن الضفة والقطاع ؟ ابدا . لكن جماهير المخيمات — التي لـم تستوعبها الضفة ولا القطاع سابقا ولـن يستوعباها لاحقا — سوف تجد في وجهها ، حين ترفع صوتها من جديد ، دولة فلسطينية مقيدة بألف قيد وقيد (لانها لا تملك اية قدرة على اتباع خط مستقل في النمو) وسوف تتولى هذه الدولة ، باسم الوصاية ، محاولة حمل الجماهير على ترك مارد التحرير يغط في النوم ... ولتطلب الجماهير ، بعد ذلك ، ما تريد . اما جماهير الضفة والقطاع فهي حين تلتقي مجددا مع مسحوقي المخيمات لا تستطيع ان توصل هذا اللقاء الى مداه الطبيعي الا ضد دولتها الجديدة وضد الاوصياء العرب وغير العرب عليها أيا كانت دعاوى الاستقلال .

اما الذين يرون ان الدولة الفلسطينية ، رغم كل الاسئلة ، حل يفرضه « الواقع » ، فهم محقون . لكننا نختلف في تعريف « الواقع » ... هم محقون من زاويتين : أ — ان « واقع » الانظمة العربية من حيث بناها الطبقية وصلتها بالجماهير لم يكن يستطيع ان يوصل الشعب الفلسطيني الى غير هذا المأزق . ب — ان واقع الثورة الفلسطينية ، رغم اختلافه ، من حيث نمط انخراطها في الواقع الاول واثره على بنيتها واساليب نضالها مسؤول ، هو الآخر ، عن المأزق نفسه . لكن الجماهير تسير شوطا مع اي « واقع » قيادي ثم تفترق عنه — ببطء وتردد ، غالبا ، يفسرهما حجم الثقة السابقة وحجم التضحيات — حين يفترق هو عن تطلعاتها الاساسية . ولا يجوز لنظام او قيادة ، في هذه الحالة ، ان يتعلل بالضرورة القصوى وان يسأل الجماهير عن بديل فوري ، حال هو — او شارك في الحؤول — دون امكانه . لكن البديل يولد ، ولو بعد حين . وقد تحتاج ولادته سليما الى اكثر من اجهاض آخر . فالواقع في نظر الجماهير هو واقع تطلعاتها وواقع طاقاتها القابلة للتحرير في سبيل هذه التطلعات ... وليس هو ، في اي حال ، ظرفا يملي التخلي عن التطلعات نتيجة لتقييد الطاقات . ولا شك ان طائلة التخلي تقع على الانظمة العربية ، قبل ان تقع على اية قيادة فلسطينية . لكن اسلوب القيادة الفلسطينية القائم على تقديم هزيمة كبرى في صورة النصر يجعل تجزئة المسؤولية امرا صعبا للغاية . ولو ان الجماهير تلتزم — ايا كانت مصالحها — بـ « واقع » الانظمة والقيادات ، لكانت تتبنى كل هزيمة وتصفق لكل مهزوم ، لانـه ليس ثمة قيادة او نظام يقبـل الهزيمة في غـير حالة « الضرورة القصوى » .

من هذا الرفض لـ « واقع » لم تصنعه الجماهير العربية بل فرض عليها تكسب قوى الرفض — فلسطينية وعربية — شرعيتها التاريخية . وهي لا تكسبها من اي بديل جاهز للتسوية يطلبه سفسطائيو المآزق المنطقية الجديدة ... عدا ذلك لا تنقذ دولة الضفة والقطاع (او بعضهما) شعب فلسطين من تمزق تعاظم التهويل به . بل هي تدخل ذريعة في يد الانظمة لتشتيت جديد ، لن تكون الدولة لحمته ، قد يأتي اكثر بطئا ، لكنه لا يكون اقل اتساعا . رغم هذا لا تصفي الدولة ، قضية شعب فلسطين ، بل قضية المسؤولين عن قيامها (عدا الذين تستعد الدولة للفظهم منذ الآن ويستعدون لنشر نقدهم الذاتي ... بعد ثلاث سنوات او اربع) . ولا تستطيع قضية الشعب الفلسطيني ان تعود الى حلبة النضال العربي ضد الامبريالية والصهيونية الا على انها جزء من حركة تحرر وطني عربية ذات قيادة طبقية جديدة تتجه نحو فلسطين عبر نضالها القومي ضد الامبريالية والانظمة التابعة على اختلافها . لذا فان الهدف الاستراتيجي لقوى الرفض لا بد ان يكون تحقيق تحولها ، في المواكبة المديدة لنضال الجماهير ، الى حركة تحرر قومية جديدة . والا كان الرفض سحابة في صيف القبول ...

هل تسهل العلاقات القومية بعد التسوية قيام هذه الحركة ؟ من الواضح ان دعاة التسوية ودولة الضفة والقطاع يأملون لـ « جبهة » الانظمة ان تبقى قوة صاعدة في العالم لا ترد الامبريالية لها طلبا ، بحيث ينتهي الامر تلقائيا الى تقلص اسرائيل وركوعها امام الجبروت المستجد ... من شأن هذا الوهم طبعا ان ينفخ الدولة المقبلة ليحيلها مملكة مترامية الاطراف . لكن واقع الانظمة ، هذه المرة ايضا ، في مكان آخر . فالوحدة صائرة الى شتات . والائتمار بأوامر الامبريالية سيظل يغلب املاء الاوامر عليها . والانظمة ، حسب حالاتها ، تتراوح بين انهيار كاسح وصعود كبير هو من نصيب اقلها صلة بالنضال الوطني . وعوامل القوة الثابتة في وضع اسرائيل — رغم حدة ازماتها وشدة ما تلقته من ضربات سياسية — تعود الى البروز في أعقاب التسوية ، اذا خفّت وطأة الحصار العربي المضروب عليها ، في العالم (وربما في الوطن العربي نفسه) ، وهو أمر يحتم (عودة العلاقات مع الكتلة السوفياتية وزيادة الهجرة منها ، ارتفاع الحرج عن اوروبا الغربية ، العودة الى بعض المواقع في العالم الثالث رغم مقاومة عربية تتضاءل فعاليتها تدريجيا) . لكن هذه العوامل نفسها تعيق وحدة الحركة الجماهيرية . ولا يتبع انقسام الجماهير تماما خطوط انقسام الانظمة وصراعاتها . بل هي تتبع خطوط الاستيعاب او اللفظ الطبقي المختلفة التي يرسمها اختلاف طاقات الانظمة ووجهاتها . وتحدد طاقة النظام ووجهته ايضا مدى انفتاح الافق امام حركة اصلاحية في قطر معين . من الجهة الاخرى ينشيء تنوع البنى التقليدية (الاقليات القومية ، الطوائف ، القبائل الخ ...) عقبات مختلفة باختلاف الاقطار امام وحدة الحركة الجماهيرية . وتحدد هذه العوامل مجتمعة مستوى المجابهة مع الامبريالية ومستوى الوحدة في حركة التحرر القومية . ان رسم صورة مجسمة ملموسة للقوى الجماهيرية العربية بعد التسوية تبعا لتوزع هذه الخطوط المجردة في الواقع ، يبرز طول المسافة التي تفصل الجماهير العربية عن نشوء حركة تحرر وطني جديدة لها من الشمول ما كان للحركة القومية في اوج الناصرية مثلا ، لكنها تختلف عنها في المضمون الايديولوجي — الطبقي وفي دور الجماهير وفي التنظيم وفي مستوى المجابهة . ولا يغير طول

المسافة شيئا في الهدف الاستراتيجي . لكنه يعلم الحذر من اعلانات التأسيس والوحدة الطنانة ، المنفصلة عن نضال الجماهير والمستبقة — في الوهم — لوحدتها الفعلية ، ويعلم الحذر من الغرق ، باسم « اصلاحات » و « مكاسب » لا تصمد ، في حبائل تنازلات جوهرية (من حيث واقعها الراهن او افقها المقبل) تؤدي الى اجهاض الحركة قبل تماسك بنائها .

نتائج عامـــة

اخيرا ، نقدم بعض النتائج العامة :

أ — ان التسوية السلمية للصراع العربي — الصهيوني لا تسوي شيئا بحد ذاتها ، اذا واجهناها على انها صراع سياسي ينتهي الى وفاق دبلوماسي . فهي لا تحل أيـــا من التناقضات الاساسية بين الشعوب العربية واعدائها (الامبريالية ، الصهيونية ، الانظمة العربية) . وهي لا تخطو بالجماهير الى الامام نحو هذا الحل الا من حيث انها تفضح امام الجماهير ، تدريجيا ، افقها المعادي لمصالح هذه الاخيرة .

ب — ان اهمية التسوية تنجم عن ابرازها وجهة سابقة عليها . اي عن فضحها لاتجاه بورجوازيات الدولة العربية نحو الخروج من حركة التحرر الوطني العربية والانخراط في معسكر الانظمة التي انشأتها الامبريالية وتولت حمايتها . وتتجه هذه البورجوازيات بعد التسوية ، الى استنفاد ما يقدمها اليها انخراطها الجديد من وسائل لحل ازمتها الحادة . ويتفاوت المدى الذي يستغرقه هذا الاستنفاد ، لكن التوصل الى حسم لأصول الازمة مستبعد في كل الحالات .

ج — ان مظاهر التصلب التي ترافق التسوية في اقطار النفط لا تشير الى تحرر مفاجيء ولا تتعدى اعادة صياغة لعلاقات السيطرة الامبريالية تنطلق — في الدرجة الاولى من مصالح الامبريالية نفسها ، وتمنح اكثر الانظمة تبعية لها وسائل صمود جديد وتدخل جديد ، في اقطار عربية اخرى . واذا كانت هذه الانظمة تجني مكاسب واضحة من اعادة الصياغة هذه ، فان النهب الامبريالي مستمر وهدر الثروة القومية مستمر والعالم الثالث في جملته يجني من اعادة الصياغة نفسها دمارا جديدا .

د — ان التسوية لا تصفي الشعب الفلسطيني ولا قضيته . لكنها تضع عقبة ضخمة امام مواصلة النضال الفلسطيني على المستوى الذي اتسم به طوال الاعوام الماضية . ويملك هذا النضال حظا وحيدا — ضخما — في الافضاء الى الانتصار هو حظ التحالف العضوي — في افق قومي — مع حركة الجماهير العربية المعادية لأنظمتها ، ضد الامبريالية وبالتالي ضـــد الصهيونية ، وذلك خلال مشاركة مديدة في بناء هذه الحركة .

هـ — ان التسوية — نتيجة لما تحمله من امكانات خادعة ونتيجة لطبيعة

القوى في حركة التحرر الراهنة — تفتت هذه الحركة وتنقل قوى عدة منها الى معسكر الانظمة وتتيح لهذه الاخيرة استقطاب فئات طبقية جديدة وتجبرها على لفظ فئات اخرى هي الاقرب الى الثورة . لكنها تفتح امام قوى التحرر الاخرى مجالا للمراجعة ولتوجيه النضال الى خط جذري في مضمونه الطبقي الوطني الاشتراكي .

و — ان جبهة الانظمة العربية والقوى المتحالفة معها في الظرف الراهن غير مرشحة للصمود طويلا بعد التسوية . وان عناصر السلوك المحوري ستكون اقوى من اي وقت مضى . وسيكون الصراع العالمي المستتر خلف نزاع الانظمة او المكشوف بالغ الشدة ايضا ، على نحــو يفضح دعاوى « الاستقلال » التي تجري اذاعتها الآن .

ز — ان الازمة التي تضافرت الحرب وازمة العالم الامبريالي على اطلاقها في اسرائيل ليست بداية نهاية « سلمية » للدولة الصهيونية . فسيكون في وسع هذه الدولة ان تجد بعد هزة التسوية عناصر تماسك وقوة جديدين : من فك الحصار العالمي (والعربي ؟) الى هجرة يهود الاتحاد السوفياتي الى القدرة على حفظ نسبة من التوتر في محيطها تكفل لها استمرار دعــم الرأسمالية اليهودية في العالم . هذا عدا مركزها المتميز ، المتضافر هذه المرة مع مراكز عربية اخرى زادت قوتها ، في حماية المصالح الامبريالية من اي تهديد ثوري (يبرز في مصر او سوريا او الاردن او لبنان ، الخ . . .) .

مهات لا أصنام..

ماذا نفعل اذن ؟

أ — ان رفض التسوية ليس — بالدرجة الاولى — عملا ظرفيا لاحباط الجهد الدبلوماسي المنتهي اليها . فرغم ضرورة اتخاذ الموقف المنبثق مــن مصالح الجماهير لدى كل بادرة جديدة تصب في هذا الجهد ، يبقى النضال الاساسي نضالا ضد الاصول الطبقية للوجهة التي آلت الى التسوية وضد الاعداء الذين يدعي الطرف العربي ، في التسوية ، انهاء الصراع معهم .

ب — ان الهدف الاستراتيجي الذاتي للقوى الثورية العربية هو بناء حركة التحرر القومي على نضال الجماهير ، مستقلة عن بورجوازيات الدولة وسواها من الانظمة العربية . ولا يعني ذلك ابطالا سحريا للتفاوت القطري ولا صيغة واحدة للتحالف الطبقي في كل الاقطار . لكن وضع الاقطار العربية الكبرى ، بعد ان فشلت بورجوازيات الدولة في حل المشكلة الوطنية ومشكلة الوحدة القومية ومشكلة النمو الملتزم بمصالح الشعب ، بات يفرض الوجهة الاشتراكية ، بمعنى ديمقراطية الجماهير وسيطرتها المباشرة على الخلايا المتراتبة في التشكيلة الاجتماعية ، لا على انها حل لمشكلة النمو وحسب ، بل على انها ايضا حل للمشكلة الوطنية — القومية .

ج — ان الهدف الاستراتيجي الموضوعي لحركة التحرر القومي الجديدة هو اذن بدء تشييد هذه الاشتراكية . ولا يستطيع هذا التشييد ان يبدأ دون

مواجهة مع الامبريالية والصهيونية . ولا يمكن ان يتم سلفا تحدد الصورة التي تتخذها هذه المواجهة ولا تحدد حلفاء الحركة الثورية فيها . لكن صورة حرب الشعب (وهي اداة انتصار الشعوب المغلوبة في العالم منذ اربعين سنة) تقدم تحديدا لدور الجماهير في المواجهة وصلة بين المعركة الوطنية والمعركة الطبقية وصيغا للتنظيم يدل غناها على انها غير معدة للنقل الآلي .

د — ان مسألة التنظيم حاسمة . وهي ليست فنية محايدة ، بل تحمل دائما دلالة طبقية . فحالما يتخذ التنظيم صيغة تقطعه عن مستوى التجربة الجماهيرية ، يكون قد باشر الانتقال الى موقع طبقي آخر . لذا يظهر اضفاء الصيغة الحزبية المقفلة مباشرة على التنظيم وتكليفه مهمة التوحيد ، بعد ذلك ، امرا مثيرا للحذر لا بد للقوى الثورية القائمة من التروي كثيرا قبل الحكم له او عليه . ولا يغنيها لينين او سواه في شيء عن تفحص الواقع الذي هي فيه . ان ما يفرضه الواقع الآن ، في ما تتلقى القوى الثورية ضربة قوية نتيجة للتسوية ، هو الحفاظ على النوى القائمة ودخولها في كل الخلايا التي تتلاطم داخلها حياة الجماهير اليومية . ولا يكون التوحيد (في التنظيم او الاسلوب او الاهداف المباشرة او الفكر) مطلوبا لذاته ، ويكون ضروريا بالطبع حين تثبت فائدته . في هذا الضوء يبدو مشروع الحزب الشيوعي العربي او ما شاكل فقاعة كبيرة .

هـ — ان على المناضلين الثوريين ان يبرزوا دائما ما هو مضمر في تحركات الجماهير المطلبية من افق وطني . ولا بأس ان يؤدي ذلك الى نقد المطالب المباشرة للتحرك شرط ان يكون النقد قابلا للاستيعاب . وعليهم ان يشددوا على المطالب التي تبني وحدة عضوية للجماهير (غير قائمة على المصلحة الفردية او الفئوية) وعلى تلك التي تؤول الى رقابة الجماهير الديمقراطية على هذا او ذاك من مرافق حياتها . وان عليهم ان يقاوموا القمع بكل صوره وان يدافعوا ، ضد الانظمة ، عن مؤسسات ديمقراطية تستفيد منها الجماهير نسبيا ولو كانت زائفة . لكن عليهم ان يتفادوا دائما كل انخراط في الشرعية من شأنه ان يحبس حركة الجماهير لقاء مكاسب وهمية وانتفاخ وهمي في الصفوف — وعبر سياق معروف — في افق اصلاحي بورجوازي فقير .

و — ان القمع الاجتماعي والقهر الوطني يفرزان العنف ، في صفوف الجماهير ، على اختلاف صوره . ولا يبرز المدى الحقيقي لهذا العنف دائما في المبادرة العنيفة نفسها . ان على المناضلين ان يشاركوا في هذا العنف ضمن الفئة الجماهيرية التي ينتمون اليها او يستطيعون التضامن معها ، وعليهم ان يوضحوا معنى العنف الحقيقي . على مستوى آخر تقبع مرافق رئيسية من شبكة السيطرة الامبريالية والقهر الاجتماعي خارج متناول الجماهير في نضالها اليومي . ان التصدي العنيف لهذه المرافق ، حين ينجح في كشف دورها وفي الالتقاء بمشاغل الجماهير الظرفية هو تصد حري بكل مساندة ، وهو جزء من مستوى مستقل نسبيا في النضال الجماهيري هو مستوى النضال ضد الامبريالية مباشرة ، وهو يطال بالطبع ايضا تبعية النظام ومصالح الفئات الطبقية او المؤسسات التابعة . ولا يستتبع هذا الموقف تقديسا للعنف في ذاته ولا يمنع من شجب مظاهر العنف التي تتجه ضد الجماهير رغم بروزها من صفوفها او تلك التي تعزل او تشق تحركا جماهيريا معينا دون مبرر سياسي مقبول .

ز ـ ان الصلابة النضالية (السياسية والايديولوجية) في الموقف الوطني الثوري بعيدة تماما عن اي تصلب عنصري . فلا يمكن ان تعني مثلا تأييد السلطة العراقية في قمعها للاكراد بسبب تضامنها مع حركة رفض التسوية السلمية ؛ وتستطيع هذه الصلابة أن تميز موطن المسؤولية الرئيسي عن انحرافات الحركة الكردية . بل ان ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية نفسها ـ وهو يؤول الآن تأويلات شتى ـ ليس كتابا مقدسا . فلا ينبغي ان يستبعد مثلا وصول الفلسطينيين واليهود الى صيغة تعايش مختلفة عن صيغة « الدولة الديمقراطية » الواحدة . يتم ذلك حين يرتضيه الطرفان في وضع يقوم على التكافؤ ويخلو من القهر القومي وامكانات الاستغلال والسيطرة ويتيح احتراما متبادلا ، خاليا من العنصرية لوجود الشعبين الوطني . ان العودة الى بحث هذه المسألة ليست اشتغالا بخيال بعيد ، بل هي شرط لموقف نضالي يضع الحرب العربية والنضال اليهودي ـ الراهن او المقبل ـ ضد الصهيونية خارج دائرة الخوف المتبادل من الابادة ويمنحهما مضمونا متضافرا معاديا للامبريالية .

ماذا يرى اشياخنا من اساطين اليسار التقليدي ـ اكانوا مع التسوية او ضدها ـ في هذا الموقف ؟ اذا اتسعت صدورهم لقراءة هذا المقال ـ او اي كلام آخر يشبهه ـ فلا بد انهم سيبصقون من بطونهم بعض الافاعي المجففة : انهزامي ، انقسامي ، عفوي ، عدمي ، مغامر ... وقد اعتاد كثيرون من الناس هذه التهم حتى باتوا مسوقين الى تبنيها حين توجه اليهم . ما دام اليهودي ـ حسب سارتر ـ يهوديا بفعل نظرة الغير اليه ... ويشاء الحظ العاثر أن تصح هذه التهم جميعا (وربما سواها) في الموقف الذي يعرضه مقالنا هذا . فهو انهزامي لانه يرى ان الحركة الوطنية في المشرق قد ضربت ولا يرى في افق الغد القريب ما يطيح بالتسوية وقواها . وهو انقسامي لانه لا يرى ان الحزب الثوري ، في لبنان مثلا ، ناهيك بالحزب الشيوعي العربي ، ينبت وردة جورية في اناء المكتبة ، ولا يرى ان الحركة الوطنية في اي قطر مشرقي او الحركة القومية موحدة سلفا او ان التقاء القيادات المنظمة على التوحيد يكفي لتحقيقه . وهو عفوي لانه يرى ان نضال الجماهير هو الاصل وان التنظيم الثوري لا بد ان يكون ابتكار هذا النضال وامتداده لا شيئا مفروضا عليه . وهو عدمي لانه يقول بالثورة ولا يرى في مراكمة المكاسب الاقتصادية الصغيرة طريقا لرفع الاستغلال ولا في الانخراط الشرعي سبيلا الى السلطة الثورية ولا في التسوية السلمية هزيمة للصهيونية او للامبريالية ولا ـ طبعا ـ للرجعية . وهو مغامر لانه يرى ـ مع راهب دومينيكي(1) ـ أن الواقع يثأر دائما من « الواقعيين » ولا يرى ، مع هيغل ، ان « ما هو كائن فهو خير » ولا ينصاع لـ « اجماع فقهاء المدينة » . وهو انهزامي ـ مرة ثانية ـ لانه لا يحلم بالجلوس في حضن الامة العربية ، مدللا ... يكفيه ان يتعرف فيه مناضل واحد على شيء من وعيه او لا وعيه وان يجد منه بعض همة جديدة .

لكن حبة رمل في صرح الثورة العربية خير من لبنة كبيرة في ماخور الهزيمة ...

عباس بزي

(1) ـ جان كاردونيل ، من مقال عن الثورة الصينية في « لوموند دبلوماتيك » ـ عدد تشرين الثاني ١٩٧٤ .

هاني مندس

حول طبيعة السلطة في مصر

ارغب في التنويه ، بادىء ذي بدء ، بأنني افضل طريقة الاجابة بصورة مباشرة عن بعض الاسئلة الموجهة من مجلة « مواقف » ، وذلك بسبب بعض التحفظات المنهجية على الخلفية الفكرية والسياسية في بناء صياغة وطرح الاسئلة نفسها . فبعض هذه الاسئلة يبدو كأنه ينطلق من معطيات ومفاهيم هي بحد ذاتها عرضة للنقاش والتعديل والتدقيق . واعتقد بأنني سواء في ابداء بعض الملاحظات المنهجية على بعض هذه الاسئلة او من خلال اجابتي عنها في آن ، لا ابتعد عـن جوهر الغاية التي تتوخاها مجلة « مواقف » « باثارة نقاش سياسي واسع » ، بـل اعتقد بأنني اسهم بشكل افضل في توكيد هذه الغاية .

وسوف اركز ملاحظاتي على السؤال الاول بالذات لكونه يحتوي ، بدرجات متفاوتة ، عناصر مشتركة مع الاسئلة الاخرى .

ان الافتراض بأنه تمت تحولات سياسية واقتصادية جذرية بعد وفاة عبد الناصر وممارسة السادات للسلطة تصب ، في التحليل النهائي ، في سياق تيار فكري وسياسي تحريفي ، لـه دعاته داخل مصر وخارجها . واصحاب هـذا التيار بينما يتسترون بلفظية « ماركسية » ومنهج شكلي انتقائي ولاتاريخي ، فانهم ابعد ما يكونون عن ادعاء التحليل العلمي الماركسي . وفي افضل الحالات ، من الناحية العملية الوظيفية ، لا يمثلون في كثير من اجنحتهم المختلفة سوى اليسار الناصري البورجوازي الصغير ، او المعارضة البورجوازية الصغيرة للمواقف السياسية التكتيكية لسلطـة البورجوازية البيروقراطية في عدد من الاقطار العربية .

ان من سمات هذا التيار انه يفصل بين عهد عبد الناصر وعهد السادات فصلا نوعيا وكأنه يتحدث عن نظامين مختلفين (نظام اشتراكي يتحول الى نظام رأسمالي !) ، وليس عن نظام سياسي طبقي له مسار تطوره التاريخي والسياسي في مرحلتي صعوده وهبوطه .

صحيح ان هناك فروقات واضحة بين عهدي عبد الناصر والسادات ،

ولكنها فروقات درجية يفرضها ويحتمها منطق التطور الداخلي للنظام نفسه في مرحلة هبوطه وافلاسه التاريخي وعجزه السياسي ـــ الاقتصادي كنظام بورجوازي بشكل جديد عن انجاز مهام مرحلة التحرر الوطني (الاستقلال السياسي والاقتصادي) . « فالتحولات السياسية والاقتصادية » التي يوحي السؤال بأنها حدثت « بعد » هزيمة حزيران ووفاة عبد الناصر « وممارسة السادات السلطة الفعلية » هي اولا « تحولات » ضمن آلية ونطاق العملية الرأسمالية ، وليست تحولات من المنجزات « الاشتراكية » (كما يروج البعض) ، وهي ثانيا ، وهذا هو الاهم ، تحولات بدأت جذورها قبل ذلك بوقت طويل .

ثم ان هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧ لم تكن هي العامل الاساسي وراء هذه التحولات الاقتصادية والسياسية (في اتجـاه التفريط بأسس الاستقلال الاقتصادي والسياسي النسبي الذي حققته البورجوازية البيروقراطية المصرية في مرحلة صعودها السياسي) . فالهزيمة كعامل خارجي على علاقة جدلية بطبيعة التركيب والبناء الاقتصادي ـــ السياسي والعسكري الداخلي للطبقة الحاكمة . وهي ، بدون شك ، قد سرّعت من معدلات مـا يطلق عليه البعض ، « بالتنازلات » الاقتصادية والسياسية امام الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية . علما بأن هذه « التنازلات » هي تعبير موضوعي عـن مصالح البورجوازية الحاكمة في مرحلة هبوطها وتفسخها ، هذه المصالح التي تتجه للعب دور شريك صغير ضمن اطار السيطرة الامبريالية ومن خـلال علاقات جديدة من التبعية . ولكنها في توجهها هذا انما تتنازل فعلا (هنا فقط يجوز الكلام بدقة عـن التنازلات) عن المصالح الوطنية للجماهير الشعبية وتخونها وتتخلى حلقة اثر اخرى عن اسس الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

ولكي نوضح ، بصورة رئيسية ، حقيقة التحولات السياسية والاقتصادية التي بدأت قبل هزيمة حزيران ووفاة عبد الناصر (وليس « بعد » ذلك) ، فان ذلك يقودنا الى الشطر الثاني من السؤال ، اي الى ضرورة تحليل المسار العام لطبيعة السلطة في مصر في مراحل تطورها المختلفة . وذلك من خلال ابراز المعلومات والمنعطفات الاساسية .

وهنا ، لا بد من التركيز على جانب التطورات الاقتصادية التي لا يوليها عدد كبير من الكتاب « اليساريين » اهمية حيوية فهم يكتفون بسرد مـا يجري على سطح الحياة السياسية من « تنازلات » و « تراجعات » دون جهـد الغوص الـى منطق العلاقات الانتاجية الطبقية وموقع السلطة في العملية الانتاجية .

ان تركيزي على هذا الجانب ، قد يضر بسياق التحليل المركب والجدلي الذي تتألف منه الحياة الاجتماعية والسياسية ولكن ضرورة ابرازه تقتضي (ونظرا لضيق المجال من جهة ثانية) القيام بعملية فصل نسبية . ولكن الثقة بالاطلاع السياسي للقارىء وقدرته على الربط قـد تعوض جزءا من هذا التقصير .

الاطار التاريخي العام لنشأة الرأسمالية المصرية

نشأت الرأسمالية المصرية ضمن اطار التبعية الامبريالية المباشرة . مما يعني عمليا ان نشأتها اتسمت بأنها رأسمالية بلد تابع يقوم اقتصادها على الصناعات التحويلية الخفيفة . وهذا مما طبعها باختلال النمو وتشوهه وافتقاره الى التوازن النسبي في قطاعاته المختلفة .

وقد سار نموها وتطورها الاقتصادي والسياسي ببطء شديد حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، « اذ كانت غالبية المشروعات الصناعية والتجارية المتوسطة والكبيرة ملكا لرؤوس الاموال الاجنبية ، حتى بلغ نصيب هذه الاموال في الشركات السابق تكوينها على عام ١٩٣٣ مبلغ ٧٥١ر٧٣٣ر٦٠ مليون جنيه مصري مقابل ٦٣٥ر٠٠٦ر٦٠ مليون جنيه مصري لرؤوس الاموال المصرية »(١) . فلقد بلغت نسبة رؤوس الاموال المصرية في الشركات التجارية والمؤسسات الصناعية والمالية المختلفة التي يرجع تكوينها الى ما قبل ١٩٣٣ نسبة تعادل ٩٪ فقط مقابل ٩١٪ للعناصر الاجنبية . ولكن ارتفعت هذه النسبة في الشركات المؤسسة حتى عام ١٩٣٤ الى عام ١٩٣٩ الى ما يعادل ٤٧٪ من مجموع رؤوس الاموال . ثم ما لبثت ان قفزت بعد الحرب العالمية الثانية « من ١٩٤٠ الى ١٩٤٥ الى نسبة ٦٦٪ مقابل ٣٤٪ ثم قفزت قفزة ثالثة في الشركات المؤسسة من ١٩٤٦ الى ١٩٤٨ حيث بلغت ٨٤٪ مقابل ١٦٪ للاستثمارات الاجنبية »(٢) .

وككل الرأسماليات في البلدان التابعة للامبريالية ، فقد اتاحت ظروف الحرب وتعذر المواصلات وتوجه الاقتصاد الامبريالي نحو الصناعات الحربية وتوفير السلع والمؤن الاساسية وحاجة الجيش الاجنبي المتنوعة والمواطنين الى تطور بعض الصناعات والسلع الاستهلاكية التي كانت تستورد من الغرب . هذا علاوة على ضعف الامبريالية البريطانية وبداية انتقال مركز الثقل الامبريالي بعد الحرب العالمية الثانية من بريطانيا واوروبا الى الولايات المتحدة . فبينما كان الجزء الاكبر من الانتاج الصناعي بعد الحرب العالمية الاولى مبعثرا في مصانع وورش صغيرة ، اصبح نصف عمال الصناعة بعد الحرب العالمية الثانية وطبقا لاحصاء ١٩٤٥ يتمركزون في مصانع تستخدم من ١٠٠ عامل فأكثر . فنتيجة لضعف احكام السيطرة الامبريالية اثناء الحرب « ارتفعت رؤوس الاموال المستخدمة في الشركات المساهمة الصناعية وحدها من ١٥ مليون جنيه عام ١٩٣٩ الى ٣٣ مليون جنيه عام ١٩٤٦ . وقد رافق ذلك تغير في التركيب الصناعي فأصبح الجزء الاكبر محصورا في عدد قليل من المصانع المزودة بالآلات الحديثة نسبيا . لقد اصبح ٥٨٪ من العمال الصناعيين مركزين في قرابة ٥٨٣ مصنعا ، بل ان نحو ثلث العمال الصناعيين اصبحوا مركزين في ٦٤ مصنعا فقط لا غير »(٣) .

وللتدليل على مدى غلبة طابع الصناعات التحويلية على الرأسمالية المصرية ، حتى بعد تطورها واتساع سوقها بعد الحرب العالمية الثانية ، نشير الى ان صناعة النسيج كانت تمثل ٣٦٪ من كل الذين يعملون في الصناعة بمصر ، والصناعات الغذائية كانت تمثل ٣٥٪ . اي ان هاتين

الصناعتين التحويليتين وحدهما كانتا تمثلان عام ١٩٥٢ حوالى ٧٠٪ من القيمة الاجمالية في الصناعة . وبتحديد اكثر دقة لطبيعة القطاع الصناعي في مصر قبل ١٩٥٢ فاننا نرى ان الصناعات الاستهلاكية تمثل ٧٤٪ من القيمة المضافة . والصناعات الوسيطة ٢٤٪ من القيمة المضافة والصناعات الاستثمارية الرأسمالية ٢٪ فقط من القيمة المضافة وذلك عام ١٩٥٠ . وبصفة عامة ، لم تكن تمثل الصناعة المصرية (بطابعها التحويلي) حتى عام ١٩٥٢ سوى ١٥٪ من الانتاج القومي وتؤمن العمل لحوالى ١٠٪ من قوة العمالة في المجتمع المصري .

مشاكل نمو الرأسمالية وانقلاب يوليو ١٩٥٢

على عكس ما تروج له بعض التيارات « اليسارية » بأن انقلاب ١٩٥٢ كان انقلابا بورجوازيا صغيرا ادى الى سيطرة الطبقة البورجوازية الصغيرة على السلطة ، هذه الطبقة التي ما لبثت (هي او بعض شرائحها العليا) ان تحولت فيما بعد الى طبقة بورجوازية « جديدة » او رأسمالية دولة ؛ فان ما حدث بالفعل انطلاقا من المفهوم التاريخي للصراع الطبقي في تلك الحقبة من تاريخ مصر هو ان انقلاب عام ١٩٥٢ جاء لانقاذ ازمة الطريق الرأسمالي ولصالح حل مشاكل نموها وتفاقم الاوضاع في ظل التنامي المضطرد لحركة شعبية مؤثرة في الاحداث السياسية في تلك الآونة . فقد بدأت هذه الحركة الشعبية تخرج عن الاطار السياسي التقليدي للبورجوازية المصرية « الوفد » مشكلة اطرها السياسية والجماهيرية المستقلة (لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦) وعددا من التنظيمات اليسارية المستقلة بما في ذلك « اليسار الوفدي » . وقد اخذت هذه التنظيمات ، على قصورها وتعددها ، تقود النضال الجماهيري الجديد في الحياة السياسية المصرية وخاصة في المدن . وباتت تهدد ، في حال استمرار الاوضاع وتفاقمها ، استمرار الطريق الرأسمالي التقليدي بكل عوائقه ومشاكله وازماته . ذلك لانه بالرغم من تزايد الدخل القومي فان متوسط الدخل الفردي كان في انخفاض مستمر . فقد كان متوسط الدخل الفردي ١٤٤ جنيها في السنة عام ١٩٠٧ في حين بلغ ٨٤ جنيها فقط عام ١٩٥١ ! وهذا مما شكل ارضية سياسية لتفاقم النقمة الشعبية في تلك الآونة ، فلم تكد تخلو مصر ، خاصة في الفترة التي سبقت انقلاب يوليو/تموز من المظاهرات السياسية والاضرابات العمالية والطلابية والمهنية المختلفة . فلقد جاء في نشرات اتحاد الصناعات المصرية لاعوام ١٩٥٠ و ١٩٥١ و ١٩٥٢ ان « المؤسسات الصناعية نتيجة لعدم استقرار الاوضاع السياسية بدأت تعاني الكثير من الازمات » .

صحيح ان عددا لا بأس به من تنظيم الضباط الاحرار كان ينتمي من حيث اصوله الطبقية الى الفئات المختلفة التي تشكل البورجوازية الصغيرة ، الا اننا في ظل علاقات انتاج محددة وصراع طبقي معين لا نحكم على نشاط الافراد بأصولهم الاجتماعية ، بل على الدور الوظيفي الذي يؤدونه ضمن اطار العلاقات الانتاجية القائمة ، والتي في هذه الحالة التاريخية المحددة كانت لخدمة طريق النمو الراسمالي بشكل جديد .

« فكلما ازداد نمو الراسمالية المصرية برزت امامها قضية العلاقات المتخلفة في الريف كعائق هام امام هذا النمو ، وكلما اشتد خطر الجماهير الشعبية ، بـدأت تستكمل وعيها وتعرف طريقها الـى الاشكال المختلفة للتنظيمات الاقتصادية والسياسية المستقلة ، برزت (بالتالي) خطورة الاشكال البرلمانية والحريات السياسية النسبية .

وكانت حركة ٢٣ يوليو/تموز مخرجا لتفاقم ازمة الحكم في النظام القديم ومحاولة لان تستكمل البورجوازية القومية سيطرتها الكاملة على السلطة والاقتصاد . وان تفتح الطريق امام تطور العلاقات الراسمالية في مواجهة اوضاع عالمية جديدة ، وعلى الاخص لتوجيه الضربات الى حركة الجماهير الشعبية ومكاسبها الديمقراطية . فلم تكن السلطة الجديدة بقادرة على ان تقفز خارج العلاقات الطبقية التاريخية ، لقد ظلت تمارس دورها الاقتصادي كحلقة من حلقات الثورة البورجوازية تتطلع الى افق جديد »(٤) .

ويلاحظ ان الراسمالية الفردية (التي ضربت رموزها الكبيرة عام ١٩٦١) بعد عام ١٩٥٢ قد تطورت بوتائر عالية من حيث تحقيق معدلات عالية في الربح وذلك في الصناعات التحويلية كالغذاء والنسيج والاسكان .

لقد كانت السلطة الجديدة مدعوة للعمل على ازاحة العقبات السياسية (تصفية النشاط الديمقراطي السياسي للجماهير الشعبية) والاقتصادية امام النمو الراسمالي وخاصة في المجال الصناعي . فلم تتدخل السلطة في البداية للقيام بنفسها ، كما فعلت فيما بعـد حين احجم راس المال الفردي عـن توظيف نسبة من ارباحه في مجالات الصناعة والمساهمة في مشاريع طويلة الاجل .

ففي البداية حرصت السلطة بعد ١٩٥٢ على « تهيئة الاجواء الملائمة لنمـو وتشجيع رأس المال الخاص وازدهار المشروعات الحرة الفردية » (نقلا عن نشرة « لجنة التخطيط القومي » رقم ٦٣ ص ١٧ و ١٨) .

وفي هذا الصدد اعلنت حركة يوليو استعدادها لـ :

١ ـــ تقديم كافة الحوافز بصورة محددة **للاستثمارات الخاصة** لايداع مدخراتها في المؤسسـات الصناعية .

٢ ـــ منح الحكومة اعفاءات من ضرائب الدخول للشركات الصناعية لمدة سبع سنوات . كما اعفت الارباح المتخصصة من الاصدارات الجديدة لأسهم الشركات القائمة من الضريبة لمدة خمس سنوات واعفت الارباح غير الموزعة كلها من ٥٠٪ من ضريبة الارباح بمقتضى القانون ٤٣٠ لسنة ١٩٥٣ .

٣ ـــ توسيع نطاق الحماية الجمركية في الصناعة .

٤ ـــ تشجيع المدخرات الراسمالية الصغيرة عن طريق القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٥٤ الخاص بتنظيم الشركات المساهمة الذي نص على تخفيض الحد الادنى للسهم الى جنيهين فقط بدلا مـــن ٤ جنيهات . وفي عام ١٩٥٤ صرح

رئيس مجلس ادارة البنك الاهلي « ان مشاعر القلق والخوف في عالم رجال الاعمال مـا لبثت ان تبددت في غضون عام ١٩٥٤ » واشاد بدوره رئيس مجلس ادارة بنـك مصر « بالسياسة الحكيمة للسلطة في نجـاح التطور الاقتصادي » . وكان محمد نجيب قد صرح في ١١ اغسطس/آب عام ١٩٥٢ في بيان مشروع الاصلاح الزراعي الاول أن « الغرض منه تقريب الفوارق الشاسعة بين الطبقات ... وتحويل رؤوس الاموال للصناعة حتى ترقى البلاد بصناعاتها » . فمشروع الاصلاح الزراعي كان لحماية كبـار الملاك البورجوازيين (من ٥٠ ـــ ٢٠٠ فدان) « وفتح آفاق اخـرى للاستغلال والاستثمار » كما صرح وقتها احمد ابو الفتح (وفدي) في جريدة « المصري » .

ولقد بدأ تدخل الدولة بشكل فعال في العمليات الاقتصادية الرأسمالية كنتيجة لتردد رأس المال الخاص في اقتحام مجالات صناعية معينة (الحديد والصلب ، الاسمدة ، الكابلات الكهربائية ، الصناعات التعدينية الخ ...) وهروبه من القيام بأعباء التنمية الصناعية وتوجهه في التوظيف نحو المجالات الاكثر ربحا (خاصة الصناعات التحويلية الخفيفة والاسكان) . فقد ارتفعت مثلا الاستثمارات في بناء العمارات من ٤٠ مليون جنيه عام ١٩٥٤ الى ٥١٫٤ مليون جنيه عام ١٩٥٩ .

وفي عام ١٩٥٦ قدر الدخل القومي المصري العام بحوالى ٩٠٠ مليون جنيه كان نصيب الصناعة منه ١٠٠ مليون جنيه فقط .

فقد كان من الملاحظ بوضوح « انخفاض وتدهور معدل تكوين رأس المال الثابت (وليس الدائري) في القطاع الخاص من ١١٣ مليون جنيه عام ١٩٤٩ الى ٧٦ مليون جنيه عام ١٩٥٦ »(٥) وهذا يعني ان القطاع الخاص كان يتجه لا نحو توسيع اطارات واسس الهيكل المادي للرأسمالية ، بقدر مـا يهمه ادرار ربح سريع والتوجه نحو مشاريع على هذا الغرار . فقد رفض رأس المال الخاص المساهمة في الخطة الاقتصادية الاولى بنسبة ٢٥٪ من جملة الاستثمارات في القطاع الصناعي . كما رفض المساهمة بنسبة ١٠٪ من الارباح في مشروعات طويلة الاجل . وهكذا « ادى احجام الرأسمالية التقليدية عن الاسهام في عملية التراكم اللازم لخلق القاعدة الرأسمالية الى تعاظم دور عناصر البورجوازية البيروقراطية وتزايد تمايزها وبروز مصالح لها مختلفة عن مصالح الرأسمالية التقليدية ، وكانت اجراءات يوليو/تموز ١٩٦١ « الاشتراكية » انفجارا لهـذا التناقض بـين مصالح البورجوازية البيروقراطية وبين البورجوازية التقليدية »(٦).

كما كانت هذه الاجراءات بداية لمرحلة **الرأسمالية الموجهة** عن طريق سيطرة جناح البورجوازية البيروقراطية المرتبط مباشرة بالسلطة التنفيذية على القسم الاكبر من العمليات الرأسمالية وخاصة في مجال الصناعة .

وقد لعبت السلطة التنفيذية (القيادة الناصرية) دورا سياسيا مميزا ومستقلا **نسبيا** في دفع هـذه العملية لصالح مجموع الرأسمالية واستمرار الطريق الرأسمالي بوجه عام .

ولن ندخل هنا في توضيح طبيعة هذا الدور الذي سيؤدي بنا الى جملة

قضايا وتداخلات نظرية وسياسية مركبة ، ولكننا نترك مهمة التوضيح هذه الى مناسبة اخرى .

واما عن دور عناصر البورجوازية البيروقراطية الجديدة فهو « اقامة راسمالية دولة تزيل العوائق امام تطور الراسمالية ، وتعمل على ان تصب كل مصادر التحويل في خلق قاعدة الراسمالية على اسس جديدة »(٧) .

وبالرغم من الدور التقدمي الذي لعبته هذه الطبقة ابان مرحلة صعودها في مواجهة رأس المال الاحتكاري الامبريالي وسياسة الاحلاف الاستعمارية في المنطقة ، وبناء الحد الادنى من هيكل اقتصاد راسمالي ، وقدرتها على تحقيق التراكم الرأسمالي ، بصورة اكثر فعالية ، عن طريق تدخل السلطة التنفيذية وضربها لقسم جناح البورجوازية الرأسمالية الخاصة ، وبالتالي تطوير قوى الانتاج ، بفضل المساعدة السوفياتية النشطة ماليا وتقنيا ، فان مشاكل وازمات رأسمالية جديدة قد اخذت تشق طريقها وتدفع بالطبقة البورجوازية البيروقراطية ، (والطريق الرأسمالي ككل) الى مرحلة هبوطها وعجزها السياسي والاقتصادي (تطوير قوى الانتاج داخل نمط العلاقات الرأسمالية) والى افلاسها التاريخي وعجزها السياسي وعودتها مجددا **بأشكال جديدة** الى حظيرة التبعية للامبريالية سياسيا واقتصاديا . وقد لعبت اسرائيل كعامل خارجي في هذه الناحية ، دورا كبيرا في تسريع معدلات عودة الرأسمالية الى حظيرة التبعية وذلك عن طريق احتلالها للاراضي واستنزافها اقتصاديا . ولكن الاحتلال الاسرائيلي وما استتبعه من نتائج ليس العامل الحاسم في هذا المجال ، بل عامل التركيب الطبقي للنظام ودوره في العملية الانتاجية وطريقة تنظيمه لامكانيات وطاقات المجتمع .

التراكم البيروقراطي لرأس المال لصالح الجماهير والتنمية الفعلية أم لصالح البورجوازية البيروقراطية ؟

لم يتم التراكم البيروقراطي لراس المال عن طريق تدخل السلطة البورجوازية لخدمة متطلبات الجماهير الشعبية والتنمية الاقتصادية الحقيقية ، بل لصالح الطبقة الجديدة نفسها وسائر الطبقات والفئات الطفيلية الاستغلالية في المجتمع . « فهناك اولا النمو الطفيلي للجهاز الاداري والتوسع في خلق المناصب العليا (٦١٪ من ناحية العدد و ٢١٥٪ من ناحية الدخل) مقابل انخفاض الوظائف العمالية في القطاع العام اثناء الفترة من عام ٦٢ الى ٦٦ — ٦٧ وقد زاد الاستهلاك في قطاع الدولة خلال خمس سنوات بمقدار ٢ر٥٥٪ مقابل ٢ر١٧٪ في قطاع الافراد (القطاع الخاص) ، اي ان ما هللت له صحافة البورجوازية البيروقراطية حول ارتفاع المقدرة الشرائية وزيادة الاستهلاك كان في حقيقته امتيازا طبقيا للمسيطرين على اجهزة الادارة والتوجيه ووضع الفائض تحت تصرفهم وعبئا على التنمية »(٨) .

« لقد ارتفعت اجور الوظائف العليا بنسبة ٢٣٠٪ وعددها بنسبة ٤١٥٪ وبلغت النسبة بين اعلى اجر وادنى اجر في السلم الاداري ٤٠ ضعفا

(والاجور احدى قنوات الدخل فقط) . ان اختلال هيكل الصناعات لصالح الاستهلاكية منها والتي تعتمد في انتاجها على السلع الوسيطة المستوردة من الغرب الرأسمالي كان استجابة — في الاساس — للطلب الناشيء عن التفاوت الهائل في الاجور ... »(٩) .

فالانتاج والحالة هذه « تتحكم فيه الطلبيات التي يتسع لها « السوق » . وهو يتجه لاشباع الطلب ، الذي يخلقه التفاوت الهائل في الدخول ، وذلك الطلب هو الذي يحدد الاولويات في الانتاج . حتى ان لم تكن القاعدة الاقتصادية قد نضجت لتلبيته ، مثل صناعة السيارات الخاصة والادوات المنزلية الكهربائية وسائر الكماليات مما يدفع المشروعات الى الاعتماد على سلع وسيطة واحيانا اساسية مستوردة باهظة التكلفة » .

يضاف الى ذلك ان فوضى الانتاج جزء اساسي من منطق رأسمالية الدولة التي لا تهدف الى تلبية الاحتياجات الاساسية للجماهير الشعبية . فلقد تطورت الرأسمالية المصرية كما ذكرنا في ظل السيطرة الاستعمارية فنشأت مشوهة ومختلة التوازن بين قطاعاتها المختلفة ، اي رأسمالية ضعيفة النمو . « فكانت برامج الاستثمار التي قامت بها الطبقة الحاكمة ذاتها كطبقة يقتصر كل دورها في العملية الانتاجية في التطفل عليها والاستئثار بنصيب الاسد في الفائض الاقتصادي ، لقد جاءت ما تسميه دعاية السلطة « بالخطة الخمسية » (من اوائل الستينات حتى منتصفها) لتعكس ازمة الاقتصاد الذي اقامته الطبقة الحاكمة ... فتخطت الزيادة في قطاع الخدمات المستهدف بنسبة ١٣٥٪ مع عدم تنفيذ خطة الانتاج نفسه . ففي الزراعة لم يتحقق المستهدف الا بنسبة ٦٣٫١٪ ، وفي الصناعة ٤٩٫٥٪ .

لقد تجاوزت الخطة المستهدف في القطاعات الثانوية وعجزت عن تحقيق المستهدف في القطاعات الاساسية (الصناعة والزراعة) اي نفذت بمعدلات ضعيفة نسبيا وحتى ضعيفة للغاية ، كما ذكر شارل بتلهايم ، كما زاد استهلاك الدولة بنسبة ٥٥٪ بينما لم يزد الاستهلاك الفردي الا بنسبة ١٧٫٢٪ طوال سنوات الخطة ، ولو اننا حللنا الاستهلاك الفردي ذاته فسنعرف كيف ان استهلاك السلع المعمرة (الاجهزة والمعدات الكهربائية) فاق كثيرا استهلاك السلع الضرورية الغذائية »(١٠) .

ان عجز الطبقة البورجوازية البيروقراطية عن القيام بتطوير قوى الانتاج والمضي قدما في طريق تدعيم اسس الاستقلال الاقتصادي اخذ يعكس نفسه في اتجاه صياغة علاقة جديدة بين قطاع الدولة والقطاع الخاص ومع السوق الامبريالية من الناحية الاقتصادية . وعلى الصعيد السياسي عبّر عن نفسه بمزيد من التراجعات والتهادنات مع الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية العربية (كطرح شعار وحدة الصف بدل وحدة الهدف ، وشعار تحويل روافد نهر الاردن بدل الاستعداد الجوي لمواجهة اسرائيل الخ ...) .

ولا ارغب هنا في التركيز على مثل هذه التراجعات السياسية الكثيرة للنظام المصري في مختلف مراحله . فقد تم التركيز على الجانب الحدثي منها في عدد من الادبيات السياسية « اليسارية » ، بدون كشف الجذر والاساس

الاقتصادي ـ السياسي لها (اي القاعدة المادية) ، وذلك من خلال تعيين موقع النظام الراسمالي من العملية الانتاجية واثر علاقات الانتاج الراسمالية علـى تطوير او تعويق قوى الانتاج وتنظيم طاقات المجتمع ازاء التحديات التي تواجهه .

ان هدفي هـو السعي لتعيين اتجاه المسار الموضوعي العام لتطور النظام من هذا المنطلق ، هـذا المسار الذي لا يخلو من التعرجات المختلفة والتي تصب في النهاية في السياق العام نفسه .

وبهذه الطريقة ، كما اتصور ، لا تعود السياسة سلسلة من المفاجآت والمراهنات ، بـل تصبح علما يعني في التوجه لدراسة تطور التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية .

لاننا بذلك فقط نستطيع ان نتبين المصلحة الفعلية للنظام في مرحلـة هبوطه الى توثيق عرى علاقته بالغرب الامبريالي وتقليص علاقاته بالاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، وقطع اشواط كبيرة على طريق التسوية التي تسير لصالح القوى الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية .

صحيح ان الاقتصاد لا يفسر مختلـف الجوانب والاصعدة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولكن اليست السياسة نفسها هي التعبير المكثف والمعقد عن الاقتصاد في نهاية المطاف ؟ فالاقتصاد هو بمثابة العصا التي تنتظم داخلها حلقات سائر السلسلة في المجتمع على اختلاف انواعها واحجامها مع ما لها من الاستقلالية النسبية في الحركة .

ونعود بعد هذه الملاحظة الى مواصلة العرض .

انخفاض نسبة الاستثمار في الصناعة الثقيلة

فبينما كانت الصناعات الراسمالية الثقيلة تمثل ٨٪ من الاستثمارات عام ١٩٦٥ انخفضت الى ٧٪ عام ١٩٧٠ واليوم تشير كافة الدلائل الـى استمرار زيادة انخفاضها . هذا بينما يزداد حجم الاستثمارات في الصناعات التحويلية الاستهلاكية .

العجز في ميزان المدفوعات

وفي منتصف الستينات اخذت ازمات التسويق والتصريف في البروز « فقد وصل العجز في ميزان المدفوعات وحده عام ٦٤/٦٥ الى ١٣٥ مليون جنيه . وبلغ مجموع العجز في ميزان المدفوعات في سنوات الخطة الخمسية ٥٩/٦٠ ـ ٦٤/٦٥ الى ٤١٧ مليون جنيه »(١١) .

ازدياد حجم المخزون السلعي والطاقات الانتاجية العاطلة

وبدات ارقام المخزون السلعي في التزايد سنة بعد اخرى ، فبلـغ

المخزون السلعي في ١٩٦٦/٦/٣٠ ٧٨ مليون جنيه وفي ١٩٦٧/٦/٣٠ ، ١٠٠ مليون جنيه وفي ١٩٦٨/٦/٣٠ ، ١٢١ مليون جنيـه . والمخزون السلعي سلع فائضة عن حاجات السوق المحلية وفي نفس الوقت توجد صعوبات في تصريفها في السوق الخارجية بسبب المنافسة . اما بالنسبة للطاقات العاطلة فقد بلغت ١٢١ر٥ مليون جنيه في قطاع الدولة الصناعي سنة ٦٩/٦٨ ... وبلغت ٢٠٠ مليون جنيه عام ١٩٧٣ .

ارتفاع نسبة البطالة

وكانت نسبة البطالة تتزايد من عام لآخر (ونورد هنا ارقام ما قبل الهزيمة كي لا يقال ان الهزيمة وحدها هي السبب في تزايدها فيما بعد) ، ففي عام ٦٥/٦٤ كانت نسبة البطالة ٦ر٩٪ وفي عام ٦٦/٦٥ ، ٧ر١٪ وعام ٦٧/٦٦ بلغت ٨ر٥٪ .

وفي حزيران ٦٧ كانت الهجمة الامبريالية الشرسة مـن خلال الاداة اسرائيل ، (كشكل خاص من اشكال التطويق الامبريالي لمحاولات عدد من الرأسمالية الوطنية الخاصة في البلدان المتخلفة الخروج النسبي من اطار التبعية) . وبدأت تبرز بشكل اوضح مدى قدرة هذه الطبقة على التصدي الفعلي ، كما بدأت تتفاقم طبيعتها المتهادنة مع الامبريالية . فتم تقديم التنازل للامبريالية والصهيونية والرجعية العربية في مختلـف المجالات السياسية والاقتصادية .

ولن نعدد هنا هذه التنازلات التي كان ابرزها الاعتراف بالقرار ٢٤٢ الذي يعترف بحدود آمنة لدولة اسرائيل ، السكوت عـن توجيه الضربات للمقاومة في الاردن ، المساهمة العملية في تصفية الحركة الوطنية في السودان ، اعلان سياسات الانفتاح الاقتصادي ضمان الرساميل الاجنبية وحقها في تحويل ارباحها بدون فرض اي شروط ، المناطق الحرة ، الخ ... هـذه السياسات التي تمس اسس الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

مغزى سياسة الانفتاح الاقتصادي

من المعروف ان تصدير رأس المال من قبل الاحتكارات الامبريالية المختلفة هو وسيلة للاستيلاء على الخامات الرخيصة وخلق وتوسيع اسواق التصريف امام المنتجات والسلع الرأسمالية العالمية ، حيث تكون النتيجة هي النهب المتزايد وحرمان البلاد من تراكم رأس المال اللازم لتطوير وتدعيم الاقتصاد الوطني .

فمثلا قدمت الهيئات الاجنبية بعد حرب اكتوبر/حزيران ٢٣٥ مشروعا للاستثمارات في البلاد . تقدره رؤوس اموالها مجتمعة بنحـو ٥٤٣ مليون جنيه . منها ١١١ مليون لمشروعات داخلية ، و ٤٣٢ مليون للمناطق الحرة .

ان رأس المال الاجنبي « الوافد من الدول الامبريالية » يحجم عـن التوظف في مجـال الصناعة الثقيلة (دعامـة الاستقلال الوطني) . ان

الاحتكارات الرأسمالية لـن تقيم الصناعات التي تنافس منتجاتها وتهدد حصولها على اقصى ربح ... انها تستثمر اموالها في الصناعات الاستهلاكية والتي تحقق ارباحا ضخمة وسريعة او في الصناعات الاستخراجية التي تدر ارباحا هائلة لرأس المال الاجنبي ... فمثلا تتجه الاستثمارات الامبريالية الـى انشاء مصانع للملابس الداخليـة للسيدات ومصانع لانتاج الفراش ومطافىء الحريق ، وانتاج الابواب والشبابيك والاثاثات الخشبية والاحذية والجلود المضغوطة وانتاج المناديل الورق والفوط الصحية (والفنادق والمدن السياحية وفي مجال الاسكان الفاخر) ومزارع آليـة للدواجن ، وشركات للملاحة البحرية ، وشركات للنقل ، خط انابيب البترول ، معمل تكرير للبترول والتنقيب عن البترول .

وهكذا تسعى الاحتكارات الرأسمالية العالمية تشاركها الطبقة الحاكمة باعتبارها شريكا صغيرا الـى اقامة مشروعات تشبع السوق الاستهلاكية للبورجوازية المحلية او مشروعات يتم تصدير انتاجها للاسواق العربية .

والواقع ان الانفتاح الاقتصادي قـد يؤمن حلا مؤقتا لبعض مظاهر الازمة الاقتصادية للرأسمالية المصرية (التي تحاول الطبقة الحاكمة القاءها على كاهل الجماهير عـن طريق فرض الضرائب ورفع اسعار السلع الغذائية الضرورية للشعب) ، ولكن ذلك سيكون في مقابل التفريط بأسس الاستقلال الاقتصادي النسبي والى ربطه بعجلة الاقتصاد الامبريالي .

تلخيص عام

ان الطبقة البورجوازية البيروقراطية استطاعت ، ابـان مرحلـة صعودها ، تحقيق بنـاء حد ادنى من اقتصاد رأسمالي مستقل نسبيـا (بكـل ما استتبعه مـن معارك سياسية ذات طابع تقدمي في مواجهة الامبريالية) . ولكن ما لبث ان استفحل مـع تطورها الرأسمالي ازمات وتناقضات اخرى تمس صميم بنيتها مما جعلها عاجزة عن تطوير قوى الانتاج ومواجهة التحديات . فهي تسعى الى القاء ازماتها الرأسمالية على كاهل الجماهير الشعبية . الا ان الجديد اليوم ، انها لم تعد تستطيع مواصلة نهبها واستثمارها في الظروف الجديدة بدون الترابط مع الركائز المالية للامبريالية وبدون التشارك مع الاحتكارات القائمة في مركز الثقل الامبريالي العالمي ، حيث نحتاج هذا المركز ايضا من الناحية السياسية للضغط على اسرائيل من اجل مزيد من الانسحاب مـن الاراضي العربية المحتلة مقابل تقديم شروط الولاء والتبعية . انها طبقة لا تستطيع ان تحل ازمتها الرأسمالية وتناقضاتها الطبقية مع القوى الثورية الناهضة في الداخل والمنطقة العربية بدون التنسيق والاعتماد المتبادل (الذي يجسد التحالف الموضوعي في المصالح الاستغلالية) مع الامبريالية والنظم الرجعية ، والتهادن المذل مع الصهيونية .

ملاحظات عامة

اننا في الاجابة على مسار تطور الطبقة الحاكمة المصرية وآفاق المرحلة التي تمر بها ، نكون قد اجبنا ايضا فيما يتعلق بمصر على جانب من السؤال الرابع المتعلق بفهم « الملامح الاساسية للتحولات السياسية والاقتصادية » للانظمة « التقدمية » .

اما الجوانب الاخرى من السؤال الرابع فهي تحتاج الى حديث طويل يجب ايفاؤه حقه من المعالجة الجادة ، وليس مجرد اصدار احكام تقريرية عامة . وهذا مما لا يتيحه ضيق المجال .

الا انه ينبغي علينا ابراز النقاط التالية :

ان ما يسمى « بتقدمية » او « وطنية » انظمة بورجوازية الدولة انما ينطبق على مرحلة الصعود السياسي لهذه الانظمة وتناقضها مع الاستعمار وركائزه في المنطقة . وان هذا لا يعني ان نسبة التناقض الدرجي مع الامبريالية وركائزها هي نفسها ، بل تختلف من نظام لآخر حسب التكوين السياسي والاقتصادي لكل بلد .

كما لا يعني ذلك ايضا انتفاء اي تناقض بين هذه الانظمة والامبريالية في هذه المرحلة ، ولكن السؤال هو ما وزن هذا التناقض وما هي الطرق التي تمارس بها كل بورجوازية حله .

ان تناقض هذه الانظمة مع الامبريالية لم يعد هو العامل الحاسم في توجيه سياستها العامة ، مما يلقي على عاتق القوى الثورية الناهضة مهمة الربط بين التناقض مع الامبريالية والتناقض مع هذه الانظمة ، حيث لا يمكننا الخلوص الى القول بأننا ازاء نوعين مختلفين جذريا من التناقضات . خاصة ان حجم هـــذا التناقض بفعل العوامل التي شددنا عليها ، بالنسبة للنظام المصري كمثال ، وغيرها من العوامل الاخرى .

واذا كنا لا نستطيع ان نعمم تصورنا لمسار تطور النظام البورجوازي في مصر على غيره من الانظمة الاخرى وذلك لاسباب علمية وتكتيكية بالغة الاهمية ، فانه لا بد لنا من التشديد ايضا بأن النموذج الراسمالي المصري كان نموذجا رائدا احتذى نهجه وخطواته العامة عدد مـــن البورجوازيات العربية خاصة السورية والعراقية لحل ازمات نموها وتطورها وخاصة في المجال الاقتصادي .

وانني افضل التعليق فيما بعد ، انطلاقا مـــن الردود المحتملة لبعض الكتاب الآخرين على هذه المسائل في العدد الخاص من مجلة « مواقف » .

اما فيما يتعلق بالسؤال الثالث ، المتعلق ببروز « الظاهرات السياسية الجديدة في العالم العربي » اي الحركات الشعبية ، بعد عام ٦٧ ، فان هذه الظاهرات تتفاوت في جدتها وجذريتها تبعـــا للظروف الخاصة بكل بلـــد

ولامكانيات التطور الكامنة او القائمة في الطرح والممارسة السياسية لهذه الحركات الشعبية .

الا انه فيما يتعلق بالوضع المصري ، الذي افضل التركيز عليه ما دمنا قد اوضحنا جانبا من ملامحه العامة ، فلا بد من ملاحظة ان بداية التململ الشعبي في مصر قد بدأت تأخذ اشكالا متفاوتة الشدة والنضج ولكن في اتجاه تطوري بفعل التبدل في العلاقات الموضوعية لعلاقات القوى الطبقية ، خاصة تبدل الدور الموضوعي للطبقة الحاكمة من مناصبتها العداء للامبريالية الى الانتقال التدريجي الى ارض التبعية الجديدة . هذا التبدل الذي من شأنه ان يعيد تغيير وجه الحياة السياسية في البلاد .

وبالرغم من النشاط السياسي للطليعة الثورية لنضال الجماهير الشعبية سيبقى محاصرا من قبل النظام البوليسي وبالرغم من ان وتيرة النهوض في وسط الطبقات الشعبية لا تسير بصورة منتظمة ولا بالتوازي ، الا ان هناك بداية وتائر سريعة لنهوض الجماهير الشعبية وشروعها في ممارسة النضال السياسي وذلك تحت ظل الازمة الرأسمالية الخانقة للنظام من جهة ، وفي اطار التنازلات الخطيرة للامبريالية التي يقدم عليها النظام متسترا باستخدامه الديماغوجي لحرب تشرين والتي لـن تصمد طويلا امام الوقائع الواضحة ممثلة في الردة الوطنية .

فاذا كان النظام في فترة صعوده استطاع ان يصفي الحياة السياسية من خلال القمع البوليسي ، ودوره التقدمي وقتها في مواجهة الاستعمار في آن واحد ، فان تقلص هذا وتحوله في حلقات متسارعة الى دور رجعي متزايد سيزيد من حجم انفضاض الجماهير عنه .

لقد بدأت الطبقة العاملة ، انطلاقا مـن انعكاس الازمة الاقتصادية الخانقة للنظام تشق طريقها الصدامي ، وذلك في تلاحم ملحوظ مـع حركة الطلاب والمثقفين الثوريين . ومن المتوقع ان تتنامى هذه الحركة الشعبية في السنوات المقبلة بالرغم من كل ما سيرافقها من محاولات بطش وقمع شديدة . فالقمع سوف يؤرخ منذ اليوم لتطور الحركة الشعبية المصرية .

ان الفكر السياسي الذي تعبر عنه معظم فصائل هذه الحركة ، وخاصة اكثرها طليعية (شيوعي مصري) ، تشير بوضوح ان مسألة انجاز واستكمال مهام مرحلة التحرر الاقتصادي والسياسي الوطني باتت مهمة مباشرة امام الطبقات الشعبية والطبقة العاملة وحزبها الشيوعي .

كما ان موقف السلطة من المسألة الوطنية هو عامل موضوعي اساسي في تقرير وجهة التحركات الشعبية وطابعها الاشتراكي .

اذا انتقلنا للاجابة على بعض نقاط السؤال الخامس ، فاننا نشير الى الامور التالية :

لم تأت حرب تشرين لتكذب « تصورا سياسيا عـن دخول الانظمة

« مرحلة النهاية » . فالمسألة تتعلق بالمغزى السياسي لما اطلق عليه مرحلة النهاية للانظمة . لا يوجد هناك انظمة سياسية في العالم تنتهي من تلقاء نفسها ، مهما بدت متفسخة ومستنفذة لدورها التاريخي ، الا من خلال كفاح الطبقات المناهضة لها .

فبالرغم من العجز عن القيام بالدور التاريخي للبورجوازية نفسها (بناء استقلال اقتصادي وسياسي حقيقي) ، فان هذا لا يعني سقوطها التلقائي سياسيا .

وما يبدو مفارقة ومجالا للتخبط النظري والسياسي امام عدد كبير من التيارات البورجوازية الصغيرة « اليسارية » حول تحديد فهمها لطبيعة الانظمة ومسار تطورها ، وكيف يمكن ان تحارب بينما هي عاجزة كما تروج ادبياتها السياسية ، ان ما يبدو مفارقة ومجالا للتخبط لا يعود كذلك اذا ما دققنا في صورة ما يحدث تحت السطح .

لقد اضطرت الانظمة بعد هزيمة حزيران المنكرة ، الى الاهتمام جديا ببناء المؤسسة العسكرية (عن طريق المساعدة التقنية والتدريبية السوفياتية) كي لا تواجه بهزيمة اخرى لا تستطيع تحمل نتائجها السياسية .

طبيعي ان تطور المؤسسة العسكرية من حيث الكم والنوع لم يتم بمعزل عن العلاقات الطبقية القائمة (اي اقتصاد يدعم الحرب ، واي تنظيم للطاقات ، وما هو انعكاس العلاقات الطبقية داخل المؤسسة العسكرية والذي لمسنا نتائجه السلبية في الايام الاخيرة من حرب تشرين) واي مسار يصب فيه هذا التطور .

ان هناك تفاوتا واضحا بين المسار السياسي والاقتصادي للنظام المصري مثلا وبين تطور المؤسسة العسكرية عبر عن نفسه من خلال حرب تشرين . فوجدنا برغم القدرة المحدودة على مجابهة اسرائيل عسكريا ، كيف يوظف النظام هذه القدرة لخدمة مساره السياسي والاقتصادي في اتجاه نسج علاقات اوثق مع المعسكر الامبريالي .

ان حرب تشرين تطرح جدلية سياسية لا بد من تفحصها جيدا ، فقد اضطر النظام المصري على سبيل المثال الى خوض الحرب بعد تفاقم النقمة الشعبية والازمة السياسية والاقتصادية وذلك « لتحريك » التسوية وجهودها الديبلوماسية (التسوية ليست في ظل ظروف وميزان القوى الراهنة سوى الشكل الديبلوماسي للتبعية الجديدة للامبريالية) ، باحثا لنفسه كشريك صغير عن تكلفة سياسية اقل في المساومة مع الامبريالية والصهيونية .

ولقد فوجىء النظام نفسه ببطولات الجنود والنتائج الواضحة التي حققوها في الايام الاولى من الحرب ، والتي اكدت بالرغم من حملات التيئيس التي واظبت عليها دعاية ان اسرائيل ليست قوة لا تقهر ، بل يمكن الحاق الهزيمة بها .

ان ما حققه الجنود من بطولات حقيقية هو بمثابة هزيمة لخط النظام السياسي الذي كان يؤكد بأنه لا يمكن مواجهة اسرائيل الا بسلاح هجومي متقدم ، هذا بينما استطاعت قوات المشاة المضادة للدروع بالاشتراك مع شبكة الصواريخ السوفياتية الصنع من الحاق خسائر جسيمة بالعدو .

المهـم ان النظام استطاع تجيير بطولات الشعب لصالح مخططات الاستسلام التي تنسجم مع تطوره السياسي والاقتصادي المشار اليه آنفا . « فالحرب هي السياسة ولكن بوسائل اشد عنفا » . كما عمل النظام على تضخيم نتائج هذه الحرب واستثمارها جماهيريا بتوجيه نصلها الحاد ضد اي صوت معارض لسياسته في الداخل .

فحرب تشرين لم تكن « حربا وطنية محدودة » كما روج لذلك اليسار الرسمي المصري وبعض الفصائل اليسارية البورجوازية الصغيرة ذات الافق المحدود خارج مصر . فالحرب الوطنية ولو كانت « محدودة » تكون في المزيد من اتباع سياسة اقتصادية ضد الاعداء الامبرياليين والصهيونيين والرجعيين وليس ستارا لتغطية خطوات متقدمة في التهاون مع هؤلاء الاعداء !

ويبدو ان المجال لا يتسع هنا للاجابة عن السؤال الثاني المتعلق بظهور المقاومة الفلسطينية « كبديل » بعد هزيمة ٦٧ . ولكنني احيل القارىء الى مقال لي عن « علاقة المشكلة الفلسطينية بالتجزئة والصراع الاساسي في المنطقة العربية » في مجلة « شؤون فلسطينية » العدد ٤١/٤٢ . ففيه بعض الاجابة عن علاقة المقاومة بالوضع العربي .

هاني مندس

المراجع

١ — عبد العظيم رمضان : الحركة الديالكتيكية للبورجوازية المصرية قبل ثورة ٢٣ يوليو . مجلة **الكاتب** يوليو ١٩٧١ .

٢ — المصدر السابق .

٣ — د. محمود متولي : الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية . مجلة **الكاتب** يوليو ١٩٧٢ .

٥ — انظر محمود عبد الفضيل حسين في مجلة **دراسات عربية** ايلول ١٩٦٩ .

٤ — شيوعي مصري : **طبيعة السلطة وقضية التحالف الطبقي في مصر** . ص — ٨ —

٦ — شيوعي مصري : المصدر السابق . ص — ١١ —

٧ — شيوعي مصري : المصدر السابق . ص — ١٠ —

٨ — المصدر السابق .

٩ — اسماعيل محمود : **حدود اكتوبر** . دار الطليعة — بيروت ١٩٧٤ ص — ٧٤ —

١٠ — اسماعيل محمود : المصدر السابق . ص — ٧٤ —

١١ — المصدر السابق . ص — ٧٥ —

برهان غليون

عصر الحرب الاهلية

يبدو لي ان الحقبة الراهنة التي يمر بها الوطن العربي لا تؤهل لاتخاذ الاحكام الثابتة ، لا على سبيل الاستنتاج ولا على سبيل التكهن بالمستقبل . فالذين استعجلوا نهاية الناصرية وصفقوا لورثتها من يساريين ويمينيين اصطدموا مثلهم مثل اولئك الذين بنوا اقواس النصر المسبقة لجيوش التحرير قبل عام ١٩٦٧ بالواقع الاليم نفسه وهو ان العالم العربي بقدر ما يزخر بالطاقات الثورية الكامنة ، وبقدر ما تفصح حركة التغيير فيه عن الوعود العظيمة بقدر ما يعاني وتعاني حركته هذه من نواقص وعيوب قاتلة تجعل مسيرته هشة متقلبة وعديمة الاتزان ، قوية احيانا في عز ضعفها وضعيفة خائبة في اوج تفجرها . ان زخم هذه المسيرة الكبيرة الذي ينبع من الضغط والتطلع الشعبي الهائلين نحو التغيير يتنافى كليا مع ضيق وعزلة وجبن الدائرة القيادية التي تتصدى لاتخاذ القرارات التاريخية . وقد دفعت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ الدوائر السياسية الحاكمة في العالم العربي الى نوع من التضامن وسع من دائرة القرار دون ان يغير في القاعدة الاجتماعية لاتخاذه . وحل التضامن العربي بذلك محل الوحدة الوطنية (ومحل الصراع من اجل وحدة قومية حقيقية ايضا) وانجب نصف نصر ونصف هزيمة . وكان هذا دون شك نصرا ملموسا بالمقارنة مع هزيمة الانظمة نفسها في حزيران ١٩٦٧ .

وفهم المرحلة التاريخية الماضية واستشفاف المرحلة المقبلة يتطلب اعادة تركيب مجمل الحقبة الماضية والتخلي عن طرح المسألة وكأنها بداية مرحلة ونهاية مرحلة . واضفاء رغبة البعض على التحليل التاريخي هو الذي ادى الى المواقف الخاطئة التي استعجلت بعد ١٩٦٧ سقوط الأنظمة واقامة ما يشبه المناحة القومية . ويقال الامر نفسه بالنسبة للشعور السائد الآن بالعبور الى مرحلة جديدة تستعجل النصر العربي ونتائجه . ويجب ان يستبدل ذلك بموقف نقدي يرى حقيقة التطور الحالي واسبابه ومكوناته ، نقاط ضعفه ونقاط قوته . ومن اجل هذا لا بد من رؤية وحدة الحقبة التاريخية بكاملها لنميز بين ما هو ثانوي في التحولات الجارية وما هو جوهري فيها . فقد تتغير الحكومات دون ان يتغير نظام الحكم كما حدث في مصر وسوريا بعد هزيمة حزيران ووفاة عبد الناصر ، وقد يمكن تحقيق نصر عسكري او

اكثر دون ان يعني ذلك تغييرا جذريا في قوانين الحرب القائمة وتمهيدا لحسمها . وقد يعني كل ذلك تصعيد تناقضات الموقف الى مرحلة اعلى تتطلب ادارة الصراع فيها وعيا اعمق وادوات نظرية وعملية ، سياسية وعسكرية اكثر مضاء ودقة . ورؤية وحدة الحقبة التاريخية هذه هي الشرط الاولي لتمييز الاطوار المختلفة التي مرت بها ، موقع الهزيمة من النصر ، وموقع النصر من الهزيمة ، ومكانة الحكم من النظام ، ومكانة النظام من تغير الحكم . وعندئذ يمكن للدراسة النظرية ان تضيء الحركة الواقعية بقدر ما تضع نفسها في صلبها ، وتجد الحركة الواقعية للتاريخ وحدتها في النظرية كما تجد وحدة التجريد النظري حركتها في الواقعة التاريخية . ان اعادة تركيب وحدة هذه الحركة التاريخية الواقعية نظريا ، اعني حركة التحرر القومي العربية ، هي التي ستمكن من وضع المشكلات المطروحة في مكانها الطبيعي ، وتتيح بالتالي محاكمة الجزئي بالكلي والاجابة على التساؤلات التي تطرح بخصوص هذا الجانب او ذاك ، هذه الظاهرة او تلك من ظواهر الحركة العربية .

من المقاومة الى الهزيمة

كانت ثورة ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢ فاتحة حركة عربية كبرى شملت كل المشرق والمغرب العربيين لانهاء النفوذ الاستعماري ووقف الغزو الاستيطاني الذي وقعت ضحيته الجزائر . وخلف هذه الحركة وقفت الشعوب العربية بكل طبقاتها الوطنية . وكان على هذه الانطلاقة المفعمة بالامل والمستقبل ان تواجه في مسيرتها عدوين رئيسيين : الامبراطوريات الاستعمارية القديمة التي كانت تسيطر على المنطقة العربية من الجزائر حتى العراق ، ثم الطبقات السمسارية والملكيات المتعفنة حليفة الغرب وموطىء قدمه في الصراع ضد الشعوب العربية . وفي غمرة النضال ضد القوى الاستعمارية ثم فرز القوى الوطنية ، وتعمقت وتبلورت الاهداف القومية والشعبية واضطرت الطبقات الوسطى القائدة الى تقديم التنازلات الكبيرة امام الجماهير نظرا لحاجتها الماسة الى سندها ومشاركتها في معاركها ضد التسلط الاجنبي . ودخلت الافكار الاشتراكية شيئا فشيئا في عقيدة الطبقة الوسطى التي كانت تنقسم على نفسها كلما اشتد الصراع وظهرت لبعض فئاتها مخاطر الصدام مع الغرب الامبريالي . وهذا ما دفع قسما من هذه البورجوازية ، ذلك القسم الاكثر وطنية وارتباطا بالشعب الى الانزلاق اكثر فأكثر نحو مواقع شعبية وشعبوية متميزة فرضتها عليه مقاومة الامبريالية ورفضها لكل تسوية تضمن احترام مكانة مناسبة للبورجوازية العربية يأخذ بالاعتبار مصالح تكونها وطموحاتها الى اقامة رأسمالية قومية مستقلة ؛ كما دفع القسم الآخر من البورجوازية الى خيانة القضية الوطنية . وهكذا ظهرت الناصرية ، سياسة النضال ضد التسلط الاستعماري وعقيدة الكفاح لتكوين اقتصاد قومي مستقل ووطن عربي موحد . وظهرت الى جانب الناصرية حركات عربية مشابهة تميل اكثر او أقل نحو اليسار او اليمين حسب خصائص البلدان العربية المختلفة والوضع التاريخي الخاص بكل بلد وبنية وقوة طبقاته الوسطى وعظم تغلغل العناصر الشعبية في قيادة هذه الحركات .

وقد ادى اخفاق العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ الى اعطاء دفع

عظيم لهذه الحركة كانت الصفة الاهم فيه ابراز الافق العربي الوحدوي للنضال ضد التسلط الاستعماري والغزو . وهذا ما اضاف قوة جديدة للاندفاع العربي في مصر وسوريا وفي البلدان العربية الاخرى بشكل عام . وبدل ان تدفع الضربة الشديدة التي وجهتها الامبريالية للحركة العربية بتصفيتها وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا الى الاستسلام شجعت ، بالعكس من ذلك ، القيادة الوطنية لعبد الناصر الى الانتقام للقضية القومية بالسير خطوة اخرى نحو الشعب والحاق البورجوازية المصرية الكبرى بمصير الطبقة الكمبرادورية القديمة وتأميم معظم مصالحها . ثم السير لتحطيم مواقع جديدة في جنوب شبه الجزيرة العربية . وكان يبدو وكأن الحركة العربية قد وصلت في منتصف الستينات مع الميثاق الوطني المصري الى ذروة قوتها . لكن الجيوش المصرية غرّزت في اليمن ولم تستطع ان تنفذ مهامها بسرعة وتحولت الحرب الى مأزق لا مخرج منه . وقد اضطر عبد الناصر الى ان يثبّت في اليمن قوات وموارد كبيرة كان بأمس الحاجة اليها في مناطق اخرى ذات اهمية حيوية بالنسبة لمصير الحركة العربية . ان ترك محور سوريا — العراق حيث قلب الحركة التحررية لفتح محور هامشي في جنوب الجزيرة يقود الى صدام مباشر مع المملكة السعودية لم يكن يعني الا الهرب من المعركة الحقيقية من اجل تحقيق انتصارات معنوية لا قيمة لها في الحساب الاخير . وهكذا تحولت الحرب في اليمن شيئاً فشيئاً من صراع ضد نفوذ بريطاني على وشك الافول الى حرب بين دولتين عربيتين صاعدتين . وقد مكن استنزاف الطاقة المصرية في اليمن للقوى الاجنبية من اعادة تنظيم صفوفها وبعد ان تم عزل مصر نهائياً في العالم العربي تكاتفت القوى الاستعمارية القديمة والجديدة خلف اسرائيل لتنقض عام ١٩٦٧ على حركة عربية قومية ممزقة وضعيفة ، ولتدفعها الى موقف الدفاع المحض عن النفس . الامر الذي اضطرها الى الاستنجاد المكثف بالاتحاد السوفياتي الذي اصبح منذ ذلك الوقت يضاعف من نفوذه الاقتصادي والسياسي لتبدو مصر وسوريا خلال فترة قصيرة في وصاية السوفيات .

وتشير حرب اليمن الى اي مدى كانت القيادة السياسية للحركة القومية تبالغ في خطورة النفوذ الاستعماري القديم على حساب الاستعمار الامريكي الجديد الذي اخذ يناضل ليحتل مواقع سلفه منذ حرب السويس ، والذي بدأ يتحول من ذلك الوقت الى الخائف الاول من تزايد نشاطات حركة قومية قوية على حدود آبار النفط .

لقد صفت ضربة حزيران ١٩٦٧ طموح الحركة القومية العربية واجبرتها على التراجع ، فعلى المستوى العربي انحسر خطر انتشار الحركة التحررية القومية التي ما لبثت حتى تحصنت في دول المصدر مصر وسوريا ، وبقيت الجزائر بعيدة في اقصى المغرب والعراق متخبطاً بمشكلاته الداخلية . واصبح من الواضح ان الطموح البورجوازي القومي لتكوين دولة عربية موحدة متحررة من النفوذ الاجنبي قد تحطم واصبح بامكان الدول العربية الرجعية ان تستعيد المبادرة لمحاصرة الانظمة التقدمية نفسها . وعلى اثر تغير ميزان القوى الداخلي في هذه الانظمة الاخيرة ونهاية الامل بتحول ونصر سريعين اخذت تتبلور وتتقوى التيارات الفكرية اليسارية والشعبوية مستغلة ضعف القيادة السياسية المنكسرة ، وفي طليعة هذه التيارات المقاومة الفلسطينية

وجناحها اليساري ثم الحركات الطلابية والعمالية في مصر . لكـن صمود القيادة الوطنية الناصرية ورفضها الاستسلام قد سمح لها بهيمنة شبه دائمة على هذه التيارات حتى وفاة عبد الناصر ، وكان التحالف بينهما بقدر ما يزيد من قوة الصمود العربي يهدد امكانات التسوية مع الامبريالية ويقود بالتالي وبالضرورة الى نتيجتين اساسيتين : الصدام من جديد مع القوى الاستعمارية وانفصال فئات بورجوازية واسعة عن الحركة الوطنية وتراجعها وتخوفها من مستقبل صدام لن يكون الا لصالح تجذر الحركة القومية وتحولها الى حركة شعبية عميقة الجذور .

وجاء موت عبد الناصر وسحق المقاومة في عمان ليعدل في ميزان القوى داخل صفوف الحركة الوطنية العربية نهائيا . فالقوى المعتدلة مدعومـة برغبة الاتحاد السوفياتي في ايجاد وضع يتيح تعاونا عالميا مثمرا سيطرت بسهولة على الموقف واصبحت امكانية التسوية مع الامبريالية ممكنة منذ ذلك الوقت على قاعدة تراجع الحركة العربية العربي والشعبي . ولن يكون امتحان القوى المسلح في عام ١٩٧٣ الا وسيلة لدعم جهود التسوية التي تحولت الى استراتيجية للبورجوازية العربية . لقد كانت التسوية بـين المعسكرين العربيين الذي اتاحه موت عبد الناصر وحصار المقاومة الفلسطينية الشرط الاول لايجاد تسوية عربية امريكية (اسرائيلية) مفروضة بقـوة السلاح . واذا لم يكن لحرب تشرين ١٩٧٣ شرف تحقيق هذه التسوية فان بامكان المعسكر العربي الموحد ان يعيد فرض الصلح بحرب جديدة . وامام تراجع العرب عن طموحاتهم القديمة الثورية تعتقد القيادة العربية انها ستنال تراجعا مقابلا من الامبريالية الامريكية يعيد العلاقات الطبيعية بين الطرفين ويوقف حرب الغزو التوسعي الاسرائيلي . لكن هذا لن يتم الآن ببساطة طالما ان الميزان الراهن للقوى يمكن العرب من استبدال طموحاتهم القديمة بطموحات جديدة اقـل خطرا بلا شك ولكن ليست ثانوية بالنسبة للغرب الامبريالي . ولن تتحقق تسوية معقولة الا ضمن ميزان قوى جديد يجهض الجهود العربية المشتركة او يحسم الحرب نهائيـا لصالحها . ولا تهدف دبلوماسية كيسنجر الا الى تعديل ميزان القوى هذا لصالح اسرائيل بالطرق السلمية .

ولكي يمكن استكمال هذا العرض لا بـد من الاشارة الى نقطتين :

١ ــ طبيعة الصراع الذي وضع المنطقة العربية في تعارض مع نوع معين من السيطرة الاجنبية الاقتصادية والسياسية والثقافية . وهذا ما حدد البنية الاجتماعية لقيادة الحركة العربية كما حدد اهدافها وغاياتها . لقـد نمت الحركة العربية القومية كرد فعل مباشر تجاه اتساع الهيمنة الاجنبية على جميع الاصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية نتيجة لتوسع نمط الانتاج الرأسمالي الذي اخذ شكل دمج واخضاع تشكيلات قومية لتشكيلات اخرى مركزية . وقـد هدد ذلـك بمحو شخصية التشكيلات القومية الخاضعة السياسية والثقافية كما بدأ بتحطيم تكاملها الاقتصادي . وظهرت الحركة العربية القومية بعد الحرب العالمية الثانية كمحاولة للرد الايجابي على هذه السيطرة دفع اليه وبلوره رعب الجماهير الشعبية امام اتساع النفوذ والغزو الاجنبي واتخاذه اشكالا استيطانية مسلحة وعنيفة منذ بدايات القرن العشرين في فلسطين . ولهذا فقد حملت حركة القومية العربية منـذ البداية ملامح

شعبية واضحة وتعمقت وانتشرت بشكل خاص في الاقاليم المحيطة مباشرة باسرائيل ، كما في جزائر الاحتلال الفرنسي . ان خوف الجماهير الشعبية التي تختزن بشكل طبيعي الثقافة والقيم القومية والشعور بالتمايز القومي عن اوروبا والغرب قد خلق قوة كبرى مواجهة للبورجوازية الكمبرادورية التي اندمجت بشكل او بآخر بالغرب والتي كان بمقدورها لولا الغزوة الرأسمالية — الصهيونية والاستيطانية التي استفزت الشعور القومي لدى كل الجماهير الشعبية ، كان بمقدورها ان تؤمن بالتحالف مع الغرب الدخول التدريجي المتوسع للعالم العربي في حلقة تقسيم العمل العالمي الرأسمالي دون اثارة مشاكل سياسية خطيرة . لكن عنف الغزو الرأسمالي قد اظهر للشعب بطبقاته الوسطى والمثقفة والشعبية ان الغرب لا يريد للعالم العربي ان يلعب اي دور في الاقتصاد الرأسمالي الامبريالي ، ما عدا كونه خزانا للوقود وللمواد الاولية الرخيصة وللارض الجاهزة للاستيطان . لم تكن هناك اذن امكانية لنشوء رأسمالية عربية متطورة نسبيا . وقد اغلق هذا كل امل امام الطبقات الوسطى التي كانت تشعر اكثر فأكثر بأن المستقبل لن يكون الا صورة مقررة للوضع الراهن : اي لسيطرة اقلية محدودة جدا وفي تناقص مستمر . ان عدم وجود فرص للصعود الاجتماعي ، في النظام الذي كان قائما ، النظام المغلق الذي لا يتمتع بأية حركية داخلية ، سوف يؤدي دون شك الى كونه البيئة الطبيعية للثورة .

النقطة الثانية التي لا بد من الاشارة اليها ، تتعلق بالشروط الاجتماعية لهذا الصراع التي تحدد في النهاية ، نوعية الحلول المقترحة ، اي طبيعة الرد على التحدي الخارجي . وكان واضحا منذ البداية ، ان القضية التي توحد العرب على التصدي للغرب ، تقسمهم ايضا حين يتعلق الامر بكيفية ومقتضيات هذا التصدي . ان الشعب الذي فرض باحتفاظه بقيمه المعنوية وثقافته القومية وخبرته السياسية العمل على وقف تدهور الوضع العربي امام الغزو الاستعماري هو نفسه منقسم . وكل فئة من فئاته تحاول ان توجه هذا العمل المطلوب وجهة مصالحها . فالطبقات الوسطى المحرومة من السلطة تطمح بالدرجة الاولى الى الوصول الى نظام قوي على الطريقة الغربية قادر أن يتصدى بعصريته وتحديثيته وصناعته لاسرائيل والعرب . في المقابل ، لم يتبلور تيار شعبي سياسي واضح . اما الاحزاب الشيوعية ، فكانت على هامش الواقع التاريخي ، تطالب بنقابة للدفاع عن العمل ، اي كانت بعيدة كل البعد عن رؤية الموضوع الفعلي للصراع . لكن هل ينفي هذا ، وجود تيار شعبي حقيقي ، يشير الى طريق ثوري فعلا ، اي طريق اشتراكي للتحديث والتصنيع والرد على التحدي الامبريالي ؟ كلا ، لقد كان هذا التيار موجودا ، دون ان يظهر بشكل ايجابي بقدر ما كانت تعبر عنه نقمة الجماهير ومعارضتها للغزو الاجنبي وللحلول المقترحة للتصدي له . وقد كان للاحزاب الشيوعية التقليدية الدور الاكبر في تشويش وعيها . ففي الوقت الذي كانت فيه الاحزاب تشير بيد الى الاشتراكية ، كانت تشير باليد الثانية الى العدمية القومية ، وتجبر الجماهير على وضع الشيوعية والغزو الاجنبي على مستوى واحد .

دون النظر اذن الى هاتين النقطتين : صراع العرب ضد الغرب الاستعماري وسيطرته القومية والصراع الاجتماعي داخل صفوف الشعب

العربي نفسه الذي يثيره باستمرار هذا الصراع القومي ، والذي هـو في النهاية صراع بين طريقين اشتراكي شعبي ، ورأسمالي داخل اطار حركة التحرر القومي العربية . دون فهم هاتين النقطتين ، وفهم الصراع القومي كصراع **مسيطر** ليس بالامكان لا فهم تطورات الرد على الغزو الاستعماري ولا تحولات الحركة العربية من داخلها . ليست الناصرية والبعثية الا التعبير التاريخي المشخص عن صعود الحركة القومية التحررية في وجه السيطرة الامبريالية . كما ان الصراعات التي حصلت داخل هاتين الحركتين ليست ايضا الا انعكاسا للصراع الاجتماعي داخل اطار الرد الموحد . ان القول بأن الصراع القومي هو الصراع **المسيطر** ، لا يعني ان الصراع الاجتماعي ليس **محددا** ولكنه يعين الاطار العام لهذا الصراع . فالصراع الاجتماعي يأخذ لدى وجود التهديد القومي العام شكل صراع مجموع الطبقات الشعبية ضد الغزو وحليفه الداخلي من الفئات العميلة . وبقدر ما تستطيع طبقة اجتماعية ان تظهر طريق مصالحها كطريق لحل المسألة القومية او بقدر ما يكون الامر كذلك فعليا ، يمكن لهـا ان تحوز على الهيمنة وقيادة الطبقات الاخرى . ان هذا الحلف الشعبي القومي هو الذي غذى الناصرية كما غذى البعثية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وكانت تختلط في عقيدة هـذه الحركات الرأسمالية مع العناصر الشعبية . ولم يتبلور الطريق العام للحركة القومية ، كما لم تتبلور عقيدة طبقاتها القيادية الا بعد استلام السلطة وانهاء سيطرة الطبقة الكمبرادورية وشبه الاقطاعية القديمة . وقـد برز بشكل واضح انه عندما كانت القيادة السياسية كما في سوريا ، خليطا من الطبقات الوسطى والشعبية الفلاحية ، كان الصراع على اشده من اجل الخروج من الافكار العامة وبلورة طريق واضحة رأسمالية او اشتراكية ، وظهرت بذلك انظمة وحكومات هشة لا تعرف كيف تستقيم . وكان من الصعب جدا الخروج من ضباب العقيدة الى نور الطريق المحدد . وما زالت عقيدة البعث مثـلا مليئة بالعناصر الشعبية والرأسمالية معا ، ولا شك ان التقدم في طريـق رأسمالية واضحة لا يمكن ان يتم دون التخلي في البدء بشكل خجول وعملي ثم بشكل نظري بعد ذلك ، عن العقيدة الراهنة .

لقـد حدد عبد الناصر منـذ البداية اختيارا واضحا يلوح للجماهير الشعبية المصرية بالاشتراكية بقدر مـا كان يثير آمال الرخاء والتحديث . وشعبية عبد الناصر وجدارته ايضا لا ترجع الى وضوح خطه الاشتراكي ، بـل على العكس الـى تمسكه بالقضية القومية . ان ضرب عبد الناصر للبورجوازية تم تحت شعار عجزها القومي . وهو رغم اعتداله الشعبي ، كان يبدو للشعب مثالا لاخلاصه للقضية القومية . وكان يبدو بذلك فعلا ، لا ممثلا للبورجوازية القديمة او الجديدة ولا للشعب العامل . ولكن للحركة القومية وللمهمة القومية التي نـذر نفسه لها . وكان ينال التأييد الشامل بوصفه رمزا للوطنية العربية اكثر مما هو ممثل لطبقة .

هل انتهت الناصرية ؟

من البلادة ان يفكر المرء ان عبد الناصر قد قاد الى هزيمة حزيران ١٩٦٧ وان السادات قد قاد الى النصر في تشرين ١٩٧٣ . فكما ان ناصر والسادات قد انهزما عام ٦٧ فان الناصرية انتصرت عام ٧٣ . ولم تكـن

هزيمة ٦٧ الا التجربة العملية الاولى التي اتاحت للنظـام نفسه ان يحقق « عبور » ٧٣ . ولا شك ان ناصرية عبد الناصر قـد انتصرت في هزيمتها عام ٦٧ ، اذا اردنا ان نشير الى الهدف الاسمى للنضال القومي العربي : عدم الاستسلام للغرب ومقاومة التوسع الاستعماري وعدم خيانة الشعب . ويمكن ان نقول في المقابل ان ناصرية السادات قد انهزمت عام ٧٣ فيما لو ترتب على ذلك التضحية بالاهداف القومية الكبرى من اجل الحفاظ على سلام مصطنع مع الامبريالية . ان الناصرية ، كحركة سياسية ، مهددة دون شك بالتفكك بعد تشرين ٧٣ . اذ ان النصر الذي احرزته القيادة السياسية يمكن ان يستثمر الآن داخليا لصالح الطبقات الوسطى وضمن التحالف العربي والعالمي الراهن لحسم الموقف وتصفية الوجود السياسي الشعبي . وتكون البورجوازية بذلك قد استخدمت القضية الوطنية ودم الجنود المصريين كجسر لتعديل ميزان القوى وتأمين نموها الخاص . وعندئذ يكون الخاسر الاول من الحرب هو الشعوب العربية والرابح الاول هو الولايات المتحدة .

ولكن هل انتهت الناصرية كعقيدة ؟ اذا امكن للراسمالية المصرية ان تنطلق فعلا وتثبت اقدامها وتتخلص من وطأة السيطرة الخارجية ، وتمسح الارض بكل مبادىء التحالف القومي القديم ، يصبح من العبث بالنسبة للطبقة الجديدة كما هو الامر بالنسبة للفئات الشعبية خارج السلطة الحديث عن تحالف قومي ، وتكون الناصرية قد انتهت تاريخيا وفكريا . ومن مفارقات الزمن ان الراسمالية المصرية ، لا تستطيع الآن ان تطمح بأن تكون ان لم تكن اساسا عربية ومدعومة بهذا النطاق عسكريا وسياسيا وثقافيا ، بقدر مـا كانت عروبة عبد الناصر تجـد نفسها مضطرة لأن تصبح اكثر فأكثر اشتراكية مصرية .

اما المقاومة الفلسطينية ، التي ظهرت كرديف فلسطيني لحركة التحرر العربي ، فهي وليد هذه الحركة ، من لحمها ودمها . وهي ناصرية شعب فلسطين ، الذي تجلى نضاله القومي في النضال ضد استعمار استيطاني ، وكان لا بد لهذا النضال من ان يأخذ شكل كفاح مسلح من اجل التحرير . وقـد استندت هذه الاندفاعة الفلسطينية المسلحة الى الصعود العظيم في حركة الشعوب العربية ، وغذاها انكسار القيادات العربية الاخرى عام ٦٧ . لكن استرداد هذه الانظمة لزمام المبادرة مـا لبث ان ارجع المقاومة الى حدودها الطبيعية ، فلسطينية المبتدأ والمنتهى . وعندما لم تستطع ان تبني استراتيجية عربية اضطرت الى الخضوع لاستراتيجية القيادات العربية ، واصبح ما كان مستحيلا تحريره على الشعوب العربية عام ٤٧ مطلبا سياسيا عام ٧٤ . وبقدر ما اخرجت التسوية العربية ـ الامريكية الاسرائيلية الانظمة العربية من مأزقها وحررتها من ضغط الجماهير الشعبية ، فانها مكنت قيادة المقاومة من اكتشاف طريق الخلاص في تسوية مماثلـة . واصبح بامكان عرفات ان يخطب في الامم المتحدة بوصفه رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير والقائد العام لقوات الثورة . ان المقاومة الفلسطينية جزء من حركة التحرر العربي كما هي عليه لا اكثر ولا اقل . وهي محكومة بالعوامل نفسها التي تحكم سير هذه الحركة . لكن المقاومة تستطيع دون شك ، اذا ما عمقت جذورها لدى الجماهير العربية ان توسع من هامش مبادرتها تجاه الضغوطات العربية وتصبح عامـلا في تشديد الموقف العربي وعزل القوى المستسلمة

واجبار القيادة العربية على احترام مصالح الشعب في المساومات الجارية في جنيف .

الوضع العربي واحتمالات المستقبل : من الهزيمة الى التسوية

ان صراع الثلاثين عاما الماضية مع الامبريالية بأشكالها القديمة والحديثة قد غير بشكل بارز من ميزان القوى في المنطقة بادخاله جماهير عربية واسعة في هذا الصراع . وفرض على قيادة الحركة العربية مواقف اصبح من المستحيل التراجع عنها دون التعرض لهزة عنيفة وربما قاتلة . ولم يعد من الممكن تقرير تسوية مهما كانت من خلف ظهور الشعوب العربية ، رغم اللهفة التي اظهرتها وتظهرها بعض قيادات الحركة العربية للاسراع في الوصول الى مثل هذه التسوية . اذ ان اقسى ما تستطيع هذه القيادات التنازل عنه ما زال اقسى مما تسمح القوى العدوة لنفسها بالقبول به . ومما لا شك فيه ان البورجوازية العربية التي حققت في حرب تشرين انتصارا كبيرا على نفسها ، خائفة من ضياع فرصة التسوية وقلقة على مصيرها ، اذ رغم تطمينات يقدمها تضامن عربي محدود ومال وفير تبقى هناك مخاطرة من استمرار الصراع مع الشكل الذي سيأخذه كصراع مباشر مع الولايات المتحدة ، مخاطرة كبيرة وغير مضمونة العواقب ، وقد تجبر الانظمة على تقديم تنازلات ديمقراطية للشعب تمهد للاطاحة بها خلال الصراع . ان حرصها الشديد على عدم اضاعة فرصة التسوية لا يحده الا خوفها من تسوية تسيء الى مركزها الاجتماعي والسياسي . ومن هنا فانها تعلق الآن اوهاما كبيرة على امكانية ضغط الولايات المتحدة على اسرائيل لتحقيق تنازل اسرائيلي ملموس في قضية الاراضي وقضية حقوق شعب فلسطين . وهي تصبح عاجزة اكثر فأكثر عن بلورة نظرة دقيقة واضحة واستراتيجية للمستقبل فيما يخص الحرب او التسوية ، وتنتظر نتائج الضغط الاميركي دون ان تعرف كيف تقود اليه . ويظهر هذا العجز في تردد مواقفها العربية والعالمية والداخلية معا . فعلى المستوى العالمي تتذبذب نظرتها بين الثقة بالولايات المتحدة ، هذه الثقة المستندة الى التلويح بمستقبل زاهر للمصالح الاميركية النفطية السياسية في المنطقة ، وبين الخوف منها ومحاولة الضغط عليها . فهي تارة صديقة وتارة حليفة لاسرائيل . وحفلة الغزل العربي لاميركا لا تنسي العرب ضرورة تمتين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي . ويظهر بوضوح الآن ان سياسة الحرب وسياسة السلام تسيران جنبا الى جنب بكل ما يخلف ذلك من وضع بالغ الصعوبة على العلاقة مع السوفيات واميركا . وقد اصبح من المؤكد الآن ، ان التسوية لن تكون اذا لم تتحقق اولا مصالح الدولتين الكبيرتين . وهذا ما دفع بالمسؤولين العرب الباحثين عن التسوية الى التخفيف من الاعتماد الرئيسي على اميركا والتقرب من الاتحاد السوفياتي . واذا استمرت اللعبة الحالية فان التسوية ستصبح تقاسما للنفوذ في المشرق العربي ولن تتم الا من خلال هذا التقاسم . وليس من المستبعد ان تصبح الحرب العربية الاسرائيلية احدى ادوات الصراع بين الدولتين تحاول كل منهما تحسين وضعها من خلال توجيه ضربة للاخرى . كما انه ليس من المستبعد ان تصبح المنطقة وسيلة للتفاهم بينهما . والامر يتوقف في النهاية على مدى ثقة كل منهما في ضمان نفوذها ومصالحها في التسوية . وحتى الآن

لا يبدو ان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة واثقان بالمستقبل .

وتظهر السياسة المترددة والعجز عن بلورة استراتيجية عربية تجاه الوضع الراهن على المستوى العربي ايضا . ففي الوقت الذي تعبر فيه الدول النفطية الغنية عن تضامنها مع دول المواجهة وتقدم اليها المساعدات المالية ، تحرص على ان لا تتيح هذه المساعدات فرصة جديدة ، كي تدعم انظمة المواجهة نفسها وتحل مشكلاتها وتصبح قوى منافسة وخطرة في المستقبل . وهكذا لا يزال المصريون والسوريون يشكون من قلة المساعدات العربية رغم ضخامتها ويحلمون باستثمارات مهمة لا يبدو ان الدوائر العربية النفطية الحاكمة عازمة على تقديمها . وهنا ايضا يخفي التضامن العربي تنافسا وخوفا مشتركا يحجبه جو المعركة الراهن وثقة الطرفين باستحالة النصر الحاسم . وينعكس هذا على الموقف الدولي حيث تأخذ المملكة السعودية اكثر فأكثر دور المدافع عن الوجهة الاميركية .

اما على الصعيد الداخلي فان الانظمة تتردد ايضا بين سياسة الانفتاح التي ترضي الاميركيين وتعني بالدرجة الاولى تصفية المكاسب الشعبية الاساسية عن طريق تطبيق ديمقراطية من جانب واحد ، ديمقراطية المتمولين وكبار الرأسماليين والتضييق على الشعب ، وبين سياسة تدعيم القطاع العام والتمسك به وعدم قطع العلاقات مع الجماهير الشعبية نظرا لما يمكن ان ينجم عن ذلك من اضعاف موقف المفاوضين العرب .

وتؤدي جميع هذه المواقف الى الجمود والسماح للعدو باستعادة زمام المبادرة العسكرية بالرغم من الانتصارات العربية . ان استماتة الانظمة العربية من اجل التسوية قد تقودها الى الحرب وتجعل الطرف الآخر ميالا للتشدد . وهذا ما حصل حتى الآن . وتعود الانظمة الآن الى سياسة التوازن العالمي والتشدد والحذر ، وتفقد اوهام التسوية السريعة لتهتم من جديد بجيوشها . وهذا يظهر الى اي حد تفتقد سياسة الدوائر الحاكمة الى الرؤية الواضحة والافق البعيد . فهي تراهن تارة على صداقة الغرب واخرى على صداقة الشرق ، ومرة تبرز ميزان القوى الجديد الذي يحتم التسوية واخرى تشير الى المأزق السياسي .

لا تدرك الانظمة العربية حتى الآن ان خصمها الراهن والفعلي هو الولايات المتحدة . وان الولايات المتحدة لا تريد فقط تأمين النفط ولكن التأكد من عدم تحول ثروات النفط الى اداة لتدعيم وحدة وقوة الحركة الوطنية العربية والى طاقة جديدة تدفعها للامام . وهي لن تتخلى عن استخدام قوة اسرائيل من اجل الردع طالما بقي هناك خطر ظهور حركة قومية قوية ، تستطيع بالاستفادة من الاموال النفطية تغيير ميزان القوى بشكل حاسم في الشرق العربي . اننا لا نقول باستحالة تسوية عربية اميركية ، ولكن هذه التسوية غير ممكنة الا بتصفية حركة التحرر القومي العربية كحركة ديمقراطية . عندئذ ستعود سيناء وتذهب مصر . ان التخلي عن الناصرية بشعاراتها هو اذن الشرط الاولي لتسوية النزاع بين العرب واميركا ولضمان مصالح الدولتين الكبيرتين . ولقد سارت الانظمة العربية خطوات كثيرة على هذا الطريق منذ حرب تشرين ٧٣ . ولن يكون بالامكان تحقيق التسوية الا

على مراحل ، وهذا هو الاقتراح الاسرائيلي : تنازل عربي مقابل تنازل اميركي ، الى ان يصبح العداء تعاونا . لكن عندها ايضا تصبح التسوية خيانة .

يجب ان لا يكون لدينا اوهام حول تسوية وطنية ، فليس هنا سوى خيار واحد : تسوية تحفظ مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وتسمح عندئذ بالتنازل الاسرائيلي امام الانظمة العربية وتسمح للطبقات الحاكمة باكتساب مواقع جديدة مالية واقتصادية او استمرار النزاع .

لقد دارت مناقشات كثيرة حول التسوية من قبل المؤيدين والمعارضين . ولأن المعارضين كانوا يقفون على نفس الارضية السياسية والفكرية التي للمؤيدين ، فانهم عجزوا عن تأمين القوى الضرورية للمعارضة . والحقيقة ان الشعب لا يملك قواه المنظمة ، وليس للحركة الشعبية تنظيمات طبقية ، عمالية وفلاحية ، سياسية وثقافية مستقلة وفعالة وذات افق واضح وخطة وبرنامج محددين . لذلك فانه لن يستطيع الوقوف في وجه طبقة حاكمة تستخدم الاحزاب والجيوش كستارة واقية وكقاعدة لتأمين مصالحها ، طبقة مصممة على التسوية ولو احتاج الامر للقتال في الداخل والخارج . فهذه التسوية هي فرصتها الآن لتحقيق طموحاتها الفردية والعامة في الاستفادة من اموال النفط واعادة توزيعها على البورجوازيات العربية .

ان حرب تشرين قد حققت للطبقات الحاكمة نصرا حقيقيا دون شك . وكان يمكن لهذا النصر ان يكون نصرا شعبيا لو كانت هنالك قوى شعبية منظمة وقادرة على الاستفادة من تعديل ميزان القوى لفرض تنازلات جديدة على الامبريالية . لكن هنا ايضا ، على النصر الذي حققه التضامن العربي ان يدفع الثمن . والنصر الذي جاء بقوة الملك فيصل يجب ان يصبح في النهاية نصر المملكة . ان خروج العرب من معارك الحقبة الماضية بهذا النصر لا يعني ابدا عودة العرب لمواقع عام ١٩٤٥ ، ولكنه يعني تصفية طموح العرب في تكوين دولة موحدة متحررة وتصفية آفاق تطور شعبي اشتراكي . ان استبدال شعارات الوحدة القديمة بالتضامن بين الحكومات والانظمة يساعدها على دعم بعضها في وجه الخطر الخارجي : اسرائيل او ايران . لكنه لا يسمح لها بتحقيق تعديل جذري في ميزان القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في الشرق الاوسط والعالم يهدد التوازن الاقتصادي والسياسي الدولي الراهن . وهكذا يكون قد تم للعرب اكتساب مواقع جديدة في تقسيم العمل العالمي يتيح لهم الاستفادة اكثر من السيطرة على منابع الطاقة ، وعلى بعض القطاعات الصناعية والبتروكيميائية والتحويلية المختلفة ، دون ان يعني ذلك تغيير مواقعهم في الاقتصاد العالمي كدول تابعة ، لانهم يشكلون دولا مقسمة وغير قادرة على بناء راسمالية حية ومستقلة وقادرة على التطور الذاتي .

لقد حققت حرب تشرين التسوية بتمكينها العرب من فرض انفسهم على

العالم الامبريالي ليعاملوا منذ الآن كتابعين كبار ولكن ليس ابدا كأنداد صغار . ولا شك ان الاقتصاد العربي سيشهد تطورا كبيرا خلال السنوات القادمة ، لكن هذا التطور لن يستطيع تعديل وضع العالم العربي كعالم تابع اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ذلك ان نموا كهذا يتطلب كشرط اول التكامل الاقتصادي العربي والوحدة والاستقلال السياسي والثقافي عن الغرب . وستترافق الراسمالية العربية الجديدة ، التي تظهر بوادرها الآن بفترة من الازدهار الكاذب الذي مصدره هو تزايد قدرة الطبقات المسيطرة على التبذير . هذه الطبقات التي ستجبر امام تزايد فقر الطبقات المحرومة الناجم عن تعمق الاندماج في السوق العالمية على تشديد قبضتها على شكل ديكتاتورية على الطريقة الاميركية اللاتينية : انه عصر الراسمالية المتوحشة ، عصر الدولار العربي .

لكن لن يجد المتفائلون جدا بحرب تشرين المعجزة العربية سريعة الوقوع وسيخيب ظنهم ، كما خاب ظن اولئك الذين اعتقدوا بعد هزيمة ٦٧ ان الشعوب العربية قد هزمت . الواضح ان كل شيء ممكن في الفترة الراهنة . فجميع التوازنات الراهنة في مصر والعالم العربي السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية ما زالت هشة ومستندة الى التوازن العسكري القائم بعد حرب تشرين . وان اي تعديل طارىء في هذا التوازن العسكري قد يؤدي الى تغيير مباشر في كل المعادلة . اذ يمكن ان تكون ضربة مباشرة وسيلة اخرى لتغيير شروط المفاوضات وتحقيق تسوية من موقف القوة الاميركية .

وفي جميع الاحوال ، ستكون آخر طلقات الحرب القومية انذارا بقدوم عصر جديد . عصر انهيار الحركة القومية لما بعد الحرب العالمية الثانية تحت اقدام الدولار العربي ، وعصر العمل من اجل ثورة شعبية حقيقية ، عصر الحرب الاهلية .

برهان غليون

ادونيس

الاغاني الثانية لمهيار الدمشقي*

اول الحنين

حَنّ مهيارُ للقصباتِ النحيلةِ في غابة الذّاكره /
تقرأ الأرض كفيّهِ ،
والليل يلبس أهدابَه / الذاكره
عُرُسٌ .

كان فجرُ الينابيع يُتمتِمُ ، والحب يكسو
جسَدَ الذّاكره
حنّ مهيارُ لِلنّار تلتهمُ الذّاكره .

---

* مختارات من مجموعة شعرية تحمل العنوان نفسه .

اول الصدق

قافلةٌ لوّحت وغابَت
وانطفأت بعدَها البيوتُ
لنعترفْ أننا نموتُ .

اول الكتابة

الطّريق دَمٌ واجتياحٌ /
جعلتُ الكتابةَ مهْوى ، تهيأتُ : رأسيَ يدنو ...
كلماتي تدلّتْ ...
جسدي يتدلّى ...

اول الحياة

في نسيج الإبادهْ
مِن ضفافٍ بلا مطرٍ ، كان يمشي
مِن دماءٍ تتوّجه ، كان يمشي
ويقول المدى ، ويقول الولاده .

اول الطريق — ١

أيها المتناثرُ في الشّمس مِثليَ ، أحلامُنا تؤاخي
بين أقدامِنا والشّرارْ
يا صديقَ السّمندل مثلي ، وضيفَ الغُبارْ .

اول الطريق — ٢

أقبلوا يحملون تاريخهم رفضاً وملحاً /
هنا نوافِذُ للحلم

هنا يملأون أيديَهم وعداً /
تنادوا وجيّشوا ، زرعوا /

يأتونَ من آخر السّواد وكانوا
حلقاتٍ ، كانوا تخوماً وأعلامــاً /

لمـــاذا تناثروا – أنثروا كالقمح أحشاءهم ؟

يقيناً ، عرفوا أنهم حَصّادٌ ، وماتوا .

اول الطريق – ٣

لا مكانٌ لهم
يُدفِنونَ
جسدَ الآخرين ، وكانوا
شُهباً ومواسمَ مـــرّوا

لا مكانٌ لهم
يصنعـــونَ
لِلرياح مفاتيحها / صحارى
يفرشون مسافاتِها جِراحاً ،

لا مكانٌ لهم
لم يقيمـــوا
نَسَباً أو بيوتاً

لأساطيرهم
كتبوهـــا
مثلما تكتب الشمسُ تاريخهـــا ...
لا مكانٌ ..

اول الخبز

لم يكن بيننا مدىً ، شجرُ الحبّ غبارٌ ، والليل مَركبةٌ
تحمل خطوي وتحملُ الصحراءَ

لم يكن بيننا مدىً / كانت الساعة عرياً ، وكان موتي رداءً :
وارثُ الرّمل يحمل الحجرَ الأسودَ خبزاً ، والشّمسَ ظلاً وماءً .

اول الرؤيا

أصواتٌ ...
تتوافدُ في السّاحاتِ / جمعنا
علمَ الآفاق ، دليل الجذرْ :
اليومَ ، ووجهُ الأرضِ هلالٌ ،
اليومَ ، سنقتلُ هذا العَصْر .

اول المسافة

تسقط الشّرفاتُ من الرّعبِ
والشمس تكسر أدراجها / الحقولْ
نسيتْ عادةَ الفصولْ

وكلانا يموتُ ويحيـــا
في دمٍ واحدٍ يضحّي
في دمٍ واحدٍ ضحيّه

وكلانا يهاجرُ — يخطو
أوّل الخطوات المشعّة في لحظةٍ غسقيّه .

أول الشمس

جسد الأرض يستنبئ النارَ
والماءُ أقدارَهُ المرجأهْ

ألهذا تصير الرياح نخيلاً ،
ألهذا يصير الفضاء امرأه ؟

أول الكلام

جسدانا هديرٌ /
تقولين — أصغي
أقول وتصغين ، تختلطُ الكلماتُ
جسدانا ذبائح / تهوين أهوي
حولنا لهبٌ وتخاييلُ / تهوين أهوي

تتجمّع بيني وبينكِ ، تشتعل الكلماتُ .

أول الأفق

يصعد الموت في درجٍ ، كتفاهُ
يجمعٌ وامرأه
ينزل الموت في درجٍ ، قدماهُ
شررٌ ، وبقايا
مدنٍ مطفأه .

والفضاءُ الذي كان أجنحةً يتمادى ...
تمادى ...

اول الفضاء

الوجوهُ الرياحُ العصافيرُ في قفصٍ واحدٍ :
إنه العُرْيِ يكشف عن جُثثِ الكلماتِ
إنه الكون يذبل / ضيّعت ناري
لغتي غيرُها ، خطُواتي
لم تعد خطواتي ...

اول النار

ألمواعيد تأتي وتنطفىء الشمس فيها
ألمواعيد تمضي وينفتح الجرح فيها
لم أعد أعرف الغُصنَ ، والريح لم تتذكّر
قسَماتي /

هذا غدي ؟

سأل العاشــــق ناراً ،
وحنّ للسّفر الضاحكِ في وجهها ، وسافرَ فيها ..

اول اللقاء

« جسَدُ الليل » قالت . وأكملتُ : « بيتٌ للجراحِ وأيّامها . »
بـــــدأنا
مثلما يبدأ الفجر ندخل في الظلّ ، أحلامنا تتشابَكُ
والشمس تفتح أوراقها :
« سيـــأتي
شجَرٌ يفرز العنفَ ، يأتي
زَبدٌ يتقنّعُ بالبحرِ » كنا

نتقرّى مسافاتِنا / نهضنا
ورأينا إلى الرّيح تمسح آثارنا / همسنا
نستعيد مواعيدَنا –
وافترقنا .

اول الحزن

رجلٌ وامرأه
يلتقي فيهما قصبٌ وأنينٌ
يلتقي مطرٌ وغبارٌ
يتهاوى الرّكام وتشتعل اللغة المطفأه
أينا الغيمة المقبله ؟
أينا دفتر الحزنِ ؟ أسألُ عيناكِ تيهٌ ،
ووجهكِ لا يسمع الأسئلهْ .

وأنا مُنتهى الليل / أعشق كي أبدأهْ
وأقولُ التقى
رجلٌ وامرأه
رجل وامرأه .

اول الاسئلة

أيامي اسمُها
والحلمُ ، حين تسهر السّماءُ في أحزاني ، اسمُها
والهاجس اسمُها
والعرسُ ، حين يمزج الذابحُ بالذبيحةِ ، اسمُها

ومرّةً غنّيتُ : كلّ وردةٍ
في التّعبِ اسمُها
في السّفرِ اسمُها

هل انتهى الطريقُ ، هل تغيّر اسمُها ؟

أول الحروف

سمّينا
شجَرَ الزيتونِ عليّاً
والشارعَ فاتحةً للشمس ، الريحَ جوازَ مرورٍ
والعصفورَ طريقاً . .

أول الأرض

لا تقولوا : جُنِنتَ / جنونيَ أحلامكم أتينا
ورسمنا وجوهَ النّخيل وأجنحة البرتقالْ
ورسمنا الحقولْ
جسداً يتفتّح كنا نقولْ
لو نجيىء ونغتصب الكون ، جئنا

من يراكِ يراني – أنا الوردةَ الأوليهْ
في رماد المساء انكسرتُ ، وبالفجر طيّبتُ جذريَ
أوراقيَ الزّغبيّهْ

تتقاطرُ في سُلّمٍ / صوتُ آتٍ
أم خُطىً تتناءى ؟

من يراكِ يراني ، أنا كاشفَ الظنونْ
وأقدّم نفسيَ للرّعد : هذا شعاعٌ
غيّروا صورةَ الطّبيعهْ

امزجوا الصّخرَ بالجناحِ ، وبالغبطةِ الفجيعةْ .
كل شيء جديدٌ على الأرضِ ، وجهي فضاءٌ
والمدى أوّلُ العيونْ

من يراكم يراني ، صرخنا :
لا طريقٌ سوى النار ، جئنا
لا مجيءٌ إذا لم يكن صاعِقاً ، وجئنا
لم تزل تكبرُ السُّجون
والمنافي ترفّ مع الهُدْبِ ، والخوف يعصفُ ، والخائفون
وَرَقٌ ،

تكبرُ السّجونْ —
يهبطون إلى الشِّعر في جُبَّةٍ في زوايا
يستجيرونَ بالحدّ ، يمشون في فُسحةٍ خرزيّة
وأنا الصّاعق الحدودَ ، أنا الرّحِيمُ الأوليّة
ويقولون : هـذا غموضٌ . ويقولون غيبٌ /
غيّبي كلـماتي
غيّبي خطواتي

واجمحي وخذيني
أيها الشهوة الملكيّه

من يراكم يراني ، أنا الشّهوةَ الملكيّهْ /
إن رأيتَ على مدخـل الجامعه
نجمةً ، خُذْ يَديها /
إن رأيتِ على مدخل الجامعـه
كوكباً ، عانقيهِ ...

وكتبنا على مدخل الجامعه :
ألتواريخ تنهـارُ والنارُ تطفئ
خطانا
لهبٌ يتغلغلُ في جثّة الأرض ، نستأصِلُ العائله
ونقيم الصّداقةَ / غنّوا
للشقوق التي تجرح الدّهرَ ، هذا
زَمنٌ يتفتّتُ غنّـوا

لهجوم الفجيعه
أفسحوا للمقيّد أن يولم الطبيعة
لأغانيه ... /

تأتين تياهةً ، غارقه
في محيط الدّم العربيّ ، تجيئين أشهى من الصّاعقـــه

لا تقولوا : جُننت . جنونيَ أحلامكم ، أتينا
وهبطنا الظلامَ ، كسرنا قناديله ، وجئنا
مثل أرضٍ تحنّ إلى الماءِ ، جئنـــا
مثل رعدٍ تقنّع بالغيم / وَعدٌ
ستكونون شمساً
سيكون الزّمانُ لأحلامنا شرفات ...

من يراكم يراني يرانا /
أفقٌ يتهجّى الحدودَ الخفيّه
كلّ شيءٍ جديدٌ على الأرض والأبجديه
لهبٌ ،
والزمانُ
سفرٌ بينها وبيني
واسمُنا واحدٌ / تأسّستُ في شجرٍ لا يموت
ورأيتُ الخطى ورأيت البيوت
وهي تنهارُ تنهار ، هذا شراري
والمسافاتُ حبلى ...

واسمُنا واحدٌ وأجتاحُ — نجتاحُ ، هذا مدانا
أن نزُجّ المدارات أن لا نكون
غيرَ هذا الجنونِ الجنونِ الجنون .

أدونيس

سعدي يوسف

ستّ قصائد

١ ــ السكون

الرياحُ التي لا تهبُّ العشيه
والرياحُ التي لا تهبُّ الصباح
حملتني كتابَ الغصونِ :
أن أرى صيحتي في السكونْ

يهبط الليل ، أزرق ، بين الخطى والنجومِ ،
أرى شجراً أزرقاً ، وشوارع مهجورةً ،
وبلاداً من الرمل ، لي وطن ... ثم ضيعتهُ ؛
لي بلادٌ ... وهاجرتها ، كم أحس النجومَ
القريباتِ ملصقةً بالخطى ، أيها الشجرُ
الازرقُ ، الخشب الازرق ، الليلُ ...
انا انتهينا الى عالمٍ يتراكم ، أو يبتدي ،
أو يموتُ .

شجرٌ للأكف التي قطعتْ . شجرٌ للعيونِ
التي سملتْ . شجرٌ للقلوب التي مسختْ
حجراً ... في المدينة ، تدنو الحدائق زرقاءَ
من وسط المقبرهْ .

والأكفُ التي قطعت لا تميل ، العيونُ التي
سملتْ لا تميلُ ، القلوب التي
مسختْ حجراً ... لا تميلُ ... ، اذنْ ... هل تجيءُ

الرياحُ الغريبةُ ؟ ان الحدائق مسكونةٌ
بالسكونْ .

للمآذن لون المياه القديمةِ ... للناسِ
لونُ الخيول المسنةِ . للكتب التريةِ
ختمُ الرقابة ... اي بلاد اتيتَ ؟
هنا : سوف تدخل باباً ، ومختبراً للعذابِ ،
وسوف ترى في الحدائق يوماً ذراعكَ ،
عينيك ، أو قلبك المتسارعَ ...
لكنك اليوم أقوى ، فقل كلماتك ،
قلها ... فبعد غدٍ تبتدي ، أو ، تموتْ .

الرياح التي لا تهبّ العشيهْ
والرياح التي لا تهب الصباحْ
حملتني كتاب الغصونْ :
أن أرى صيحتي في العيونْ .
(٧٤/١١/٣)

٢ ــ حَجَر

كان صخراً ، وكلمتهُ ...
حجراً مهملاً ، بين بيتي وباب السماء الأليفهْ
حجراً لم يلامس يداً
حجراً كان بين الندى والشموس الأليفه

حجرٌ
للنبيّ الذي كان يلعبُ
أو للصبيّ الذي كان يتعبُ
للنجم اذ ينطفي
حجرٌ
والمطارد اذ يختفي
حجرٌ
للبلاد التي كرهتني
حجرٌ

أيها المتطامنُ
بين الندى والشموس الأليفه
هل تظل السماء الأليفه
مثلما جئتها ؟
حجراً أزرقا ؟
حجراً أزرق الشفتين ؟
شفةٌ من حجر ؟
(٧٤/١٠/١٨)

٣ — تقسيم

حين كانت تجيءُ
خطواتُ الصنوبرِ
رائحةٌ للمياه التي سكنتْ شجراً
وغيوماً تضيءُ
كانت الارض بيتاً
وكانت يداها يديكْ
واغصانها ساعديك .

حين كان المساء
نجمةٌ حاصرتها المرايا
خطوةٌ في الطريق المعاكسِ ،
او جهشةٌ في الخلايا
كنتَ تعرف ان المساء المحاصر بين المرايا وبين الخلايا
قادمٌ في المساء

حين ادركتَ ان الصباح
ما يزال بعيداً ...
وان على الارض ان تبتدىءْ
كنت اقربَ ان تبتدىءْ
(٧٤/٩/٢٠)

٤ ــ الليالي كلها

في زمن الفتنه
والقتلِ
سأغمض عينيّ ، وانظر للقتلِ
أحاصره حيناً
وأحاوره حيناً
أو أرضى حيناً بالقتلْ

تسقط في الماء الشمسُ الريفيةُ
عمالٌ يضعون على الماء رصاص ملابسهم
ويصلون ليوم لا يأتي
عمالٌ يفدون الى بيتي
كل مساءٍ
حين تغيم الطرقات
وتغلق أبواب الكتب الاولى
عمالٌ أموات
عمالٌ قتلى
عمالٌ حملوا الرايات
. . . .
افتح أرشيفاً للثورات

يسألني الاولُ : هل تعرف عنا ؟
يسألني الثاني : هل تخجل منا ؟
يسألني الثالث : هل تسأل عنا ؟

●

ينتصف الليل على الكتب المفتوحه
ويغادرني العمال
العمال الاموات
العمال القتلى
العمال الرايات
لتظل الكتب المفتوحه
أرشيفاً للثورات
وسماءً تعبر منتصف الليلِ

وتمتص رصاص اللون الازرق
والعشبَ
وأوردةَ الكف المرخاة

في الصبح أحصنُ بابي .
(٧٤/٨/٢٨)

٥ ــ سقوط فندق النهرين

لا تبعد الصحراء عنهُ ،
واذ يدور النخل في غرفاته ، يغبرّ مثل الماء
في النهر القريب ، وفي الانابيب القديمه
كانت طوابقه الثلاثه
مبنيةً بالجص والآجرّ
ينفتح الزجاج الانجليزي الثخين بها
على بار الحديقة والزوارق
ولربما كان الطريق اليه أقصر حين تختار اليمين ،
ولربما فكرتَ : ما أبهى الحدائق !

في فندق النهرين
عاشرنا ، وقامرنا
تعلمنا مراوغة الكحول ــ السمّ ،
في غرفاته ... يوماً تزوجنا
وجئنا ، بعد أن دارت بنا السنواتُ
جئناه ، نجرّ صغارنا ، يتعرفون على حدائقهِ ...
وكنا مرهقين بما تحملنا
لم ندر أن الجصّ والآجرّ ...
لم نشعر بأن الماء كان يسيلُ ...
أن السقفَ ...
آهِ ... بعد أن دارت بنا السنوات
جئناه ، نجر صغارنا ، يتعرفون على حدائقهِ
وكنا مرهقين بما تحملنا ...

(٧٤/٦/٢٥)

٦ — قصيدة مديح الى مؤرخ مغربي

هكذا نفترق ، بين السفن اللائي تراءين ورملِ الأنظمه
ربما ، في لحظة مستحكمه
يولد الضباط ، أو يهجرنا نسرٌ الى الريفِ
ولكنا سنبقى دائرين
في زجاج « البلد المحزن » ...
نحن المالئين
— كلما استنفد بيت المال — أوراقَ الدواوينِ
وأوراقَ مرور الجندِ .
قالت في الحريق الشجره :
هذه النار التي امتدت الى البــــذرةِ
هل تنبت منها شجره ؟

كان في «سبتةَ» هذا الطفلُ ،
لم يحمل الى الشاطىء ، والبحرِ الذي يغرقه ، وهماً
وما كان نبيٌ القهوة المغتربه
كان بين الأتـربه
يفصل الصخر عن الرمل ، ويقصي الاجوبه

يعطر الوحلُ على أسوار مرّاكشَ ...
تلك الوردة الطينية الاوراقِ
أيام شممناها
تعلقْنا بها

ثم انكسرنا
مثلهـــا
أيّان يأتينـــا زمان النظرة الاولى
وأيان ترانا قرطبه
نحن خلف العربه
قد تعلقنا ، وعلقنا قناديلَ
ولكنْ .. من زجـــاج «البلد المحزن» حيث المأدبه :
حلْقةٌ من رؤساء البدوِ
في خانٍ على النهرِ
ســـكارى
يحكون الساعة المنقلبه

هكذا نفرق
بين السفن اللائي تراءين
ورمل الانظمه
ربما في لحظة مستحكمه
يولد الضباطُ
أو
يهجرنـــا نسرٌ الى الريفِ ...
ولكنا سنبقى دائرين .

سعدي يوسف

(بغداد ١٩٧٥)

كمال ابو ديب

تقمصات كمال ابو ديب في عصوره الاخيرة

« for Joan Naff »

اتقمصُ مثلَ يديكِ الضوءَ وأنزل نحو العالم مسحوراً
قرنَ غزالٍ أبيضَ أعلن للأدغال سقوطَ الجسدِ البلوّريّ
وبين الاوراقِ أشمُّ حفيفاً وارى أقداماً يابسةً ،
لم آتِ لأوقدَ في الاعشابِ الرغبةَ . لم آتِ لأحتضنَ الثديين
الزهريينِ . ولم آتِ لأؤنسَ أوكارَ الارضِ الموحشةِ .
فلماذا تخرج أفواجاً أسرابُ الطيرِ ، وعولُ الارضِ ، تهرولُ كلُّ
سواقي الغابة نحوي ، وتقوم الازهار النائمةُ ؟

اتقمصُ مثلَ يديكِ الليلَ واسقط فوق وجوهٍ باردةٍ . بين
الموت وبين القرنِ حفيفُ الجسم على الجسمِ . ولكني اهدأ حين تعودُ
السروةُ من رحلتها خلف الجبلِ
تحكي عن نبعٍ يتفجرُ الواناً ونجوماً وقناديلَ تلألىءُ ثم
تعود الى النبع لتخرُجَ اجساداً عاريةً لا تحمل غير القطرات المتلألئةِ
وتكادُ تنوءُ بأجنحةٍ بيضاءَ ترفرف هابطةً من اجواءٍ ناضرة .
تتعرّى السروةُ ، تسقط أثداءُ مثقلةُ / ناضبة ترهج في الشمسِ
دوائرَ ازمنةٍ نائيةٍ .

ها انتِ تجيئين فأخلع عن جسدي القرنَ واجلس عند الاوراقِ
ويأتي سربُ من بطريقِ الغابة يسأل عن اسمي فأُريه

خيوط الكفّ ونتبع باستغراقٍ تقويس الخطّ الاول نحو الماءِ
ونمضي خلف الخطّ الثاني ندخل كهفاً نخرج ندخل كهفاً آخرَ تبرق شمسٌ
خضراءُ وتهدر انهارٌ في القاعِ فنخرج ثم نعود الى قوس الخط
الاول تدهشنا لولبة الخطّ النافر نمشي نمشي نمشي حلزونياً
نمشي نمشي نسقط في بركانٍ تحتيٍّ نسقط في
نارٍ بيضاء تفرقع فيها أثداءٌ خضرةٌ ودم ودم ودم .

تحترق الاجنحة الحمرُ
ودون وداعٍ يهرع سرب البطريق الى النار يصيح يصيح يصيح . وتسقط
عن جسدي ليلكةٌ .

لم آتِ لأنأى . (كان النأيُ حزيناً كالموتِ وكانت اشواقي
مضنيةً) كانت دون القرن المسحور يداي بلا ضوءٍ شجرتين تيبستا في
ارضٍ بيضاء تطاولتا مثل عموديْ جمرٍ ثم أتى الطائر ذو الراس المشقوق .

وكان النأي حزيناً كان النأي زماناً كان النأي زماناً في أرضٍ بيضاء
بلا زمنٍ .

اتقمص مثلَ يديك الغابةَ . تجري فيَّ ينابيعُ يجري فيهـا الضوءُ
وتجري في الضوء الاوراقُ وتجري في الاوراق الطيرُ ونمضي
أعلن عصيانَ الاوراق وعصيان الاغصان وعصيان الماء وعصيان الطيرِ
ونخترق الغابةَ لا يبقى غير جذوعٍ تأسرها الارض المتكلبةُ .
نمضي لا نعرف أن نأسى :
حين يجيء الرعدُ الجافُ وتأتي الصاعقةُ
نعرف أنا سنغلغلُ في ضوء الامواجِ نفيء الى زبدٍ يرهجُ نحو الابدِ
ونقول وداعاً نترك للنار جذوعاً تأسرها أرضٌ عاريةٌ .

من كان هنا قبل مجيئي قبل تقمصٍ وحبي وجهكِ ؟
كان الهُ الغابةِ ما زال فتياً يسري عبر الاشجار غمامَ ندىً
جسداً اخضر يجري فيه الضوءُ وتجري في الضوء الاوراقُ وتجري .
كان اله الغابة يروي . وتفيء الى ظلٍّ جناحيه الاغصان تفيء الطيرُ
الاعشابُ العاريةُ .

كان اله الماءِ فتياً يسكن بين الجرح وبين الغصنِ

ويزهو والارضُ تموجُ بالوانٍ لا تحصى وباشكال لا تحصى .
كان اله التربة لا يحصي ما ينبتُ بل يحصي التربةَ والماءَ .

ومن يأتي بعد يديكِ ووجهي من يتقمصُ في هجرته الجسد البلوّريَّ
ويهبط مسحوراً تتهدّج في قرنيه — وحيد القرن — النارُ العاشقةَ ؟

اتقمصُ مثلَ بروق الحلم بعينيكِ الماءَ
واهطل في جسد الارض اغلغلُ ودقاً ورهاماً
وتجيء معي النارُ (ومن غيري يجمعُ بين النار وبين الماءِ أوانَ تفيض الشهوة)
لكني اتهاوى سغباً كيف أصير الماءَ ويقتلني السغبُ ؟
(أوليس يجفُّ النبع وآخر قطرة حبٍّ تروي التربةَ) ؟
آه ، لماذا جئتِ لتغريني أن اتقمصَ مثلَ يديكِ الماءَ ؟
لماذا لم تغري بالعودة نحو جزائركِ البيضاءِ الى أن تخضرَّ الارضُ
(وهل تخضرُّ الارض ؟) الى أن يأتي الرعدُ الجافُّ فنرقبه
من أمن شواطئكِ النائية ؟
ولماذا لا يمنح نهداك الماءَ ، لماذا لا يمنحُ نهداك الماءَ
وها شفتي تتشقق ناراً باردةً ؟
اتقمصُ مثلَ يديكِ أناملَ تخلقُ أن شاءت تمحو أن شاءت
تتحوّل ضوءاً أن شاءت أو تحترقُ .

واشكلُ من تربة وجهي وجهاً آخر لي وجهاً امنحه زمناً لا يأتي
زمناً لا يمضي امنحه ضوء يديكِ الفضيَّ صلابةَ مرمركِ الابيضِ
امنحه رقته العبرتُ
واموّه في مرآة يديكِ تخشب وجهي والوّنه بالوجه الآخرِ
بالماءِ ؛ ثم اكاد اصدّقُ .

لكني اعرف اذ ينكسر الضوء بعينيَّ ويخبو
وأرى الوجهَ الآخرَ يهوي يتفتتُ يحترقُ
اعرفُ أن الزمنَ النابتَ تحت اللحم الباردِ
لا يصقله الحلمُ ولا الماءُ فأصرخُ أصرخُ
آه لماذا اغويتِ ؟
لماذا لم نرحلْ نحو المملكة الاخرى
ولماذا لم نعبرْ في اثر طيوفٍ عبروا ؟

ويداكِ تقمصتا جرحاً (كي أعرف معنى الجرحِ) وجئتِ ترافقكِ
الاغصانُ النازفةُ
ورأيتُ الاعشابَ تمايلُ وانطلقت صرخةُ عصفور في أعماق الغابةِ
كانت عيناكِ تضيئانِ « ترى جسدَ الغابة يخضرُّ ؟ »
فحدقّتُ . ولكني لم أفقهُ غيرَ النزف الفائر
(حين يفيض الجرحُ يصير الدم طيراً
يصرخُ ينعقُ ينتشرُ
ويظلل جسدَ الغابة يطلب ثأراً) .

« جسدُ الغابةِ يملك أسرارَهُ
يملكُ أن يخضرَّ تضيء براعمه ويهيل الجرحَ
وتبقى الغابة .
أما الجارحُ »
تصمت عيناكِ .
يغيب الضوءُ .
ولكني لا أفقهُ .
كان الزمنُ الاول ينثال رموزاً .
والعين الاولى تتشوقه رمزاً رمزاً
كان الزمن الاولُ .
لكني لا أبصر غير الجرحِ .
تعالي أتلمسُ غورَ الجرحِ
تعالي .
عليَّ في غبطةِ عينيكِ
اهدىءُ نزف الجرحِ
اهدىء نزف الاعراقِ الناضبةِ .

اخرُجْ من سحر يديكِ أرَى عريي
فأهلُ في رهجته أتلمسهُ عضواً عضواً اتعمد
في دفءِ الحسِّ واهتف
في عريي ابصرُ عريكِ عريَ العالمِ

أبصره اشياءً تتناثر .

ك ا ل و ا ق
أ ر ا
س
ا ل ق
ط ة

أشياءً تتساند أحياناً تلتمُ على حسرَةِ شوقٍ
لكن تبقى قطعاً **تتصلبُ** في وحدتها الساحقةِ .
وأرى عري الغابةِ اشجاراً متكلسةً عشباً يتقصفُ هشاً
وصنوبرة تزهو بالخضرة عبر مسافات اليبس أرى سرب سنونو
م ن ق و ش ا في ملحفة الثلج اليابسِ
(ما يأتِ قبل أوانهِ يلقى المأتى
فلكل موسمه والارض / ف / ص / و / ل / لا تعرف أن تتبدّل
من اجل الآتي)

اعرف ما لا يعرفه الا الساكن مملكة الصمت
حيث الاشياءُ هي الاشياءُ وليست اشياءً أخرى
حيث الاسم هو الاسم وليس الشيء
أعرف أن الكلمةَ لم تكنِ البدء
أعرف اذ **أتحسسُ** عريي أن الموت(١) ......

أعرف أن الطير الجائع طيرٌ جائع
أن الساقيةَ الميتةَ ساقيةٌ ميته
قطرات الماءِ المتجمد فوق الاغصان العاريةِ
ليست دمعاً بل قطرات متجمدة
أعرفُ ما أعرفُ .

---

(١) وهنا أصمت . فاللغة شرك ، ولا شيء يمكن ان يكمل جملة مبتداها الموت . وكل ما اخترع حتى الآن من جمل تمويه وتكهنات رعب .

ما لا يعرفهُ غيرُ نبيٍّ مكسور الاجنحةِ
أعرفُ ما أعرفُ .

أخرج من سحر يديكِ وأبصر ما كانَ :

غلالةَ حلمٍ ، تمويهَ يدٍ تبرق في الموتِ يد ناتئة .

شركٌ تنصبه اللغةُ .

(يأخذني بعضُ حنينٍ) لكني اتسمرُ خارج عينيكِ .
أرى في ومضة برقٍ هيكلَ عريكَ ينهارُ عظاماً تتقصفُ ، تزهو ، تنتثرُ
طيناً هشاً يتفتتَ في نارٍ تستعرُ

اصرخ ، في هيكل عريكِ ، اصرخُ :
آه لماذا لم نعبر في اثر طيوف عبروا ؟
آه لماذا ، آه لو انك ، لو انك دهرٌ .
لو أني ،
لو أني حجرٌ .

كال أبو ديب

(أوكسفورد ١٩٧٤)

صلاح فائق

تلك البلاد ...

الى هيفاء خليل

هذا هو الوقتُ الجميل ، وقتُ استدعاء الطفولة ، النظرُ خاصةً في لحظاتٍ انفلاتها من العقاب ، الفرح بتلكَ اللحظات . وقتُ نسيان الخلايا المتلعثمةِ في الثلج . وقتُ القرفِ من الاحزان ، ومن الجدرانِ التي تشجعُ الغرقى على الاتيانِ بالصحفِ والتحدثِ عن الهجرة وعن حقول تُسقى الآن في نجمةٍ من النجوم . وقتُ المشي في الهواء ، والتكلم مع الطيور . وقتُ القرارات الساحليةِ امامَ البحر . وقتُ الضحكِ الطويلَ .

ارثٌ وشوكٌ يحترقان
كنزٌ يظهرُ شيئاً فشيئاً
لا ارىٰ غير هذا .

الضبابُ علىٰ الاوراق ، بينها وبينَ شفتيّ
وقائع ختمتُها من جميع الاطراف .
ايتها البهجة ، يا من بحثت عنكِ دائما لتكوني مع الافكار
لتشجعي القواربَ كي تواصلَ قبلاتها الطويلة
والاختَ لتصعدَ اليّ ولو لمرةٍ واحدة ،
افتحي ايضاً هذا الفيضان البريء

لأرىٰ للمرة الاخيرة ذلكَ الحشدَ وهو يُقسمُ بؤبؤَ الطاووس ، ثم يوعزُ الى الاوكارِ ان تضطجعَ وتستعرضَ في غفوتها
انهيارَ السراديبِ وقامات البلور ، تفاصيلَ الحملاتِ ضدَ العصافير ،
تستعرضَ الزنوجَ المكابدينَ بين الصخور وهم يحلمونَ بجواري الوهاد ،
فرحينَ بالنسيانِ لانهُ يحتفظُ بما نراه ، يحتفظُ بقاع الزوارق القديمة .

وانتَ ايها الفم ، لا يكفي خلقُ ريحٍ تحمل العبارات الى النائمين او الى من هو منسيّ حتى الآن . أصرخْ . تحدّثْ عن الإسرار التي تدفعُ البردَ ليخفي رسائلهُ ويهربَ مع الاطفال الى الجبل . قلْ انكَ اكثر من شرذمة تريدُ الجنونَ وشعلته الكبيرة . قل ان العقل لم يعد سوى حشائش ، وانك تلمسُ بوابات تنفتحُ في الفضاء وتغري بالدخول . تكلم عـــن الطبول النحاسية تستنزفُ اشتهاءنا لمـــا هو اولي . طبول في الفجر . طبول في الغسق . طبول في العبارات اليومية ، في الخطوات الاخيرة لاحتفاء اسود . طبول توجهُ المياه ، تتنكر للنيران . طبول الطرق ومفترقات الطرق .

لستُ مستندا الا الى الفضاء
ثمة اثقالٌ في دمي ، ومفاتيح
اينَ انتم يا من غنيتم بين الكهوفِ وفي الصباحات الندية ؟
تعالوا ارجوكم تعالوا ، او احلموا :

تنفجرُ الجواهرُ بالتحديق ، والشغيلة تستيقظُ لان النظر يَذكرها بأسمائها ، يذكرها بالاوائل .

هكذا يُمحى مشهدُ الرعاة المصطفين ازاء المحنة ، ازاء الامواج الواقفة تفكرُ حزينة بالنقيض ، بما جعل الاشجار مجزاة تترسبُ هذا الترسب الكبير مع آلاف الشكاوى وهي تصعدُ من مخابىء العميان ، من الوحل ، من غرف الانهيارِ ، من مغامرين يئسوا ، فتركوا سلالمهم في الميادين وذهبوا يقيسون سهولَ الذاكرةِ ويفكرونَ بالذي جعل الصياد غافيا والرئات المريضة زينة لسكان المقاهي وللخارج في الليل الى منتصف الوطن يريدُ ان يُسمعَ يريد ان يكونَ نبيا لساعتين .

هذا هو الوقت الجميل ، وقت استدعاء الطفولة ، النظر خاصة في لحظات انفلاتها من العقاب . الفرح بتلك اللحظات . لكن ، قبل هذا ، كنتُ وديعاً في شقة ما ، اراقبُ الهواء ، العشاقَ ، المقاعدَ ، اقرأ الروايات وابتسم للمارة والمرضى ... حتى نهضتْ في ظهيرةٍ ما ، مجموعة من الاوراق الهامدة واتجهتْ الى النوافذ تتكلمُ عـــن غجر المدن ، وعن طلاب يفتحونَ الاشرعة ويفشونَ للمستنقعاتِ لوعة الفئات والورود والدلالات المقصية عن الاوهام . ومن بين الكلمات ، تقدمتْ سحابة غريبة والقتْ على يديّ ، شفتيّ ، القتْ في دمي شقاءها ووصلتني بالاعصاب وبالافقِ الذي كان يغصُّ بالمكتشفين . حينئذ ، صارت الكتابة لا عن المنتحرين ، بل عن الادغالِ التي بنتْ عقوبتي الحالية حتى انتهيتُ الى طرقات لا تنتهي ، ونوايا تريدُ دائما سماع نواح الافعى امام الطائرات وفتحَ القرى الملغاة للرغبات ، للحديد ، لهيجان الزجاج ، للربيع ، وللمضائق ؛ حيث القيتُ وحدة افعالي ، قمصاني ، وبقية النقود والكتب .

تعلموا ، اذن ، ان الحدائقَ صالحةٌ للمشي ، للخيول ، للاخضرار ، للتفاصيل للمسلحين المحبين لابتسامات الامهات ، لعطاءات الندى ، لازدواج الكلمة ، ولزيارة الغازات والاجوبة .

تعلموا ان الصباح الذي كان يبتدئ بالقرابين
اليوم الاول بعد سقوط القشور ، اللحظات الاولى ، ستبدأ بغناء فتاة
بلا جذور ، والتعب الذي سنحسه هو لأننا عراة سنكون
ولأن تفكيرنا سيغدو حراً بلا قوى : ننادي اليمامات من الخارج
ونفرح لأن استبشارنا يعقد علاقة رائعة بينها وبين البحارة .
ثم ترفرف في الهواء
نقول لها تعالي دائما ، فتقبل .
بدون هذا ، سنكون امام انغلاق آخر للابواب
حيث سيخرب الهواء المعزول عزلته ، ثم امتلاء السديم وسير القاطرات .

هذا ، ايضا ، ما اسميه بـ « تلك البلاد » وانا اضع فمي على علب رصاصية تمتلئ بتظاهرات تطالب بالعشق ، بالضحك ، باطلاق سراح الفجر والاطفال والسفن والغزلان ، وتسأل لماذا الضواحي لم تعد تندهش ، ولماذا المدرعات ترابط في الهواء ، وعلى البيوت رايات القادة المبللة بافرازات ، تسأل لماذا الازقة منقسمة على نفسها وتنسى ما تدربت عليه عند المقالع التي تطوقها عندما نريد ، قوة الامل ، تطوقها الحناجر المشغوفة بالشفق ، المشغوفة بالجهات كلها ؟

تنقلي ايتها الوقائع ، كوني خفيفة كالاسرار ، مجيئاً الى الذهن لا تمحوك الهواجس ، لا تمحوك عذابات قاطع الحطب ، ومن يقطع سكون الخيال ، وهذا الذي يقطع كل المخاوف المصنوعة من الانتظار ، التباهي ، ومن المهرجانات التي توشك ان تتكلس في قوالب الراس ثم تراجع احيانا لتفسير بنية ما ، وربما لتفسير الريح والقبلات .

هل يكفي هذا ، ام اعين عوائل ترقص ومهرجين يتولون ويفعلون ما يسر ؟ هل اجلب التضاريس ام الاشكال المهذبة حسب الصبوات المنشورة في صحيفة ما ؟ هل اشتري ايضا كتابا عن الحيوانات والنباتات التي طولبت دائما بالبقاء في الغابة لأن المدن منهمكة بالمضغ حتى الساعات الاخيرة ؟ وهل افتح منتصف حياتي لألقي تحية على ذلك الذي طويلا تنقل بين الاغنام وخاف ان يُرى من قبل الآلهات فلجأ يطلب حماية الخيول وفرح لأني قلت له : انت تجمع جميل للجواهر وللاكوان ؟ تداعيات وتساؤلات تتجاهل ما اريد . تداعيات لأن الزهور اخيرا تقفز من وسط الارتال . تداعيات لأن الاصدقاء مجردون من ازقتهم ومن الاهراء . تداعيات كأنها ارتاحت لقرار اجلته ، وهوذا يستحيل عراء ، رصدا للضحايا ، مكانا تغيب فيه الالوان ويتأكد فيه موت الحبيبة . قرار يتكشف عن مطاحن وعن ضياع في المعامل وفي الاقوال وبين المناضد وبين الانهر والجداول وبين عويلين لذئب جريح اريد تقبيله ، وعن غروب يتقلص تحت الحروف وعن مباغ ينتبه فيها احدنا — في لحظة ما — الى بكائه بين يدي امرأة تقبل رأسه ويديه ، وعن ثكنات سمعت فيها ذات فجر جميل بموت جيفارا . تداعيات ترفض النجوم وازدحامات البريد ، ترفض صوت الكلمة وصوت الفراشات ، ترفض الزقزقة والبيادر واللقاءات في كوخ ما ، ترفض اغراءات الخلاص . تداعيات يندفع منها الرمل تندفع منها المباهج المؤقتة تندفع منها الاحراش ، ومن الاحراش يندفع التراب

والجسور التي رأيتها منذ الطفولة وهي تمسكُ دفاترها الباقية من النهب الكبير ، يندفع العشاق فاقدينَ اماسيهم ، يندفعُ سلام عادل ، يندفعُ الفضاء غريباً ، مهجوراً ، منسياً ، ولا **بغداد** له ، يندفعُ احد الجرحى مستنجداً بي بينما انا واقفٌ في المشهدِ عند حديقةٍ اراقبُ مراهقينَ يعدمونَ مهندساً ثم يرمونَ تماثيل البرونزِ بالرصاصِ ، ويضحكون .

هكذا
اضاعتْ
الايامُ
بشرتها ، وابتدأتْ مرثية الاحياء .
ومنذ
ذلكَ
الوقت ، يهيمُ الاصدقاء آملينَ موت الاعراس ، انقراضَ النوايا ، الضيوف ، الرايات ، والممرات المؤدية الى اي مكان .
منذ
ذلك
الوقت ، نحن في المللِ الكبير ، نحن المللَ الكبير .

هذا هو الوقت الجميل ، وقت استدعاء الطفولة ، النظر خاصة في لحظات انفلاتها من العقاب

الفرح بتلك اللحظات . لكني ، قبل هذا الوقت ، كنت انحني دائما على السطور التي كتبتُها ، فأرى اصدقائي يبرقونَ من بين الكلمات ثم يختفونَ حاملينَ في اكفهم نزيفَ غربتي عن كل شيء وعن اعوامي الثلاثين .

واليومَ ، يخفق قلبي كأني العاشق الاول . اليوم ، انتهتْ خرافةٌ وزعتني حياتين : حياة في الملحِ ، واخرىً في بداية الكلمات . حياة في الضفافِ مع حب الاطفال للاحجار الملونة وللدمى ، واخرى نقلتُها اليوم وتركتُها وسط الامواج لا اعرفُ اين . حياة من الصحون الطائرة والثرثرات المملةِ عما يغير العقل ، واخرى في ملكوتِ القمع تحتفظُ في ذاكرةٍ ما ، في ماء ما ، بمخيلةٍ ترسمُ الخنادق وتحفرها رغم غيابَ الابواق وامامَ الديار التي لا تهتم .

وانا الذي قبلتُ بزئبق الجسد ، رضيتُ به ، وتركتُ جسدي يتحصنُ بالجفاف الكبير ، ارىُ الارض ما تزالُ صالحةً وتدورُ حتىُ الآن باحثة عمن يقلبها ، يرفعها ، يقبلها ، ويعيدُ اليها اعمارها الاولى ، يعيدُ اليها المواعيدَ ومشاهدَ المجيء البريء الى الموانىء ، الجزر ، والى الغابات .

انما ، ازاء هذا ، اقولَ انت باطلةٌ ايتها القسوة الحديدية ، باطلة هذه

الحواجز التي تمنعني عن الذهاب الى البركِ الصغيرة لانقذ المراكب الورقية والاسماك المهددة بالقصف .

هذا ما تعلمته من فرحة الوتادين . تعلمتُ ان الخلاصَ ليس فكرة . الخلاصُ طالبة ، ماءٌ يصنع التحولات ، تنويعٌ من الاراضي والحقائق المشطورة في الرأس ، الخلاصُ طير .

اعذريني ايتها الحبيبة الربيعية اعذريني . مهتاجٌ لانني لا اعرفُ ما افعله برأسِ تمساح .

واذ افقدُ ، هكذا ، خطوطَ الدوران الكوكبية ، وافقدُ الاستجابات بسبب هذا العزفِ على الوتريات وحدها ، يستدرجني لمعانُ الارواحِ على الاحجار ، يستدرجني كل لحاء . مهتاجٌ اراقبُ يومياتي تتحدثُ عن امرات قرأتُ عنهن كثيراً ثم اعدتُ تركيبهن بحيثُ يلائمنَ مشاريعيَ الملقاة في قارب . مهتاجٌ انهشُ في ذكريات الجيران لعلي اجد المأوى هاربا من شقة ترتفعُ فيها المنافض بينما اضاعفُ الكهرباء في كل مرة لكي تتم المحافظة على الطقوس / الفرح في الضوء برجفة النهدين / الفرح بالجذور والنخيل في الباحات .

من الذي أحال الشرفات الى شفاه ؟
هذا ما يحيرني الآن
وفوقَ هذا ، من اينَ تذكرتُ هذه الشفاه
تلك الاصوات البدائية ، فراحتْ تردد المراثي بمفردات الاقواس ؟

آه ، مزيداً من النسيان ، مزيداً من المستحيل يا رائحة الغرف المكررة حنانٌ لا يغيب ، حنانٌ للسفوح وللهمسات في الليالي بين البرديّ . يكفي . لا انتهاء لغناء السكارى . القي بنفسك ايتها التفاصيل الباقية ، القي بنهاياتك في اعماق البراكين . وانتِ ايتها الخسائر ، البسي معطفا يقيكِ من البرد ، ويلائمُ المهام المدونة في كتب الاقدمين . اذهبي الى التخوم ، فهناكَ الهوسُ يتحملُ الخرابَ وموت القلب . انقلبي ايتها الالوان كروما ، انقلبي الى مشهدٍ يبهجُ من يجلبَ المؤنَ ويغتبطُ للتعاليم .

هذا هو الوقتُ الجميل . وقت استدعاء الطفولة . النظر خاصةً في لحظاتِ انفلاتها من العقاب .

الفرحُ بتلك اللحظات . لهذا ، اعلنُ اليومَ بعضَ تلك الاسرار التي منحتها الشمس اليّ . ملايين القامات من النرجس بدلَ الاسوار ، العيادات لتمتلىء بالنرجس ، بالاندهاش ، وكل شيء لينغمر بالمسيرات الفجرية ،

بانحدار الينابيع . ولكي تختفي القطط المدوية ، ولا تكون السنوات الباقية زيارة دائمة للذاكرةِ او للعجائز .

لا جدرانْ
اكوامٌ من الذهب
املاكٌ وحكاياتْ
شعبٌ كبيرٌ يتلقىُ في كل اوقاتهِ قُبلاً من أعماقَ لا تُرى ،
الشهوة العظيمة غير صامتة
والامواج اذ تقتربُ لا تتخذُ شكلَ ابراج حجرية
الطفلُ الكبيرُ ليسَ ذكرى
لا تناظرَ مهمومة بفراغاتها
وفي المرايا لا يتزاحمُ الموتى ،
نحلمُ دائما بمراكزَ غير مألوفة
بلادٌ لا تتكررُ ابدا
ولا زمنٌ فيها للاسرى ، ولا غسقٌ يتابع النسيان
مدىً من الامكنةِ الزرقاء
لا نظرات اخيرة ومريرة ،
رملٌ صاخبٌ
وفمٌ فرحٌ خارج الاعتزالات ،
والفجرُ الذي كان وحيداً حتى الآن
ليرثَ الانفاسَ والضحكات .
بلادٌ
بلادٌ
بلادٌ من الصاعدينَ الى اللامرئي .

(٨ شباط ١٩٧٥)

صلاح فائق

سركون بولص

دليل الى مدينة محاصرة

دليل الى مدينة محاصرة

كقبضة ،

او ككتلة من الاسفنج المجفف ، المتبلور عبر عشرات السنين ومرورا بتجارب لا حد لها يجريها عليها البحر كيمياويا : او مجرد دائرة كاملة من مادة متصلدة ، نتيجة تشنجات مسلطة عليها من قبل الشمس : حرة من الخارج ، عمياء في الداخل مكهربة بالغياب الذي تحتويه المادة ولا تستطيع الا ان تحتفظ به في وجه قوانين **الحركة**

او محاولاتنا الجدية في ابراز الدلائل من داخل دوائر النوم ، على وجود اليقظة ، وانتشال لحظات قصيرة من الضجيج من مدخل قطعة من المعدن المطروق : احيانا يسحر هذا الشعور المؤلف من حركات لانهائية دقيقة ،

من **اقدام**
نملة عاملة **مثلا** ،

عيننا الداخلية وكأن كل شخص ، منتصبا على قدميه المشرئبتين من عنقي زوج من الاحذية الغامضة ، هو مجهر كبير مغطى بالثياب : تمثال قبل ان يزاح عنه الستار ، وهذا التمثال لفرط امتلائه بالانعكاسات المترددة الوافدة عليه من الخارج هو مطلق فريد من اصوات هبارية وانبجاسات مشيرة الى مناطق التحرك ، بحيث انــه ، نتيجة حياته التي لا تعرف التلف وانمـا الاستيعاب المطلق ـــ يبدو مستعدا دائما لاطلاق النار على ابعد رجل يحدث انه يسير في طريق فرعي ، في **بلدة**
ثانية

لكي يثبت ، مثلا وعلى الاقل

١ ـــ ان هناك دلائل قاطعة على وجود حياة كثيفة جدا وخصبة في

أ — اليد الملتزمة بألا تتحرك الا ضمن المسافة المعطاة لها في حدود الفضاء الـذي يحيط الجسد الـذي ترتبط بـه الى الابد (الا في حالة البتر)

ب — العين التي تشارك في الاحداث وهي معلقة ضمن قناع علقته يد معينة على مسافة معينة من الارض
لمجرد الاطمئنان .

٢ — ان عملية الجمع بين اليد والعين في خط منحن واحد يميل على القاعدة ويساعد على توجيه حركتها الكلية ،
نحو

أيما هدف

تضع بين ايدينا ، اي هذه العملية .
تضع بين ايدينا جهازاً خطرا يمكنه قلع مدينة كاملة من جذورها القديمة ووضعها من جديد في حدود الاشعة الجنونية التي تنطلق مـن هذه الفتحة العميقة التي لا تتخذ اسمها الحقيقي الا بمشاركة عضو آخر يتخذ اسمه الحقيقي (**اليد**) حين يقدح غيابهما المزدوج

معا
في
مركز الجلد ، وبقسوة ، **عنف** ، ضروريين
آنذاك تدفع القاعدة مصيرها الى جانب هذه القابلية التي كانت خاما حتى الآن :



وتمضي مندفعة الى خارج الاسوار كرسول يخرج من مدينة محاصرة ذاهبا الى نقطة ثابتة ترشده اليها الرصاصات المنطلقة من حوله والموجهة اليه بالذات .

مرآة بحجم العالم

١ رحلة ح
٢ رحلة ب
٣ ح يرحل على شكل مثلث
٤ ب ترحل في دائرة
٥ كل منهما يرسم زنزانة هندسية في الفضاء
٦ حين يلتقي ح ، ب يذهبان الى فندق
٧ في داخل الفندق  ح ب 

٨ يجلس ح في سرير ضيق (يشعل سيجارة

٩ تنحني ب على عضو ح

١٠ يذهب ح الى النافذة

١١ في خارج النافذة جسر عليه ٤ رجال يضربون رجلا خامسا

١٢ في الميناء القريب طيور ساكنة في الهواء كطيارات ورق

١٣ عمال يضعون مرآة كبيرة في قارب

١٤ ينزل ح الى الميناء ويتناول حجرا بيده اليمنى

١٥ تخرج ب من الفندق وعلى فمها آثار امتصاص عميقة

١٦ تقف الشمس في مركز الكون بالضبط

١٧ يتجه القارب شرقا (تواجه المرآة هيكل الجسر افقيا

١٨ في المرآة : ح عاريا

١٩ يتجه القارب شرقا

٢٠ تتلقى المرآة الشمس في قلبها تماما

٢١ يطلق ح الحجر بكل قواه مصوبا نحو المرآة

٢٢ يلقي الرجل الخامس بنفسه من اعلى الجسر ويأخذ بالسباحة

٢٣ ينظر الرجال الاربعة اليه بصمت

البحر في انسينادا

كنت في ذلك الوقت
قد كففت عن السير ومن تعبي المفرط لم أر
نفسي الا وانا في الرمل والبحر يزحف من حولي واذناي ترتعدان بالضجة الشبيهة باللهاث كأن بين صماخيهما مجرى يهدر في داخله الموج . بين جانبي راسي وليس على حافة اليابسة قادما من هوة المحيط : البحر ، بلا وزن في شبه الليل وكأنه آلة حية . ومن ورائي غرفة الفندق وبعض السواح المتأخرين . كان ينزل في صماخي الايمن هاربا في فضاء رأسي تاركا نوعا من الاحلام الحرة . وقدماي في الرمل ، كطائر بشري له يدان من الجلد بدل جناحين . ودخل مجال نظري عابرا سبيل ، قامتان . رجل وامرأة يسيران على حافة البحر . فكرت بأنهما يتكلمان او ربما كانا صامتين . لم يكونا قريبين مني .

كانت لهما
اقدام سرية تخفق بهدوء كأربعة نباتات متشردة تحمل اكواما هائلة من الجذور بالمقلوب ، متوازنة بفعل معجزة او بفعل قوانين لا اعرفها . في الحقيقة ان الاشعة المنومة التي تخرج من البحر هي المسؤولة ، كثيفة ومسيطرة كيدي فنان يحرك الدمى من اعلى المسرح . أو ربما كان هذا هو

ما يحدث : الاشعة التي تحيط بهذه المنطقة ، تربيا من البحر تحيل الجو الى ما يشبه الاعماق ، اية اعماق او الاعماق البحرية بالأخص . لذلك يبدو الفضاء نفسه ملموسا بيضويا كمادة والهواء يتحرك بكثافة

لذلك
كانت قامتا الرجل والمرأة تسبحان بمشقة في موجة واحدة
تحملهما على الرمل قريبا مني الآن حتى لأرى جانبي وجهيهما وفتحة الفم الجانبية للمرأة وحفرة العنق ثم يبتعد كل شيء سابحا نحو نقطة التحلل ويبدأ الرجل بالاختفاء تدريجيا وبعد ذلك المرأة عندما اغمض عينيّ اكثر

هكذا

غرفة اليوناني

لن ازعجك اكثر من هذا .

كلا ، انا نفسي خرجت لأجد احدا اتحدث معه .

خرجت في الليل تسير لتجد احدا تتحدث معه ؟

نعم .

ليس هذا غريبا .

ولكنني لم اتوقع ان يهطل المطر بهذا العناد . والبرد ايضا شديد .

انك لا ترتدي ملابس حقيقية . سروالك صيفي ؟

انه خفيف ولكنه جيد .

لن ينفعك كثيرا . خصوصا هذه الليلة .

رأيت عينيه تتحركان في قناع مظلم من الجلد . انتظرت ان يكمل .

هذا هو يوم الطوفان .

يوم ماذا ؟

الطوفان ، الطوفان . (يداه ترتفعان) انا ، انت ، العالم : كل شيء سيغرق ، سيغيب .

اليوم ؟

اليوم .

وبعد ذلك ؟

لم يفهم . — بعد ذلك ماذا ؟ ماذا تريد ان يبقى **بعد ذلك** ؟

صعرت في انفه النحيف نبضة قوية من الدم والشماتة ، وسمعته يلهث .

فكرت وانا انظر الى حاجبيه ، متحاشيا كرتي عينيه المطفأتين الى الابد : من هذا الرجل ؟ وعلى المنضدة يداه : طويلتان وعظامهما بارزة ، وقفازان

احدهما مثقوب على نفس المنضدة يبدوان مثل سمكتين من القطن احداهما لها عين واحدة ، او فتحة شرج ، في الاسفل . لم انظر الى الغرفة فقد كنت اشعر تلقائيا ان البرودة ستشتد عندما ارى الكراسي الخشبية وبقية الاثاث العاري : كان الرجل يونانيا واعمى .

اجنبي مثلي .

وعندما لم يتكلم ، قلت

مثلي

مرة اخرى .

انك من بلد آخر ، مثلي . نحن اجنبيان .

لم يكن يدخن ولكن انفاسه كانت من الثقل احيانا بحيث كان يبدو لي ان نوعا من الدخان يرتفع ببطء من بين اسنانه ، كان يدخن سيجارة لا تنتهي في الداخل . لم يكن يسمع اي شيء اقوله واغاظني ذلك ، وعرفت ان الرجل من العناد والجنون بحيث انه لا يريد ان يفهم احداً او يسمع احدا . لا يريد الا ان يجعل شخصا آخر لا يهمه من كان يصغي اليه وهو يتحدث عن الطوفان في غرفته الضيقة التي تهزها اصوات المطر في الخارج . وكنت اعرف هذا النوع من المتعصبين جيدا سوى ان الرجل الجالس امامي لم يكن له اي طموح حقيقي في تلك اللحظة سوى اقناعي بأن الطوفان حقيقة صارمة وضرورية ، وكأنني بتصديقه سأثبت ذلك الوهم حقيقة الى الابد لانه لن يكون وحده ، وهذا هو الفرق .

حفر على الخشب

في وسط الحقيقة ، الخطأ الذي يزحف كالدودة . الحقيقة = تركيب فسيفسائي من التناقضات : العلاقة بين الاجزاء ، تسميريا وفي نوع من المنطق الاعمى . منطقة المحاق حيث الغرائز والاحلام في حــرب . كاستعمالات السكين : القتل ، او كشط البقايا القذرة عن مائدة ليجلس عليها الضيوف . او لمجرد الاخافة . حرارة الشر والنشاط الغريب لأدوات التحريك في اللغة العربية . تسمير الأنا المنهكة عارية الى جدار صلد من الاسمنت ، بواسطة فأس . الشمس تتكيء على عمارة بعيدة . على المائدة ، سمكة مقلية في صحن . **الباحث الحقيقي عن الحقيقة هو الذي يجد ما تنبىء جميع الظواهر عن انه الحقيقة وحين يتاكد من انها الحقيقة ، يعمل على تجاوزها بكل ما يستطيع من القوة .**

مسيح ، حفر على الخشب . اسنان مكشرة باتجاه الارض ، والعنق محني هندسيا وبحدة كأنما تحت ثقل الوهة عمياء لا اتجاه لها الا نحو الاسفل . الفنان : مجهول . **عملية التجاوز تلك اصعب من الحقيقة بكثير . قد تكون هي الحقيقة الوحيدة**

الشمس تنفذ دائري ، في الليتوغراف . منحوتة القلعة (برونز في الفضاء) :

القاعدة لها ارجل محدبة الى الداخل ، كمخالب طائر ضخم متجمد من الجوع . حلم : في الصحراء . امرأة عارية تقود هيكلا عظميا لجمل يحمل على سنامه طفلا نائما . رجال مقنعون لهم ذيول طويلة يعملون على نصب انابيب بترول ضخمة في الرمل . احدهم يصوب مشعل لحيم ملتهبا نحو وجهه عندما يحاول ان يقترب من المرأة .

كل حقيقة تصل اليها مغطاة بالدم ، وبعض النمل . عندما ينامان ، مجرد رأسين . مسرحان ترتفع فيهما ستارتان عن مشهدين مختلفين . الجموع التي تزحف تائهة او تتنقل وتفعل ، حرة ومختلفة في كل رأس . الاحداث غيرها والحلم مختلف . الحلم الذي يتحرك مستقلا وبشروطه الخاصة في الظلام الذي لا يعرف فيه احدهما الآخر . يناما ن ثانية .

تقرير

اطعمناه قليلا من الزبدة على قطعة خبز ولكن الحرارة سرعان ما اذابت الزبدة فأخذت تسيل على فمه وصدره العاري حرارة تذيب البلدة نفسها كقطعة من الزبدة تسيل على اعمدة الافق وهناك جماعة من الرجال في واحة تختبىء في ظل يتقلص بسرعة ولكننا في الليل لم نستطع ان نسيطر عليه اذ اخذ يعوي بصوت عال فوضعنا على فمه قطعة من المطاط وبعد ذلك اقترح احدنا ان نحشو قطعة المطاط في فمه اي نستعملها بصفة كمامة وفعلنا ذلك فهدأ قليلا وحاولنا ان ننام ونمنا بالفعل ساعة ونصف قبل ان نستيقظ على هذيانه الذي عاد اعلى هذه المرة وبعد ان رآنا اخذ يصرخ خفنا من ان نعيد الكرة ثانية لانه كان قد ابتلع الكمامة واخذ يعوض عن فترة صمته بنشاط اكثر في الصراخ حتى ربطناه الى شجرة ورحنا نحشو فمه بالخبز بزعانف سمكة كبيرة بدفتر التقارير واخيرا بحذاء احد منا ولكنه لم يهدأ الا قليلا واخيرا رأينا ان نتركه وحده ولمصيره على حدود البلدة المؤدية الى الصحراء ووضعنا حول رأسه اكليلا من عيون الاسماك الميتة تستعمل احيانا بدل الخرز لدى بعض القبائل النهرية ولكن سرعان ما استولى علينا الشك ثم القلق ثم الفزع جميعا عندما رأينا بوضوح ان العيون الجامدة في اكليله قد بدأت تتحرك او تنبض او تلمع وهي تحدق فينا بثبات مميت حتى لم تعد لدينا قوة كافية نواجهها بها ورأينا انفسنا واحدا بعد آخر نتراجع ثم نهرب بقوة متزايدة دون ان نعرف الى اين

البلدة

ظهرت البلدة من النافذة ، في الغرب حيث تجمع القمامة على شكل جبل هناك مثلثات بيضاء واخرى سوداء يظهر اخيرا انها طيور ، وبعض الرجال المقوسين يبحثون في اعماق الفضلات التي يتصاعد منها بخار برتقالات متفسخة . يبدو احدهم وفي نهاية ذراعه علبة فارغة الا من سمكة سردين واحدة متيبسة قليلا . وجد احدهم نظارة بزجاجة واحدة واخذ يجربها بوضعها على جسر انفه ، ثم نظر الى اعلى

بعين واحدة

مفتوحة في الاطار المفقود والاخرى مغطاة بالزجاجة ، فرأى العالم مفصولا في وسطه بخط افقي حاد يترجرج كحافة بحر عدسية متلألئة في جانب وفي الجانب الآخر ظلام شاحب تظهر على سطحه قامات طويلة منحنية تشق طريقها بين البيوت بصعوبة

الحانة المكسيكية (البلدة II)

في الاعلى حيث الكوة المنفردة يدخل منها النور وذات مرة ، لدهشتي ، يدخل طائر ضائع بالخطأ مفكرا بأنها تقود الى الخارج وفيما بعد ظـل يضرب بجناحيه جدران الغرفة مدة ساعة دون ان يستطيع الخروج

قبل ان تنهض المرأة وشعرها الكثيف الاسود

يغطي ظهرها العاري وتحاول

ان تمسك به وهي تضحك

حين امسكت به في النهاية وبعد ان اتعبته ، بعد ان يئس ، بعد ان استسلم اتت به الي

بينما كنت ادخن في السرير ووضعته في يدي المفتوحة وهو يرفرف بـين حين وآخر ، اسيرا في كمين

وقالت شيئا بالاسبانية

EL PAJARO

لم نكن نتكلم كثيرا لان اسبانيتي ، التي جربتها معها يائسا ، كانت رهيبة . ولكنها كفت عن الضحك واخذت تمشط شعرها رغم انها ظلت واقفة تتأملني والطائر في يدي وانا احدق في عينيه الخائفتين : كانت الغرفة مبنية من اخشاب نحيفة واصوات البلدة تاتي الينا بسهولة

من الخارج . وفي الاسفل كانت الحانة الفارغة التي تجلس فيها فتاة تدخن بعصبية ، منتظرة

ارتديت ثيابي ونزلت الى الاسفل .

حاملا الطائر معي

وحقيبتي

ولم اسلم على الفتاة التي اخذت تبتسم وسحقت سيجارتها على الارض ، ثم رات الطائر فأخذت تنظر الى يدي كأنها تتوقع ان افلت الطائر في وجهها ، او ان امرغه على شفتيها الحمراوين كعضو جنسي مريش او ان اجبرها على اكله حيا وحارا كالرغيف

في الباب اضاءت الشمس وجهي

منتصبة كفرن ذري ينطفىء فوق البلدة

حيث فلاحون فقراء يتسكعون تحت قبعاتهم على حافة المحيط الرخوة متحدثين بأصوات عالية وبسرعة وبضع دجاجات بيضاء تخطو بين احذيتهم المصنوعة من القماش ونساء بدينات يتصايحن على عتبات اكواخ ، بعيدا عن الخان الذي تركته ذاهبا الى البلدة

في الاشعة الضعيفة بدا الطائر ضئيلا ويدي التي تحتويه كقفص ناقص ، عظمية جدا

ونحيلة كيد سجين يذهب الى البيت بعد ان اطلق سراحه وبعد ان قضى مدة سجنه الطويلة صامتا ، حالما بكل شيء في العالم المقدس .

تركيب حلم

تتبع المستقبل في مجراه الدموي افقيا وباستقامة وعلى ايقاع واحد هو الخطوة . في الوسط هضبة . على اليمين امراة منحنية وشعرها الطويل يغطي حفرة فيها اضاءة ضعيفة تأتي من وجه طفل ، وعلى اليسار ، البلدة . تراقب نفسك وانت تقترب من الهضبة كأن شخصا آخر يراقبك وانت تقترب من الهضبة ، كانك لست انت ، عاريا ووحيدا في فضاء . مع انك لست عاريا ولا وحيدا ، مع انك لست في فضاء . تجد طيرا يقترب من يدك اليمنى ، وتفتحها فيجلس فيها منهكا .

البحر (II)

عبادة شمس على المنضدة

على الشاطىء لوطيان اسودان وفتاة تسير بمهل ناظرة الى المحيط ، قريبا منهما حافية

وشعرها طويل واحدى يديها مفتوحة امام وجهها ، تنظر الى المحيط من خلال اصابعها الخمس الشبيهة بقضبان سجن

وشعرها طويل واحدى يديها مفتوحة امام وجهها تطرح على الشاطىء ظل اصابعها كشوكة هائلة تزحف الى الامام بحثا عن مادة تنغرز فيها ، وكل شيء في شمس الشاطىء طويل او عريض او مدبب ، مستقيم ومقلم كالشفرة حتى الرجل البدين الذي يدرب ابنه على السباحة ، او الغرق ، على حافة الماء . وسرطان متقلص من الموت ينكفىء في الرمل ، مسحوقا وقريبا من صدفته الاهليلجية احدى ارجله تنطرح وحيدة

منفصلة ، وفوقها نملة حية منهمكة بشكل سري

احد اللوطيين الزنجيين جلس في الرمل ، كان هناك كلب كبير من نوع كلاب الرعاة يلهث بالقرب من قطعة خشب اسقطها لتوه من بين فكيه ناظرا الى صاحبه متوقعا اشارة ليحملها اليه ثانية

في لعبة مملة ، لعبة الرجل والكلب

الاقدام ، الحرارة . سماء ترعى غيمة واحدة تشبه امراة حبلى نائمة على ظهرها ترتدي البياض وفي اية لحظة قد تمنح طفلا للعالم دون ان يكون حولها احد ، وحيدة في صحراء

لا يسمع صراخها جميع هؤلاء فآذانهم كعيونهم تتسقط اصواتا قريبة ومألوفة تأتي من اليابسة حيث القمامة والكراسي ، او من البحر حيث الامواج الداخلة تواصل مهمة غير مفهومة وبلا هدف ودون ان تحقق شيئا سوى انتاج هذه الضجة وربما كانت تلك هي مهمتها ولكن

فجأة ترتفع يد ، يد واحدة عصبية قليلا تقذف بعبادة الشمس من على سطح المنضدة الخشبي الى مسافة اربعة امتار حيث ترقد ساطعة بلا حرارة ، كحيوان خرج من البحر الى اليابسة ذات يوم ، في هذه اللحظة ، ليعلن جنسه الغريب الآتي من الاعماق الى العالم

كما فعلنا نحن ذلك من قبل .

دم صحراء شمس ايقونة مفاتيح

لم استطع ان احدق طويلا لان الاشعة كانت تؤذي العينين ، كرتي العين بالاخص واطراف الجفن حيث الجلد الداخلي ، حين تكون العين مفتوحة ، معرض بلا رحمة للاشعة . لذلك تقدمت وعيناي نصف مغمضتين وانا اشعر بغطاء الجفن يرتعد مسالما فوق سطح العين واحيانا ينفتح رغم ارادتي مسحورا بالاشعة البربرية التي تنبثق من جميع جوانبي .

دم ، كان احدهم ينزف . كنت انزف من انفي

كنت انزف من انفي في الرمل . كنت انزف من انفي على ملابسي واخذت اسير وانا انزف من انفي على الارض ونظرت الى الخلف الى بقعة من الدم على حصاة عريضة واخذت اسير الى حيث السيارة على اليابسة وانا انزف من انفي

على يدي التي حاولت ان امنع بهما انفي من النزف ولكنها امتلأت بالدم فمسحتها بملابسي وكان قميصي الابيض دبقا والبحر دبقا يشبه الدم او الغراء الحار وانا اسير بعيدا عنه وهناك امراة تنتظر في السيارة تفتح الراديو في يدها مفتاح شعرها كثيف ذراعها بيضاء فمها ينفتح تحت انفها من الحرارة وهي تنظر الي وخلفي صحراء متحركة تحت اليابسة تحت البلدة ورأيتها واضحة في الحرارة واخذت تتموج في القيظ كأنها **تسبح** وجلست الى جانبها والسقف المعدني للسيارة يحمينا من الشمس ونحن نحدق الى الاسفل حيث البحر يشع داميا والحصاة تواجهه ببقعة من الدم كأيقونة تحرس اليابسة من العدو

هكذا انقضى النهار وتبعه الليل

صوتان قرب المحيط ، حانة مكسيكية . الجوارب امتلأت بالرمل وبعض الماء ومن ثم حاف واصابع القدمين تطبق على اليابسة تدخل الرطوبة

وبعد ذلك شعور بتسمم بطيء يصعد من الاسفل يطرح نوعا من العمى تحت الاجفان او كلون تتشرب به ورقة ، لون كثيف رملي صلد في داخل الانف . في داخل السيارة ، الصوتان والمحيط القريب وابر مضاءة تحت الزجاج رؤوسها تخترق غابة من الارقام ، سلسلة مفاتيح ، اربع ايد موزعة على المكان . رمل ايضا . مساحة شاسعة من القامات ، قوارب ، بنايات ، اعشاب ليلية وعينان في هيكل عظمي ، عينان قرب مرفقي . وفي نفس الوقت الرائحة البعيدة تنظف حين تقترب ، تلمس احيانا اكواما غامضة على الساحل تبعث بعفونة زائغة في الهواء : تنظف الصمت المرهق المتطاول هنا ، كعروق تمتد فوق اليابسة حمراء تنزف ، حارة ايضا ومليئة بذهول البلدة البعيد . وفي لحظة واحدة تلفت نظري . وفي لحظة واحدة التفت فأكتشف ان البلدة في اعلى المحيط وعلى طول اليابسة : تحترق .

تخطيط اولي للنظرة

تطرح المدن الراسية محتوياتها الى الثقوب ، الى البالوعات واحيانا الى الانهار . ولكن دائما نحو حفرة . ولكن دائما نحو هوة . احيانا في الليل تحاول مخلوقات ذات اطراف مضيئة ان تصعد واضعة ايديها على الحواف ووجوهها مرفوعة الى الاعلى . فهناك دائما سحر في الاعلى ، ارتعاشات عمودية في الخارج . نافورة قديمة من الحلم ، قوانين النزول . **محكمة القوانين التي هي العالم ، مغلقا على نفسه ويفتح تفجيريا بالضرورة .**

الرجل يقف وحوله سبعة سهام موجهة نحو الخارج ، مولودة منه حاضرة للانطلاق . حين يشرب كأسا من الماء ، ينطلق سهم . حين يرفع عينيه لينظر الى باب ، طعنة . رصاصة ، قنبلة بنتها ايدي حياته المشردة في قلعة الدقائق . وحين يحب نائما على جسد امرأة ، عليه ان ينفصل من داخله مادة . حتى العاطفة تتحول الى لحم ، وحبه يتحول في قمته الى ايام بيضاء تسيل منه سيلان عنصر مقدس . الطعام يذهب لا الى المعدة بل الرأس ، فالرجل الذي يأكل يعرف انه يغذي ذلك الشبح القابع في وعيه ، لا يحييه بل لينومه او يرشوه . فالجوع الجسدي يغذي الغياب وينفره للفتك بأن يشحذ يقظته وبأن يضعف بالمقابل الجسد الذي يقاوم تلك المدن المليئة بالاشباح والمنتصبة في الداخل . قوة اللحم ضد ديانات مجردة مؤلفة من ضوء الاعصاب وافكار انعكاسية ؛ احد اسباب الحيرة ولكن ايضا العناد : الرجل الذي ينظر الى الباب ، لم يعد يكتفي بذلك بل انه يتحرك نحوه . العين بوصفها ادق اداة للامتلاك تصبح كاملة في نظرة ، والنظرة تمتد الى حد ان تتخذ دور يد .

الباب ينفتح

الوصول الى المركز بالصدفة

يقف رجل في وسط العالم فجأة ويبدا بالصراخ .

يتوقف رجل عن العمل فجأة وينظر الى الباب .

يخرج من الباب .

يخرج الى ساحة مليئة بالناس . يسير بينهم مدة طويلة حتى يسمع انفجارا ويراهم يتفرقون في اتجاهات مختلفة . يدخل الى مقهى ويراقب دبابة من خلف الزجاج . يدور القسم العلوي من الدبابة ببطء دائريا ونحو اليمين ، الخرطوم كمجهر فارغ يلتقط القامات البشرية والصدور بصمت يخترقه صرير المحور الحديدي الذي يدور عليه ، كصوت آلة حصاد قديمة . تمر فوهة المجهر بالمقهى ثم تستمر عمياء في رحلتها الدائرية حتى تمر بالمقهى ثانية ، وتتجاوزه ثلاث مرات . في كل مرة تبدو الفوهة حين تواجهه وكأن عينا كبيرة تحدق من خلالها ، عين حيوان او زاحفة بحرية تقبع في نهاية الآلة .

جسور بعيدة في الهواء

صغير جدا على الجسر ، ولكن عندما يتحرك مقتربا تبدأ الدلالة بالبروز اكثر ويجبر معنى حركات الاعضاء المتحركة بالتوافق مع قوس الجسر ، والنهر في الاسفل — على الظهور ، ثم هناك اصوات النهر . اصوات النهر على الاكثر . تطغى الحركة احيانا على الاصوات . عندما يتحرك الرجل تراه العين وتخف اهمية الاصوات ، ويكون النهر مجرد خلفية في الرأس : ولكن عندما يقف ، تأخذ اصوات النهر بالسيطرة . ولكنه ما زال صغيرا على الجسر ينتظر احدا ، او انه قد سار كثيرا

ذراعه اليمنى فقط

تتحرك كمجذاف يدفع

قاربا الى حتفه

قبل ان نراه على الجسر . ومن هذه الغرفة تنطلق نظرة ثابتة لتستقر على قفاه ولكنه لا يشعر بها الا فيما بعد عندما يلتفت وكأن احدا هتف باسمه فجأة من نهاية العالم الاخرى

كومة علـى الدرج ، كومة ، (في الخلف ، انسينادا ، المكسيك : فضاء ، محيط ، غرفة فندق ، حيوانات ، تاريخ ، الى آخره) تظهر على سطح العالم وتختفي . في الشارع انوار تضاء لتطفأ بعد وقت معين ، بعد ان ظلت عمياء تحاول ان تضيء قامة ، حقيقة ، وجها . او مجرد كومة تتحرك فيما بعد وتنحدر الى ادراج اخرى

بعضها يقود الى رائحة الملوحة ، الى رائحة العفونة التي تتدفق من البحر ممتزجة بالملوحة وحرارة الحمى ، اصوات كأصوات اغتسال ، سوى ان الذي يغتسل في هذه اللحظة هو الدماغ الذي يحاول بقوة بسعار ان ينطفىء ولكنه يحترق أكثر ، طافيا في الكحول ومثل قطعة حادة من الزجاج تلمع بضعف في وسط كومة من الملابس واللحم ، مثل عين

كل ما كنته ، لن اكونه

ثانية . ما سأكونه لا علاقة

له بما كنته . حياتي ، لا اكثر ولا
اقل . حياتي المحتواة بين ملابسي .
الجرح القديم في اسفل ذقني .
شكل اصابعي ، انفي ، وجميع الاخطاء
التي تحدث حولي وتتسرب الى داخلي دون
ان ادعوها ، من خلالي . البقية غير
مهمة . هذه القبضة المتشنجة على مفتاح
فندق ، غير مهمة .

غير مسماة ، حركة تمثل كل ما حوله : غيمة من الضباب او الدخان تعبر حول مرفقيه وتختفي ، ثم تظهر امراة يطاردها رجل طويل ذو منكبين عريضين ، المراة تفتش في حقيبتها بهلع عن شيء ما ، عن سكين ، عن مسدس ، عن الحقيقة . ثم تبتعد ، الماء ، الماء البليد ، الرتيب بلا صفة بلا حياة بلا موت يحاول ان يقول شيئا ولا ينقطع عن الاستغاثة لحظة واحدة . جلس على صخرة . وضع يديه في شعره . وراء ظهره صوت اقدام المراة ، صوت اقدام الرجل كظل مشترك من الماضي يلوح في رأسه ، يصعد ويهبط على الماء ، فلينة ، خرقة في

داخلي ، اين ؟ داخلي ، ولكن
اين ؟ ولكن اين ؟ طيور واطئة ،
مفتاح في جيبي . بحر ، جلدي ، اخشاب
طافية . ملابس تظهر منها
يدا رجل . يدان بيضاوان . ولكن
اين ؟

فتح فمه ثانية . نظروا اليه ثانية . رأوه ثانية . توقف ثانية . ركض ثانية المحيط ثانية . من الباب ثانية . نحو جسور بعيدة في الهواء . الارجل ثانية . المحطة ثانية . نظروا نحوه ثانية . قاس الدائرة ثانية واخذ يحتج ورأوا العمود ، علقوا الرجل ثانية . تحرك ثانية .

انتهى .

قال شيئا ما ثانية .

المحيط . الخطان المتدان كطريقي رصاصتين تخرجان من بندقية واحدة في الظلام . اليد الموجهة نحو الصخور بدقة . بدأ ثانية . قامر ثانية . تبعه

المقامران الى الغرفة . رآها في الغرفة ثانية . وضعت يدها على المائدة . اخذا ينظران اليها . نظر اليهما ثانية . واليها ثانية .

شربا القهوة . ثم اخذت الاكواب الى المغسلة . ملأت المغسلة بعصبية .

شرب قهوته صامتا . رأى الباب ثانية والسرير ثانية . ذهبا ، انتهى . نظرت خلفهما وتنفست ثانية . اغلقت الباب . الرجلان يتكلمان

بينما

ينزلان

الدرج

ببطء

جلسا وحدهما الآن . نظرت اليه ثانية . وضعت يدها على كتفه وقالت شيئا ما ثانية . فرجها الغريب الدافىء ثانية

من ——————— الى

طعن احدهم المرأة بمقص ولكنها لم تصب بأذى كبير واخذت تعوي فهرب الرجل الذي كان ذا لحية ، وافلتت من يـده حقيبة اراد ان يتوقف ليلتقط الحقيبة ولكنه قرر ان مطارديه اقرب من اللازم ووضع حياته في ساقيـه الطويلتين واخذ يهرب اخذ يهرب بين بناية عالية واخرى قصيرة على ارضية دبقة بأوراق خفيفة تستعملها البغايا لمسح العرق والدم ، وبرجل يقف امامه فجأة وبيده المقص ضاحكا بلثة قريبة من وجهه تقف فيها بضع اسنان كحراس سكارى يتطوحون على برج المدينة ولحية وحقيبة تحت بناية كان بابها مغلقا والسيارات تهرع تحتها من نقطة غير مرئية الى نقطة غير مرئية . من ، الى . من هذه النقطة تنطلق قدمان لتعبرا على جميع النقاط التي تقود الى بعضها . الحركة في الظلام . في النور كومة من الملابس ، جسد امرأة اغتسلت قبل قليل . وحوش برية تختبىء في المسرح ، تقرض اقنعة تمثيلية مزيفة تمضغ حذاء امبراطور صيني اجنحة ملاك او خفاش ثم الستارة الكبيرة . هناك اسلحة فارغة تستعمل في المعارك الوهمية على المسرح ، خنجر خشبي ، تاج من القماش والاسلاك بلون الذهب او الغائط . اختبأ في المسرح قبل ان يكتشفه مطاردوه ، مطارده الوحيد الذي كان يشبهه . مطارده الوحيد الذي كان يلهث على المسرح . اخذ يقضي ايامه في شرب القهوة والنوم في التراب ، الصراخ في القاعة ، تصليح الكراسي ، قتل الفئران قناع الجلاد حزام عريض قبعات عريضة وضع قبعة عريضة على رأسه ثـم خرج .

عاد فحلق لحيته ثم وضع قناع وزير متآمر وخرج . عاد فارتدى سراويل اسبانية وسترة راقص اسباني وقبعة راقص اسباني وخرج . عاد فحمل حبلا وخرج فذهب الى الميناء . اخذ يجر قاربا وفي اليوم التالي شك فيه عمال الميناء فحاصروه بين قاربين واخذوا يضربونه بالحبل . جره احدهم الى جانب . جره آخر الى البحر ، وضعه احدهم على اليابسة . اخذ يجف على اليابسة . اخذ ينظر الى الشمس واخذ يجف . ذهب الى البلدة جافا ، غير معتدل في مشيته وسنحت له فرصة ان يقف في احد الابواب ليصغي الى اصوات في الداخل **اصوات اضراب تمرد سجناء حفلة غرفة تعذيب غارة على مبغى** لم يستطع ان يقرر . اخذ يقرع فازداد اللغط في الداخل . واخذت احذية ضخمة تطالب الباب بالانفتاح ولكنه قرع بكل قواه واخذ يصيح . اخذ آخرون يصيحون من الداخل اخذ رجل ذو حنجرة قوية يقول شيئا بصوت اجش . سمع امرأة تنتحب بضعف . ثم قالوا له من الداخل ان هناك امرأة عارية واخذوا يغرونه وهو يقرع بثبات جوابه الوحيد الذي لم يكونوا يفهمونه ، ثم اخبروه بطريقة سهلة لفتح الباب ولكنه لم يفهم بدوره لانه لم يكن يملك مفتاحا . واخذ يقرع . من الداخل والخارج كان الضجيج والدوي يتصلان في انفجار صوتي غليظ يهز الباب .

من الداخل والخارج كان الدوي يهز الباب واختلط عليه الامر فلم يعرف ما اذا كان هو الذي يطرق من الداخل ليفتحوا له ام انه جاء من الخارج ووقف وما زال واقفا في الخارج وهم يطالبونه من داخل المبنى بأن يفتح الباب من الخارج / ليخرجوا .

(سان فرنسيسكو ١٩٧١ - ١٩٧٢)

سركون بولص